تاريخ العصور الوسطى

الدكتور جوزيف نسيم يوسف
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية



دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير - اسكندرية
ت : ٤٨٣٠١٦٣



مكتبة التاريخ الوسيط

دراسات في

تاريخ العصور الوسطى

الدكتور جوزيف نسيم يوسف
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير - إسكندرية
ت ، ٤٨٣٠١٦٣

تصدير

يسرني أن أقدم لقراء العربية الكرام كتابي المعنون «دراسات في تاريخ العصور الوسطى» ، ضمن سلسلة «مكتبة التاريخ الوسيط» التي تتولى نشرها مؤسسة شباب الجامعة بالاسكندرية. ويتضمن هذا الكتاب ثمانية بحوث لي سبق نشرها في الدوريات والمجلات العلمية المتخصصة داخل جمهورية مصر العربية وخارجها ، فيما بين عامي ١٩٦٥ و ١٩٧٩ .

وهو يشتمل على قسمين متميزين ، كل منهما يغطي جانباً هاماً من جوانب العصر الأوروبي الوسيط . الأول في صميم هذا العصر ، ويشتمل على ثلاث مقالات ، أولاها عن الآراء والأفكار التي ثارت حول بداية العصور الوسطى الأوروبية ، وثانيتها تتناول النظريات التي قامت حول نهايتها ، مع عرض لأبرز خصائص ومميزات وسمات الحقبة الوسيطة من التاريخ كما تكشف عنها تلك النظريات . أما المقالة الثالثة فتزود القارىء بصورة حية عن مجتمع الاسكندرية في أواخر عهد الدولة الرومانية وبداية التاريخ البيزنطي ، وعلى وجه التحديد فيما بين عامي ٤٨ و ٦٤٢م ، أي عندما كانت مصر بما فيها الاسكندرية إحدى مقاطعات الدولة الرومانية إلى أن انتقلت إلى حوزة الدولة البيزنطية بعد سقوط الجزء الغربي من الإمبراطورية تحت ضربات الجرمان البرابرة .

أما القسم الثاني من هذه الدراسات فيشتمل على بحوث خمسة عن شبه جزيرة سيناء ، وكنوزها وآثارها التاريخية ، ووثائقها ومخطوطاتها العربية القيمة النادرة . وكانت زيارتي العلمية لشبه جزيرة سيناء وديرها في أواخر عام ١٩٦٣ خير عون لي على إعداد هذه البحوث . البحث الأول عبارة عن دراسة عامة لسيناء وتاريخها وكنوزها وآثارها الإسلامية والمسيحية في العصور الوسطى ، مع استعراض لتاريخ ديرها المشهور الذي شيده جستنيان في القرن السادس

الميلادى ، وما يحويه من نفائس لا تقدر بمال ، والدراسات التى ظهرت عنه .
والبحث الثانى دراسة متخصصة لمجموعة المخطوطات العربية المحفوظة بدير سيناء ، والتى تبلغ حوالى ستمائة مخطوطة . فأشرنا إلى محتوياتها وأهميتها التاريخية ، ثم تناولناها بالدراسة التفصيلية التحليلية المتعمقة التى خلصنا منها إلى عشرة نقاط هامة تفتح آفاقاً خصبة واسعة للباحثين والدارسين فى حقل التاريخ الوسيط .
ومن هذه النقاط مسألة تحديد تواريخ المخطوطات العربية ومصادرها ، ودراسة تطور الكتابة والخط العربى ، وأغلفة تلك المخطوطات وأهميتها من الناحيتين التاريخية والفنية ، والمخطوطات المصورة وما تعنيه ، والقلوفونات أو الخواتيم التى تنتهى بها معظم مخطوطات المجموعة العربية وقيمتها ، وموضوع التقاويم والتاريخ كما تكشف عنها تلك المخطوطات ، والتعليقات الإضافية المدونة على الهوامش وأهميتها التاريخية ، والتأثيرات العربية الإسلامية فى هذه المجموعة ، ومسألة طبقات الكتابة الممحاة فى بعض تلك المخطوطات المدونة على رق غزال . وأخيراً الحالة العامة للمجموعة ، ونماذج حية من أهمها . كل هذه وغيرها تمثل جوانب جديدة تماما يصح أن يكون كل جانب منها مجالا طيباً لدراسات مستفيضة قائمة بذاتها تخدم تاريخ العصور الوسطى وحضارتها بصفة خاصة ، وتضيف الكثير إلى العلم والتاريخ بوجه عام .

وتطبيقا لما تقدم كان البحثان الثالث والرابع . وأولهما عرض وتحليل لنسخ « بستان الرهبان » الخطية العربية غير المنشورة المحفوظة بسيناء ، وثانيهما عرض لنسخ « الفردوس العقلى » الخطية العربية غير المنشورة المحفوظة بسيناء . وقد حصرنا فى البحثين النسخ الخطية التى تحتفظ بها مكتبة الدير من كل من « البستان » و « الفردوس » ، مع محتوياتها والجديد فيها ، وكيف أنها يلقيان الضوء على حياة الرهبان وسيرهم وتعاليمهم وأقوالهم ، وعلى كل ما يتعلق بأمورهم الروحية

والجسدية . وأوضحنا أنها، فوق هذا وذاك ، يكشفان الكثير عن الحركة الرهبانية وبدايتها فى كل من مصر والشام فى بواكير العصور الوسطى ، وانتقالها إلى الدولة البيزنطية والغرب الأوروبى ، تلك الحركة التى تعتبر من أبرز خصائص التاريخ الأوروبى الوسيط .

وإذا كنا قد تناولنا فى البحوث الثلاثة السابقة مخطوطات سيناء العربية والجديد فيها ، فإن البحث الخامس والأخير من القسم الثانى عبارة عن دراسة تحليلية مقارنة فى وثائق العصرين الفاطمى والأيوبى التى تحتفظ بها مكتبة دير سيناء العربية ، التى يبلغ عددها بضع مئات ، تمتاز بأهميتها القصوى . إذ احتوت على المئات من الفتاوى ، والصكوك ، والعهود ، والمراسيم ، والبراءات ، والمنشورات ، والفرمانات ، والمعاهدات ، والحجج، التى تضمنت بدورها مادة من الطراز الأول ، تتميز بجدتها وأصالتها وبدقتها وعمقها ، فيما يتعلق بطبيعة الحياة فى منطقة سيناء ، وظروفها السياسية والاجتماعية والاقتصادية وأحوال الرهبان والأعراب الذين يعيشون هناك ، والعلاقات التى كانت سائدة بينهم من ناحية ، وبينهم وبين أولى الأمر فى مصر من ناحية أخرى . ثم أن هذه الوثائق ، التى تحمل بين طياتها صفة الوثائق الرسمية ، تتيح للمتخصصين مجالات رحبة واسعة لدراسات جديدة تمام الجدة فيما يتعلق بالخطوط التى دونت بها ، والتوافيع والعلامات السلطانية ، وأسلوب كتابتها وما طرأ عليه من تغيير من عصر إلى آخر . كل هذه وغيرها نواح جديدة تحتاج إلى عشرات البحوث والدراسات المدققة المتأنية التى يمكن أن تضيف جديداً إلى العلم بعامة وإلى تاريخ العصور الوسطى بصفة خاصة .

والله ، سبحانه وتعالى ، الموفق ؟

الاسكندرية يناير ١٩٨٣ — جوزيف نسيم يوسف

القسم الأول

العصور الوسطى الاوروبية

البحث الأول

العصور الوسطى الاوروبية

حدودها الزمنية والنظريات التي قامت حول بدايتها

نشر هذا البحث فى مطبوعات جمعية الآثار بالاسكندرية « دراسات أثرية وتاريخية » ـ العدد السادس ـ الاسكندرية (مصر) ١٩٧٩ ـ ص ١٧-٣٤ »

جاءت العصور الوسطى الأوروبية بعد العصر القديم لتقتطع من تاريخ الإنسانية حوالى عشرة قرون من الزمان . وهنـــاك كثير من الآراء والأفكار والنظريات التى قامت حول بداية تلك العصور ونهايتها ، ولكنها تبـدأ عادة بالقرن الخامس وتنتهى بالقرن الخامس عشر أو السادس عشر الميلادى . تبدأ بسقوط روما وانهيار الامبراطورية الرومانية القديمة على أيدى الجـــرمان البرابرة سنة ٤٧٦م وتنتهى بسقوط القسطنطينية فى أيدى الأتراك العثمانيين سنة ١٤٥٣م ، أو بحركة الإصلاح الدينى فى الغرب التى تزعمها لوثر فى القرن السادس عشر .

ويقسم المؤرخون الغربيون الحديثون تلك العصور الى حقبتين متميزتين: العصور المظلمة وتقع بين عامى ٤٠٠و١٠٠٠م ، والعصور الوسطى الحقيقية وتشغل القرون الخمسة أو الستة التالية . والحقبة الثـــانية تنقسم بدورها إلى فترتين لكل منها خصائصها وسماتها وان كانتا متصلتين بطبيعة الحال : الفترة الاولى وتشغل الحقبة الوسيطة من التاريخ الوسيط ، وتقع فيما بين القرنين الحادى عشر والثالث عشر للميلاد ، والثـــانية وتشغل القرنين أو القرون الثلاثة التالية ، وهى تعرف بالعصور الوسطى المتأخرة . والجدير بالذكر أن هذا التقسيم لا يعنى على الإطلاق أنه يوجد خط فاصل بين هذه الفترات ، إذ كانت متصلة وإن تميزت كل فترة منها بخصائص معينة : ثم أنه لا يجوز القول بأنه يوجد تمييز محدد واضح بين التاريخ الوسيط من ناحية وبين كل من العصر القديم والعصر الحديث من ناحية أخرى ، إذ تداخلت عناصر الفكر فى بعضها فى مختلف عصور التاريخ(١) .

---

(١) Cf. Coulton, G.G., The Medieval Scene, Cambridge, 1961, 1-2; Ker, W.P., The Dark Ages, London, 1955, 1f.

ولقد بدأت العصور الوسطى فى أوروبا بالقرن الخامس عندما وقعت غارات المتبربرين على الدولة الرومانية القديمة ، وكانت آنذاك شبحاً متهالكاً. ثم انهال أولئك القوم آخر الامر فى جوف هذه الدولة المتحضرة ، وقضوا عليها وعلى نظمها وحضارتها ليقيموا على أنقاضها ممالك جديدة جرمانية لها أنظمة وحضارة جديدة مغايرة(١) .

كان هذا يعنى ، بكلمة مختصرة ، نهاية عصر بأنظمته وقوانينه وتقاليده

= أنظر أيضاً كولتون (ج.ج.) : عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة ـ ترجمة وتعليق الدكتور جوزيف نسيم يوسف ـ ط. ثانية (الاسكندرية ١٩٦٧) ، ص ٥و٣٥ ــ ٣٦ . هذا ، ويذكر المؤرخ نورمان كانتوران فريقاً من المؤرخين يميل إلى تقسيم الفترة الممتدة بين عامى ٣٠٠و١٣٠٠م إلى مرحلتين متميزتين هما: العصور الوسطى المبكرة وتمتد من بداية القرن الرابع الميلادى حتى أواسط القرن الحادى عشر . وخلال تلك الفترة من الزمن بدأت تظهر حضارة جديدة هى خليط من الديانة المسيحية وبقايا التراث اليونانى والرومانى وحضارة الجرمان وأنظمتهم . وعلى هذا تعتبر تلك القرون السبعة أو الثمانية التى تميز العصور الوسطى المبكرة ، بمثابة فترة الطفولة أو مرحلة الصبا للعالم الاوروبى ، وهى تتميز بالقلاقل والاضطرابات والكوارث التى حلت بالغرب بسبب غزوات العناصر الجرمانية المتبربرة التى كانت دون العالم الرومانى مدنية وحضارة . وأما المرحلة الثانية فهى تعرف باسم العصور الوسطى الحقيقية . أنظر عن ذلك:

Cantor, N.F. (ed.), The Medieval World : 300—1300, New York, 1963, 1.

(١) Cf. Painter, S., A History of the Middle Ages : 284-1500, London 1966, 26 ff.; Le Goff, J., La Civilisation de l'Occident Médiéval, Paris, 1965, 27 ff.

وحضارته ، وبداية عصر جديد له نظمه وقوانينه الخاصة به . فقد تحطم جهاز العمل الرومانى ، وانهار من أساسه ذلك الصرح الشامخ فى السياسة والدين والاجتماع والاقتصاد والفلسفة الذى كان سائداً عند الرومان القدماء ، لتحل محله أنظمة مغايرة وأمم جديدة لها حضارتها وتفكيرها ومشاكلها الأدبية والمادية والاجتماعية الخاصة بها(١) .

وقبل تناول موضوع التحديد الزمنى للعصور الوسطى الأوروبية ، والنظريات التى قامت حول بدايتها ، يحسن أن نمهد لذلك بكلمة سريعة عن تقسيم التاريخ نفسه إلى حقب وعصور .

ان مسألة تقسيم التاريخ إلى عصور وتحديد بداية ونهاية كل عصر ، مسألة صعبة معقدة ثار حولها الكثير من الجدل بين المؤرخين وواضعى النظريات ، ولم يصلوا فيها إلى نتيجة حاسمة قاطعة . ولقد اتضح بعد دراسات طويلة مضنية أن التاريخ ليس له بداية أو نهاية ، وأن تحديد البدايات والنهايات لمختلف العصور التاريخية إنما هو محاولة اجتهادية تقليدية جرى عليها الكتاب والمؤرخون بقصد تسهيل دراسة التاريخ وتقريبه إلى الإفهام قدر الاستطاعة .

وعلى هذا يواجه الباحث الذى يتناول بالدراسة أى فترة تاريخية مشكلة التحديد الزمنى لها ، وأين يضع ذلك الخط الواضح الذى يفصل بينها وبين الفترات السابقة عنها واللاحقة لها ، وليس هذا بالأمر الهين أو اليسير ، لأن التاريخ عبارة عن سلسلة متصلة الحلقات من الحقائق والأحداث المتراصة المترابطة التى لا يمكن تفتيتها أو تجزئتها أو فصلها عن بعضها ، فكل فترة من

---

(١) Runciman, S., Byzantine Civilisation, London, 1948, 13 ff.; Painter, op. cit., 10 ff.

فترات التاريخ ما هى إلا عصر تغير وانتقال من السابق إلى اللاحق . ومع ذلك فقد اتفق على تقسيم التاريخ إلى ثلاثة عصور رئيسية هى : القـــديم والوسيط والحديث ، كما اتفق على تحديد كل عصر تحديداً زمنياً دقيقاً . ولكن يجب أن نفهم جيداً أن هذا التحديد الجاف لا يعنى بحال أن فترة ما تنتهى فى يوم معين معلوم وأن فترة أخرى تعقبها فى اليوم التالى تختلف عنها فى قوانينها وأنظمتهـا من سياسية ودينية وثقافية واقتصادية واجتماعية وغيرها .

فعند ما نقول ، مثلا إن العصور الوسطى تبدأ فى القـرن الخامس وتنتهى فى القرن الخامس عشر للميلاد ، أو أنها تقع على وجه التحـديد بين عامى ٤٧٦م و١٤٥٣م،فان ذلك لايعنى بحال أن التاريخ القديم بحضارته وأنظمته فى الدين والفلسفة والفكر والقانون والاقتصاد والاجتماع قد انتهى فجأة وبدون سابق إنذار سنة ٤٧٦م ، أو أن العصور الوسطى بمثلها ومبادئها ونظمها وتقاليدها قد زالت نهائياً سنة ١٤٥٣م . فلايمكن . فى الواقع ، تحديد يوم بالذات أوسنة بعينها كنهاية للتاريخ القديم وبداية للعصر الوسيط أو كنهاية للقرون الوسطى وبداية لعصر النهضة والعصر الحديث . فما لاشك فيه أن عناصر التاريخ القديم قد استمرت بعد سنة ٤٧٦م لتؤثر فى العصر الوسيط ، وإن لم تكن بنفس القوة التى كانت عليها قبل انهيار الإمبراطورية الرومانية القديمة . كما أن عنـــاصر التاريخ الوسيط قد استمرت ، هى الأخرى ، بعد سنة ١٤٥٣م لتؤثر فى عصر النهضة وإن لم تكن بنفس القوة التى كانت عليها قبل انتهاء العصور الوسطى .

ولإيضاح هذه المسألة نقول إن دراسة أى عصر تعنى القاء الضوء على النظم والحضارة السائدة فيه ، من اجتماعية واقتصادية وسياسية ودينية وعسكرية وفكرية وغيرها . وليس من الحكمة القول بأن كل هذه المظاهر التى يتميز بها عصر ما تنتهى فى يوم بالذات لتحل محلها بشكل فجائى وعلى الطريقة المسرحية ،

خصائص أخرى جديدة مغايرة . وعلى هذا فإن قيام العصور والحركات الهامة فى التاريخ ، وان قيام الدول والامبراطوريات وانهيارها ، وان الأحداث الخطيرة التى تؤثر تأثيراً بالغاً فى سير مجرى التاريخ البشرى — كل هذه لا يمكن أن تكون فجائية أو بنت يوم وليلة ، إنما هى عبارة عن عمليات تطور بطيئة مستمرة تحتاج إلى فترات من الوقت ممتدة متباعدة .

ولقد سار المؤرخون على هذا النهج فى أبحاثهم ودراساتهم ، وكانوا يختارون حادثة معينة أو واقعة لها دلالتها أو تاريخاً له أهميته ، ليكون نقطة البداية أو النهاية لفترة ما . والامثلة على ذلك عديدة ، إذ يعتبر بعض المؤرخين سنة ٤٧٦م التى قضى فيها البرابرة بصفة نهائية على شبح الامبراطورية الرومانية كبداية للقرون الوسطى الاوروبية ونهاية للتاريخ القديم . بينما يرى البعض الآخر أن عصر النهضة يبدأ بالشاعر الايطالى المعروف دانتى اليجييرى وملحمته الشعرية الكوميديا الالهية فى القرن الرابع عشر للميلاد ، أو بحركة الاصلاح الدينى فى القرن السادس عشر . ويجعل بعض الكتاب الثورة الفرنسية أو نتائج مؤتمر فيينا بداية للعصر الحديث ، وهكذا(١) .

وفى ضوء هذه الحقيقة يمكن أن ندرس العصور الوسطى الاوروبية التى اقتطعت من تاريخ البشرية حوالى عشرة قرون من الزمان ، فيجب أن نعرف كيف ومتى بدأت وكيف ومتى انتهت ، ويجب أن نضع ذلك الخط الواضح

---

(١) حول تقسيم التاريخ الى حقب وعصور وتحديد بداية ونهاية كل حقبة وعصر ، أنظر :

Gwatkin, H.M. and Whitney, J.P, (eds.), The Cambridge Medieval History, Vol. I, Cambridge, 1936, 1-2; Davis, H.W.C., Medieval Europe, London, 1941, 5-9.

الذى يفصل بينها وبين الفترات السابقة عنها واللاحقة لها ، وان كان من المسلم به بداءة أن عصور التاريخ عبارة عن حلقات فى سلسلة واحدة تمتد منذ القـــدم وحتى يومنا هذا .

ولقد تعددت النظريات والأفكار فى هذا الصدد ، واختلفت آراء المؤرخين المعنيين بالتاريخ الاوروبى الوسيط حول هذه المسألة اختلافاً عجيباً بيناً ، وعلى رأس هؤلاء جورج جوردون كولتون G. G. Coulton وسيدنى بينتر S. Painter وجون لامونت J. LaMonte ، وستيفن رانسيمان S. Runciman ، ونورمان بينز N. Baynes ، و.ب. كير W. P. Ker ، فضـــلا عن الكثيرين غيرهم .

وسنحاول فيما يلى غرض أهم النظريات التى قامت حول بداية العصر الاوروبى الوسيط .

الواقع أنه توجد حدود فاصلة عديدة يصلح كل منها أن يكون بداية لدراسة تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى . ولكل حادثة أو واقعة أو تاريخ ، ظواهر وخصائص ومميزات جعلت هذا المؤرخ أو ذاك يأخذ برأى أو بآخر كبداية لتلك العصور . وفيما يلى أهم النظريات التى أثيرت حول هذا الموضوع .

النظرية الأولى :

وضع بعض المؤرخين سنة ٢٨٤م كنهاية لتاريخ الدوله الرومانية القديمة وبداية العصور الوسطى الاوروبية ، وهى السنة التى تولى فيها الامبراطور الرومانى دقلديانوس Diocletian (٢٨٤ — ٣٠٥م) عرش الامبراطورية . وهناك أكثر من سبب دعا لهذا الاعتبار ، منها أن الامبراطور أوغسطس Augustus (٣٠ ق.م — ١٤م) كان قد وضع أساس القاعدة القائلة بأن الامبراطور هو أول رومانى حر فى روما . ولكن دقلديانوس نحا نحواً مغايراً ، إذ اعتنق مبادىء الملكية الشرقية التى تجعل من الملوك أشخاصاً فوق القانون وفوق

الشعب بل وتجعلهم فوق مستوى البشر ، فهم أقرب للآلهة منهم للنـاس ، فالملك في نظره نصف إله يجب أن يؤدى له الشعب فروض الطاعة والعبـادة والولاء ، وهذا يعني أن الاسس التي قام عليها التاريخ القديم بدأت تنهار لتحل محلها مثل وافكار وقيم جديدة .

ثم أن حكم دقلديانوس يرتبط بتلك الفظائع التي ارتكبها ضد المسيحية التي ظهرت في أخريات التاريخ القديم باعتبارها منافساً خطيراً لعبادة الامبراطور التي كانت سائدة وقتذاك ، وباعتبارها تهديداً لوحـــدة الامبراطورية ودولة داخل الدولة . ومن الدواعي الاخرى التي دعت إلى اختيار بداية حكم دقلديانوس كبداية للتاريخ الوسيط أنه يعتبر حداً فاصلا بين زمنين منفصلين تقريباً . فقد كان هذا الرجل أول من فكر ، ولو نظرياً ، في أمر تقسيم الامبراطورية الرومانية إلى قسمين أحدهما شرقي والآخر غربي ذلك التقسيم الذي لم يأخذ شكله النهائي الطبيعي إلا في عهد قسطنطين الكبير في أوائل القرن الرابع للميلاد . ومع ذلك يجب أن نفهم أن وجود حاكم في الشرق وآخر في الغرب في عهد خلفاء دقلديانوس لم يضعف من وحدة الامبراطورية الرومانية بمعناها المعروف وقتذاك ، بل كان هذا ، في واقع الامر ، عبارة عن انفصال ظاهري فقط . فقد كانت نفس القوانين والانظمة الحكومية ، بل ونفس التقاليد الرومانية معترفا بها آنئذ من كلا الحاكمين وفي كلا القسمين(١) .

---

(١) Baynes, N.H., The Byzantine Empire, London, 1939, 1-2; Runciman, op. cit., 20-24. LaMonte, J., The World of the Middle Ages, New York, 1949, 8-9.

النظرية الثانية :

ويحدد بعض المؤرخين سنه ٣٢٣م كبداية للعصور الوسطى ، وهى السنة التى اعتلى فيها الامبراطور قسطنطين الكبير Constantine I The Great (٣٠٥ — ٣٣٧م) عرش الامبراطورية بعد قضائه على خصومه ومنافسيه فى الشرق والغرب ، ومن أهم الأسباب فى الاخذ بهذه النظرية ما يلى :

أولا — التغييرات الاجتماعية والدينية الهائلة التى حدثت فى عهده كنتيجة لاعتراف قسطنطين بالديانة المسيحية كديانة رسميه للدولة بموجب مرسوم ميلان الشهير سنة ٣١٣م الذى أجاز رسمياً اعتناق الدين الجديد ، وأصبحت الكنيسة المسيحية هى كنيسة الدوله والامبراطور هو الرئيس الدينى الاعلى لها . وكانت هذه الخطوة انقلاباً عظيم الشأن ترك آثاره البالغة فى مجريات الامور والاحوال طيلة العصور الوسطى الاوروبية .

ثانيا — اقدام قسطنطين على خطوة لا تقل عن سابقتها شأنا ، وهى تأسيس مدينة القسطنطينية على الضفة الاسيوية البسفور عند اتصاله ببحر مرمرة ، لتفى بمطالب العصر وحاجياته بعد أن فقدت روما أهميتها الكبيرة التى كانت تتمتع بها . ولذلك آثار بالغة الاهمية فى مجرى التـــاريخ البشرى وقتئذ ، لان نقل الامبراطورية من الغرب الى الشرق ، وترك القياصرة الاقدمين روما الى القسطنطينية عند طرف أوروبا الاقصى ، كان معناه تأسيس دولة جديدة استمرت بعد سقوط الإمبرطورية الرومانية القديمة أكثر من عشرة قرون ، ونعنى بذلك الإمبراطورية الرومانية الشرقية أو الدوله البيزنطية التى كان مقرها القسطنطينية أى روما الجديدة تمييزاً لها عن روما الغرب . ومن النتائج التى ترتبت أيضاً على نقل كرسى الإمبراطورية إلى الشرق هو ترك روما وهجرها . فأمسى الكرسى الإمبراطورى فى روما القديمة خالياً ، وبدأ الرومان

ينظرون فى زعامتهم إلى البابا و ثان وقتئذ أسقف روما ، وهـذا يفسر قوة البابوية فيما بعد وتطلعها إلى زعامة العالم المسيحى دينيا ودنيويا ، ومحاولتها الاستيلاء على كل ما كان للامبراطور من حقوق وامتيازات فى التاريخ القديم . كما أدى هذا الى دخولها فى كفاح عنيف مع القوى العلمانية فى الغرب الاوروبى بعد احياء الامبراطورية الغربية فى عصر شارلمان فى القرن التاسع وتجديدها فى عهد أوتو الكبير فى القرن العاشر الميلادى . وغنى عن الذكر الآثار الوخيمة التى ترتبت على الكفاح المرير بين عاهلى المسيحية الغربية حول المسائل الدنيوية.

ثالثا — يلاحظ أن السياسة الادارية والمالية التى أسنّها قسطنطين ، وكذلك تشريعاته وقوانينه واصلاحاته العسكرية ، قد ساعدت على تدعيم الامبراطورية الشرقية ، بينما انحدرت الامبراطورية الغربية أمام سيل الجرمان البرابرة المتدفقين من الشمال والشرق(١) .

النظرية الثالثة :

ويحدد فريق آخر من المؤرخين ، وعلى رأسه ستيفن رانسيان ، سنة ٣٣٠م بالذات كبداية للتاريخ الاوروبى الوسيط بوجه عام ، إذ أن قسطنطين الكبير بدأ فى تشييد مدينته فى نوفمبر سنه ٣٢٤م ، وتم تأسيسها بعد خمس سنوات ونصفه عندما دشنها تحت اسم « روما الجديدة » أو « روما الثانية » فى ١١ مايو سنة ٣٣٠ ، تمييزاً لها عن روما الغرب ، ومع ذلك فضل المؤرخون ، القدامى والمحدثون ، أن يسموها « القسطنطينية » نسبة إلى مؤسسها(٢) .

---

(١) Runciman, op. cit., 24-28; Cantor, op. cit., 1 ff.

(٢) Runciman, op. cit., 14; Previté-Orton. C. W., The Shorter Cambridge Medieval History, Vol. II, Cambridge, 1952, 10 ff.; LaMonte, op, cit., 5.

البحث الثانى

نهاية العصور الوسطى الاوربية والنظريات التى قامت حولها

نشر هذا البحث فى مجلة « المؤرخ العربى » ــ العدد السادس ــ بغداد
(العراق) ١٩٧٨ ــ ص ١١٧ ــ ١٢٥ .

تحدد نهاية العصور الوسطى الأوروبية ظروف تختلف تماما عن تلك التى حددت بدايتها . لقد شاهدت العصور الوسطى المتأخرة ، وبصفة خاصة القرنان الرابع عشر والخامس عشر الميلاديان ، أنواعا شتى من الانقلابات التى انتفض لها كيان العالم الوسيط . لقد كان كل شىء فى أوروبا فى تغير تدريجى مستمر ، ولم يكن هناك شىء ثابت على حاله . كانت الدماء الساخنة تجرى فى العروق معلنة نهاية عصر وبداية عصر آخر .

ففى أخريات العصور الوسطى حاول رجال الفن التخلص من قيود العصور المظلمة التى جعلت هذا الفن فنا مسيحيا خاصـــا لا يعبر إلا عما هو موجود فى الأناجيل والكتب المسيحية . واستمدوا فنهم من عناصر شتى ، منها الحياة الواقعية التى كانوا يحيونها وقتذاك ، ومنها أيضا تراث وآثار اليونان والرومان القدماء الذى كانت أساليبه تختلف عن الفن الذى ساد العصر الوسيط . وكان أن وجد فن إنسانى رائع فى النقش والنحت والصور والتماثيل ، أصبح يصور شتى المعانى والموضوعات ، ويعبر عن مختلف المشاعر والأحاسيس التى كانت المسيحية وفلسفتها تحرمها تحريما باتا . كما أصبح يمثل تحرك الروح الإنسانية من قيود وأوضاع العصور الوسطى المبكرة إلى أوضاع جديدة مغايرة .

كذلك خرج رجال الأدب عن التفكير المسيحى المحدود الضيق ، وحاولوا التحرر من تقاليده التى كانت تحد من نشاطهم وانتاجهم إلى حد بعيد ، وعادوا إلى التراث الكلاسيكى القديم محاولين احياءه . وكان للعرب فضل كبير فى نقل هـذا التراث من الشرق إلى الغرب . ففى ايطاليا ، مثلا ، وقد كانت أسبق من غيرها إلى عصر النهضـــة ، وجدنا أديبا مثـــل دانتى اليجييرى Dante Alighieri (١٢٦٥ — ١٣٢١ م) يتمسك بعض الشىء بالأفكار الوسيطة ، وان كان قد بذر فى كتاباته بذور الفكر الحديث . ويجىء بعده شخص مثل بترارك Petrarch .

النظرية السابعة :

تضع فئة أخرى من المؤرخين سنة ٣٩٥م كنقطة التحول إلى التـــاريخ الأوروبى الوسيط ، على أساس أن الامبراطور ثيودوسيوس الكبير Thé. d sius I, the Great (٣٧٩—٣٩٥م) قسم فى هذه السنة التى اختتم بها حكمه ، الامبراطورية الرومانية التى كانت لاتزال تحت حكم شخص واحد ، إلى قسمين منفصلين مستقلين تماماً عن بعضها ، وليس كما سبق فى عهد دقلديانوس لأن تقسيمه هو وأتباعه للامبراطورية كان تقسيما صورياً فحسب . إذ كانت الامبراطورية تحت حكم ثيودوسيوس لاتزال وحدة واحدة فى مجموعها على الرغم من انقسامها انقساماً فرعياً الى فرعين . ولكن ثيودوسيوس قسمها إلى قسمين أحدهما غربى والآخر شرقى . وقد أعطى الجزء الشرقى لإبنه أركاديوس Arcadius ، والجزء الغربى لإبنه المسمى هونوريوس Honorius . وأصبح كل منها مستقلا عن الآخر ، وأسس لنفسه دولة وأسرة قائمة بذاتها . وهذا يعنى ، بكلمة مختصرة ، بداية دولة جديدة فى الشرق فى الوقت الذى كانت فيه دولة الغرب فى طريقها إلى التدهور والانهيار أمام جحافل الجرمان البرابرة(١) .

النظرية الثامنة :

فكرة أخرى قال بها بعض المؤرخين ، هى أن سنة ٤١٠م تعتبر بداية العصور الوسطى ، على أساس أن القوط الغربيين تحت قيادة ملكهم الشهيرالمسمى الاريك Alaric يكتسحون مقدونية وما وراءها من الأراضى اليونانية فى سنة ٤٠٠م . إلا أن القائد الرومانى ستيليكو Stilicho قام بحركة دفاعية ضد هذا العنصر من

---

(١) Katz, op. cit., 90; Hussey, J.M., The Byzantine World, London, 1957, 14.

البرابرة وهزموهم شر هزيمة سنة ٤١٠م فاضطر هؤلاء أن يبحثوا لهم عن موضع آخر يلتمسون فيه سبل الرزق والإقامة ، فاتجهوا غرباً إلى ايطاليا . ودخول القوط الغربيين ايطاليا له أهميته الكبرى فى التاريخ ، بحيث جعل بعض المؤرخين يعتمدون على هذه الحقيقة فى بداية التاريخ الأوروبى الوسيط . ذلك أنه فى سنه ٤١٠م تمكن هؤلاء البرابرة من اكتساح ايطاليا بما فيها روما نفسها ، وهذا يعنى نهاية عصر وبداية عصر آخر فى تاريخ أوروبا (١) .

النظرية التاسعة :

ويرى غالبية المؤرخين أن سنة ٤٧٦م هى أصلح وأنسب بداية لتاريخ القرون الوسطى الأوروبية ، لأن هذه السنة تعتبر آخر العهد بالإمبراطورية الرومانية القديمة فى الغرب . فاستيلاء البرابرة على روما نهائيا وقضاؤهم على شبح الإمبراطورية الرومانية الغربية فى شخص آخر أباطرتها الضعاف وهو رومولوس أوجستولوس Romulus Augustulus فى تلك السنة عندما أرسل القائد الجرمانى ادواكر Odoacer شارات تلك الإمبراطورية من روما إلى الجالس على عرش القسطنطينية فى الشرق وهو وقتذاك الإمبراطور زينو Zeno (٤٧٤ — ٤٩١م) — كان يعنى انتهاء الانفصال الظاهرى الذى حدد خطوطه دقلديانوس ومن جاء بعده من الأباطرة ، ثم عززه قسطنطين الكبير فى بدايات القرن الرابع واكده ثيودوسيوس الكبير فى أواخر ذلك القرن . وهكذا أصبح الانفصال حقيقة واقعة . والنتيجة أن حقوق الحاكم الغربى انتقلت إلى الجالس على عرش القسطنطينية فى الشرق ، وبذلك تنتهى الإمبراطورية الرومانية

---

(١) Katz, op. cit., 91-92.

القديمة بحضارتها ونظامها العتيق ، وبنهايتها تبدأ العصور الوسطى بأفكارها وفلسفتها (١) .

النظرية العاشرة :

ترى مجموعة أخـــرى من المؤرخين أن عهد الامبراطور جستنيان الاول Justinian I (٥٢٧ — ٥٦٥ م) هو الذى يميز نهاية التاريخ القديم وبداية العصر الوسيط فى أوروبا . ذلك أن حكمه اتسم بسمة هامة أضفت عليه طابع الوحدة ، وعنى بذلك محاولاته لاسترداد أملاكه الضائعة التى استولى عليها الجرمان فى غرب أوروبا ، وهى ايطاليـــا التى كانت تحت سيطرة القوط الشرقيين ، واسبانيا التى كانت فى قبضة القوط الغربيين ، وشمال أفريقية التى كانت فى أيدى الوندال Vandals ، وجهوده فى هـذا المضمار لإعادة الإمبراطورية إلى ماكانت عليه أيام اسلافه الرومان القدماء ، وبمعنى آخر تعتبر هذه الفئة من المؤرخين أن جستنيان ، عند تقييم محاولاته هذه ، يعتبر آخر اباطرة الرومان وبداية عهد جديد.

---

(١) Katz, op. cit., 93; Baynes, op. cit., 8.

ويعارض المؤرخ جون لامونت هذه النظرية قائلا : « عندما خلع ادواكر فى سنة ٤٧٦ م الشاب رومولوس أوجستولوس عن العرش ، ووحد رسميا شطرى الامبراطورية الغربى والشرقى ، اتخذ خطوة اعتبرها المؤرخون لاجيال طويلة بمثابة نهاية الامبراطورية الرومانية . ولا شك أنه لم يحدث شىء من هذا القبيل ، والواقع الامر أن عام ٤٧٦ م تاريخ لايستحق الذكر على الاطلاق ، لأن مسألة اعادة توحيد شطرى الامبراطورية لم تكن أمرا غير عادى ، فمنذ أيام دقلديانوس كان القسمان يتحدان وينفصلان عن بعضهما بصورة تلقائية ، بحيث لم يكن هناجديد فى الموضوع » أنظر : LaMonte, op. cit., 41.

ويكفى أن المعاصرين له اعتبروا ، بعد نجاحه فى حملاته فى ايطاليا وإسبانيا وشمال أفريقية ، أنه تم إحياء الامبراطورية من جديد ، وإن أثبت الواقع بعد موته خلاف ذلك (١) .

النظرية الحادية عشر :

وهناك فئة أخرى من المؤرخين تجعل مدخل التاريخ الأوروبى الوسيط ما بعد عهد جستنيان الأول ، أى مابعد سنة ٥٦٥م . إذ وضح العيان منذ أواخر ذلك العهد أنه لم يعد هناك أمل على الإطلاق فى إحياء الدولة الرومانية التى قضى البرابرة عليها وعلى معالمها وحضارتها ، وانشاوا دولا وممالك جديدة على انقاضها لها نظم وحضارة جديدة مغايرة . لقد أثبتت الأحداث أن الأمــــل تلاشى فى استرجاع ممتلكات تلك الدولة فى الغرب الأوروبى ، وأصبح من واجب الدولة الرومانية فى الشرق التحول عن الطريق القديم إلى طريق جديدة ترتبط بالوضع الجغرافى للجزء المتبقى من الدولة الرومانية ، ولم يكن أمامها الا أن تسلك هـذا السبيل . بمعنى أنه كان يجب على تلك الدولة أن تتجه اتجاها شرقيا بيزنطيا طبقا لمقتضيات الظروف والاحوال الجديدة . ويكفى للتدليل على وجاهة هذا الرأى ، أن الاباطرة الذين جاءوا بعد جستنيان قد تركوا الغرب وممالكه الجرمانية تتكون تكوينا جديدا وتنمو على أساس يخالف الاساس الذى قامت عليه دولة الرومان القدماء . وقد حاول الامبراطور جستين الثانى Justin II (٥٦٥ - ٥٧٨ م) الذى خلف جستنيان إعادة الكرة ، لكنه فشل فشلا ذريعا ، وكانت النتيجة أن فقد عقله (٢) .

---

(١) Baynes, op. cit., 8; LaMonte, op. cit., 51 ff.

(٢) Katz, op. cit., 115; LaMonte, op. cit., 67-68.

النظرية الثانية عشر :

ويذهب عدد آخر من الكتاب ، وعلى رأسهم جون لامونت ، أن العصور الوسطى تبدأ فى ليلة عيد الميلاد فى روما سنة ٨٠٠ عندما تم تتويج شارلمان أو شارل العظيم Charles, the Great (٧٦٨ - ٨١٤ م) امبراطورا على الغرب على يد أحد بابوات روما هو البابا ليو الثالث Leo III (٧٩٥ - ٨١٦ م) ، وعندما تم إحياء الإمبراطورية القديمة ، التى كانت قد انهارت فى اخريات القرن الخامس ، تحت اسم جديد هو « الامبراطورية الرومانية الغربية المقدسة » ، لتتلائم مع مقتضيات الظروف والأوضاع الجديدة المغايرة ، بعد قضاء المسيحية والجرمان على الوثنية والدولة الرومانية القديمة .

لقد كانت هذه هى الدولة الرومانية الجرمانية المسيحية الناشئة فى الغرب . وسند الفئة التى تأخذ بهذا الرأى أن شارلمان كان ، فى الواقع، آخر اباطرة الرومان بالمعنى الرومانى القديم ، وأن فشل مشروعه لاحياء دولة قياصرة القدماء بضم الجزء الشرقى إلى أملاكه ، لهو برهان واضح على أن ظروف العالم الاوروبى قد تغيرت تغيرا تاما لا يمكن العودة بها إلى الوراء (١) . ويرى المؤرخ نورمان بينز أن هذه النظرية، وإن كانت تشبع رغبة مؤرخ النظريات السياسية او الباحث فى تاريخ أوروبا الغربية ، الا انه ليس لها قيمة كبيرة بالنسبة للباحث المدقق فى تاريخ الدولة الرومانية الشرقية (٢) .

واضح ، مما سبق ، أنه فى مثل هذه المواضيع يدلى الكتاب والمؤرخون وواضعو النظريات السياسية كل بدلوه ، فيحدد كل باحث التاريخ الذى يراه

---

(١) LaMonte, op. cit., 41-24.

(٢) Baynes, op. cit., 8.

أنسب من غيره من وجهة نظره ، مدعما إياه بالحجج والأسانيد . ولكل رأى ، بطبيعة الحال ، وجاهته . وهناك ، إلى جانب ماذكرنا ، نظريات أخرى أقل أهمية لها من يؤيدونها ويأخذون بها ، وهناك من يقفون منها موقف المعارضة وعدم التأييد .

ولكن ، مهما يكن الاختلاف بين المؤرخين والدارسين على تحديد النقطة التي ينتهى فيها التاريخ القديم ويبدأ بها العصر الوسيط فى أوروبا ،الا أننا نخلص مما سبق أنه كانت هناك عوامل كثيرة متشابكة معقدة متداخلة فى بعضها، بعضها مباشر والبعض الآخر غير مباشر ، والبعض جوهري والآخر ثانوى ، هيأت الجو لقيام العصور الوسطى . ولم تكن مثل هذه العوامل بنت يوم وليلة ، وانما استغرقت عشرات السنوات قبل أن تبدأ تلك العصور نفسها . ونستنتج أيضا ان اقرب الفروض إلى الصحة والواقع ، والى الاحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية والفكرية التي قامت فى أوروبا وقتذاك ، أن العصور الوسطى فى أوروبا تبدأ بلا نزاع فى القرن الخامس الميلادى ، كما أنها انتهت حوالى القرن الخامس عشر للميلاد . ولذلك تكون تلك العصور قد اقتطعت من تاريخ الانسانية حوالى عشرة قرون تميزت بنوع من المدنية والحضارة الوسيطة المتوسطة الشأن التي قامت كجسر بين المدنية الرومانية الزاهرة وبين الحضارة العملاقة التي ترتبط بالتاريخ الحديث .

والاخذ بالرأى القائل بأن العصور الوسطى الاوروبية تبدأ فى القرن الخامس مبنى ، فى الواقع ، على الاتجاهات التي نشأت فى أوروبا وقتذاك . إذ شاهد الإنسان الذى عاش فى القرن الخامس من التغييرات الهامة والاحداث الخطيرة فى مجرى التاريخ البشرى ما يبين بصفة حاسمة تغييرا جذريا فى طبيعة أوروبا يدعو إلى الاعتقاد بأن العالم القديم قد انتهى وأن عصرا جديدا قد حل . لقد

شاهد رجل القرن الخامس انتهـاء الدولة الرومانية بحضارتها ونظمها وبداية البربرية فى التاريخ الاوروبى ، كما شاهد زوال الوثنية وعبادة الاباطرة وتأصل المسيحية على حد قول أحد المؤرخين الغربيين المحدثين وهو أدوارد جيبون (١).

لقد كانت الدولة الرومانية القديمة ، بحضارتها وقوتها وعظمتها المعروفة تنهار بسرعة مذهلة فى ذلك الوقت ، كما بدأت العناصر المتبربرة تتدفق داخل حدودها لتؤسس ممالك لها على أنقاضها لها أنظمتها وتقاليدها الخاصة بها ، بينما أخذت الديانة المسيحية فى الظهور والانتشار فى أوروبا وفى روما نفسها على انقاض الوثنية وعبادة الاباطرة . وهكذا يتداعى النظام القديم من أساسه فى السياسة والدين والاجتماع والاقتصاد والفكر والحرب ، وتقوم على أنقاضه أمم جديدة ذات حكومات مغايرة لما كان معروفا عند الرومان القدماء . ولقد كان لهذه الأمم وحداتها الاجتماعية وحضارتها وأنظمتها الخارجية وتفكيرها الخاص بها ، كما كان لها مشاكلها الادبية والمادية والاجتماعية التى تختلف عما كان حادثا عند الرومان . كل هذا يؤكد ، بما لايدع مجالا للشك ، أن التاريخ القديم قد انتهى ، وحل محله عصر آخر فى أوروبا .

ويلاحظ أن التغييرات التى تكلمنا عنها لم تكن فجائية ، وانما كانت عبارة عن عمليات تطور بطيئة مستمرة فى فترات غير قصيرة من الزمن . إذ لا يمكن الاخذ بفكرة تحديد الانتقال بين التاريخ القديم والعصر الوسيط فى سنة معينة أو يوم

---

(١) أنظر رأى جيبون وتعليق المؤرخ كولتون عليه فى : كولتون : عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة (الترجمة العربية) ، ص ٧ و ٤٦ و ٥٠ . أنظر أيضا رأى كل من ديفز ولامونت :

Davis, op. cit., 7 ; LaMonte, op. cit., 88.

بذاته يكون ماقبله قديم وما بعده وسيط ، كما لو أن الستار يسدل على الماضى فى ساعة معينة ويرتفع عن الجديد بعدئذ على الطريقة المسرحية . فتحديد السنين والتواريخ ـ حسبما أسلفنا ـ مسألة اعتبارية بحتة المقصود بها تسهيل فهم التاريخ وتقريبه إلى الأذهان قدر الاستطاعة .

النظرية الرابعة :

وثمة فريق آخر من المؤرخين يحدد سنة ٣٦١م كبداية القرون الوسطى . وهى سنة اعتلاء الامبراطور جوليان المرتد Julian, the Apostate (٣٦١ — ٣٦٣م) عرش الامبراطورية الرومانية الشرقية ، ومحاولته الفاشلة القضاء على الديانة الجديدة وهى المسيحية ، واعادة الوثنية من جديد كدين رسمى للحكومة . ويدل إخفاقه على أن تطوراً خطيراً قد طرأ على العالم الأوروبى ، وعلى أن الديانة الجديدة كانت قد تأصلت جذورها فى كيان هذا العالم بشكل لايسمح لأحد حتى ولو كان الإمبراطور نفسه أن يعود به إلى الماضى الوثنى . وغير خاف أن تأصل الدين الجديد فى أوروبا ترك آثاره البالغة على مجريات الأمور والاحوال فيها لمدة تزيد عن الف عام . وبكلمة أخرى تمثل هذه الفترة الصراع الرهيب بين الوثنية والمسيحية ، وبكلمة أوضح وأدق فى التعبير ، بين نظامين مختلفين تماماً عن بعضها : أولهما يمثل القديم بكل مفاهيمه وافكاره ، والآخر يمثل الوسيط بكل أوضاعه وفلسفته(١) .

النظرية الخامسة :

ويحدد البعض سنة ٣٧٦م كنهاية للتاريخ القديم وبداية للعصر الوسيط ، على أساس أنها كانت السنة التى تحول فيها أحد العناصر الجرمانية ، وهو عنصر القوط الغربيين Visigoths من الوثنية إلى المسيحية على يد أسقف أريوسى اسمه اولفيلاس Ulfilas . وترجع أهمية هذا التاريخ فى نظر المؤرخين إلى اهتمامهم الزائد بموضوع الجرمان البرابرة وماكان لهم بعدئذ من القوة والجبروت

---

(١) Cf, Ostrogorsky, G., History of the Byzantine State, trans, by J. Hussey, Oxford, 1956, 45-46.

فى غزواتهم التى اكتسحوا بها روما ، ويمكن الأخذ بهذا التاريخ كنقطة تحول لمجرى التاريخ العام . فاعتناق القوط الغربيين المسيحية ، جعل أباطرة الدولة الرومانية الشرقية يسمحون لهم بعبور نهر الدانوب والاستقرار بصفة مؤقتة فى جوف الامبراطورية . وكان هذا من البدايات التى تدل على غزوات البرابرة فى أوروبا فيما بعد وما ترتب عليها من آثار(١) .

النظرية السادسة :

ويضع بعض المؤرخين المعنيين بهذا الموضوع سنة ٣٧٨م كمدخل للتاريخ الأوروبى الوسيط ، وذلك لوقوع معركة من المعارك الهامة الحاسمة فى التاريخ الأوروبى بين القوط الغربيين وبين جيوش الامبراطور البيزنطى فالنس Valens (٣٦٤—٣٧٨م) بجوار مدينة أدرنة ، وقد سميت الموقعة باسم تلك المدينة . وفيها ألحق القوط الغربيون هزيمة ساحقة بالجيش البيزنطى كانت لها مضاعفاتها وآثارها الخطيرة . وقد اعتبرت هذه المعركة لفترة طويلة إحدى المعارك الفاصلة فى التاريخ(٢) . ويرى أحد المؤرخين الحديثين ، وهو سولومون كاتز S. Kats أن سنة ٣٧٨م تعتبر البداية الحقيقية للغزوات الجرمانية فى أوربا . وبالتالى حداً فاصلا بين العالمين القديم والوسيط . ويقول إن القوط الغربيين قضوا فى هذه المعركة على ثلثى الجيش الرومانى فى الشرق وعلى أكفأ قواده . بل وعلى الامبراطور فالنس نفسه(٣) .

---

(١) LaMonte, op. cit., 42; Painter, op. cit., 21.

(٢) LaMonte, op. cit., 42.

(٣) Katz, S., The Decline of Rome and the Rise of Mediaeval Europe, New York 1960, 88-89.

(١٣٠٤ — ١٢٧٤ م) فيحاول كسر قيود العصر الوسيط . ونعرف أنه كان مولعا بجمال الطبيعة ، وهو الأمر الذي حرمته المسيحية التي كانت تدعو إلى العالم الآخر والبعد عن ملذات الحياة الدنيا . ثم يجيء أديب مثل بوكاشيو Bcccaccio (١٣١٣ — ١٢٧٥ م) لينتقد رجال الدين نقدا مرا لاذعا .وأخيرا يأتى شخص مثل لورنسو العظيم Lorenzo الذى دعا إلى الحرية والتمتع بالحياة فى شتى صورها ومظاهرها ، وهو أمر لم يكن مألوفا فى القرون السابقة . وكانت جهود أمثال اولئك الأدباء والشعراء كفيلة بخلق عصر جديد من عصور الثقافة الأوروبية ، على حد قول أحد المؤرخين الغربيين المحدثين وهو ج.أ. سيموندز J. A. Symonds

وفى القرن الخامس عشر يحاول رجال الفكر الخروج على تعاليم الكنيسة اللاتينية الكاثوليكية التى كانت قد تسلطت على عقول الأفراد ومقدراتهم وعلى حياتهم الخاصة والعامة ، لها الأمر والنهى ، وعلى الجميع السمع والطاعة . وقد أدى هذا إلى قيام النهضة العلمية الحديثة التى يرجع فيها الإنسان إلى الدراسات الكلاسيكية القديمة وإلى المدنية الرومانية ، من حيث تحرير الفكر ، والبحث والتنقيب فى الكتب التى كان قد نبذها العصر الوسيط لما كانت تحويه من عناصر وثنية . ولهذا تميزت القرون الأخيرة من العصر الوسيط ، بصفة عامة ، بحرية التفكير ، والتأثر فى ذلك بما كان موجودا عند قدماء اليونان والرومان فى ميدانى السياسة والدين وغيرهما. وكانت النتيجة هى الخروج على تعاليم العصر الوسيط المبكر ، وعلى تعاليم الكنيسة اللاتينية نفسها التى كانت تحد من انطلاق الفكر . كما بدأت المذاهب الفلسفية القديمة فى الانتشار ، مثل الأفلاطونية الجديدة والأرسطالية الجديدة وغيرهما. وأخذت كل جماعة تتعصب لمذهب من المذاهب ، مما أدى إلى الصراع الفكرى وتطور عقلية الفرد فى أخريات العصر الوسيط .

وتميزت هذه الفترة ايضا بالتغيير الذى شمل كافة الأسباب السياسية والتاريخية. ويبدو هذا بوضوح فى المبادىء التى نادى بها شخص مثل نيقـولا مكيافيللى Niccolo Machiavelli (١٤٦٩ — ١٥٢٧ م) الذى يمثل ذروة عصر النهضة فى أوروبا ، والذى يعتبر كتابه الأمير خلاصة فلسفة الاستبداد وقتذاك . ويقوم الكتاب على مبدأ أن الغاية تبرر الوسيلة .

كذلك كان للتقدم الذى احرزه الانسان فى ميدان العلم والاختراع أثره فى القضاء على الأسس التى قامت عليها العصور الوسطى المبكرة ، وفى تهيئة الجو لعصر جديد مغاير . إذ تم اكتشاف الدورة الدمـوية ، وتشريح جسم الإنسان والحيوان والنبات . كما اخترعت البوصلة التى تم استخدامها فى الملاحة البحرية . واخترع التلسكوب أيضا ،وظهرت النظريات الفلكية مثل نظرية جـاليليو Galileo الذى اثبت أن الأرض ما هى إلا أحد الاجرام السماوية . وتم كذلك استخدام الورق واختراع الطباعة على يد جوتنبرج Gutenberg سنة ١٤٥٠ م. وظهرت الكتب تحمل إلى الناس العلم والمعرفة ، الأمر الذى ترتب عليه اتساع المدارك والآفاق مما هيأ الجو لعصر جديد . كما اخترع المدفع والبارود ، وكان لهما اثرهما فى دك آخر معاقل وحصون رجـال الاقطاع فى الغرب الاوروبى ، وزوال الاقطاع يعنى زوال عصر بكل مفاهيمه وأوضاعه وبداية عصر جديد بمفاهيم واوضاع جديدة مغايرة .

ويجب ألا يغرب عن البال أن رجال العلم والاختراع ، شأنهم شأن رجال الفن والادب والفكر والسياسة والتاريخ، لقوا الكثير من المضايقات والاضطهاد من المتزمتين من رجال الدين . ولكن هذا لم يكن ليوقف عجلة الزمن عن السير فى طريقها بعد أن بدأ أفق الانسان الضيق المحدود يتسع تدريجيا ، وبعد أن انطلق

هذا الانسان من الدائرة المغلقة التى كان يعيش أسيرها طوال قرون عديدة إلى مجالات رحبة واسعة .

وفى نهاية العصور الوسطى تظهر كذلك شخصية الفرد التى لم يكن لها وجود فى عصر الاقطاع فى المجتمع الغربى الوسيط الا فى صلب الطبقات المختلفة التى ينتمى اليها الفرد . بمعنى أن شخصية الفرد تذوب وتمحى فى صلب الطبقة التى ينتمى اليها فهو إما سيد أو مسود ، تابع أو متبوع ، له مكانه فى السلم الاقطاعى تبعا لما يرتبط به من سعة الإقطاع ، أما فى بدايات عصر النهضة تبدأ شخصية الفرد فى الظهور ويبدأ الفرد فى التعبير عن أرائه وفى المطالبة بحقوقه وحرياته .

كذلك بدأت حركات الإصلاح الدينى التى اخذت تنادى بإصـــلاح الجهاز الكنسى البابوى بعد أن استشرى فيه الفساد ، من رشوة وبيع صكوك الغفران وزواج رجال الكنيسة والإنغماس فى المسائل الدنيوية وتدهور الرهبنة والديرية . وأصبح الرجل العادى يجرؤ على مساجلة المذهب الكاثوليكى الغربى الذى ساد العصور الوسطى والذى كان الخروج عليه يعتبر هرطقة لها آثارها المفجعة من حيث الحكم باعدام المهرطق حرقا بالنار . وكلنا يعرف محاكم التفتيش والدور الخطير الذى قامت به فى أخريات العصر الوسيط بالنسبة لمن تحوم حوله شبهة الهرطقة . وكانت النتيجة هى قيام حركات الإصلاح الدينى مثل حركة يوحنا ويكلف الإنجليزى John Wiclif (١٣٢٤ - ١٣٨٤ م) فى انجلترا وغرب أوروبا وحركة زميله يوحنا هس البوهيمى John Huss (١٣٦٩ - ١٤١٥ م) فى بوهيميا وشرق اوروبا . وكان ذلك فى القرن الرابع عشر وبداية القرن الخامس عشر الميلادى . وكذلك قيام المذاهب المسيحية الحديثة ، وأهمهـــا المذهب البروتستانتي أو المعارض في القرن السادس عشر الميلادي ، والذي انتشر منذ

قيـــام مارتين لوثر Martin Luther (١٤٠٣ - ١٥٤٦ م) بحركته فى دول متعددة فى غرب أوروبا . وكانت النتيجة اضمحلال الكنيسة اللاتينية وزوال هيبتها وقدسيتها وانفضاض الناس من حولها . وتدهور الكنيسة يعنى إنهيار ركن أساسى من الأركان التى ارتكزت عليها العصور الوسطى .

كذلك شاهد القرن الخامس عشر بالذات من الحوادث السياسية البالغة الأهمية والتى كان لها أثرها فى مجرى التاريخ، عددا كبيرا . ولعل أهمها أثرا وخطرا دخول الأتراك العثمانيين فى أوروبا كعنصر غريب عليهـــا من حيث الجنس والدين ، واستيلاءهم على مدينة القسطنطينية بصفة نهـــائية سنة ١٥٤٣ م . وبسقوط تلك المدينة التى تتمثل فيها تقاليد وفلسفة وافكار ومثل العصور الوسطى ، يتهدم آخر صرح من مؤسسات التاريخ الأوربى الوسيط بصفة عامة والدولة البيزنطية بصفة خاصة . كذلك تنتهى فى نفس هذا الوقت حرب المائة عام بين انجلترا وفرنسا (١٣٣٨ - ١٤٥٣ م) التى تعتبر هى الأخرى من مميزات العصـــور الوسطى وخصائصها العـــامة . بمعنى أن هذه الأحداث السياسية كانت تعنى زوال عصر وبداية عصر جديد .

وفى نفس هذا الوقت نجد أن قيام الممالك الحديثة المستقلة يأخذ اتجاها آخر غير الاتجاه الذى كانت تخضع له تلك الممالك - ولو نظريا - فى أوروبا فى العصور الوسطى ، الى سلطان الامبراطور من الناحية الزمنية والى سلطان البابا من الناحية الدينية . ولكن هذه الوحدة تضعف فى اخريات العصر الوسيط نتيجة لظروف وعوامل عديدة متعددة ؛ والنتيجة أن كل حاكم أخذ يجمع اليه كل أفراد شعبه ، تاركين الاعتبارات العالمية العتيقة التى تتعلق بنظم أوروبا فى العصور الوسطى وتنبذ عالمية الكنيسة اللاتينية . وبدأت الآداب القومية تظهر لغات تلك الدول

بدلا من حصرها فى اللغة اللاتينية .وكان هذا تغييرا له دلالته ومغزاه فيما يتعلق بالأسس التى قامت عليها العصور الوسطى .

كذلك قامت فى اواخر العصر الوسيط الجامعات التى اصبحت فى عصرنا الحالى أساس التعليم العالى ، ومن بين جدرانها تخرج الشباب المثقف المستنير. وقد بزغت شمسها مبكرا فى القرن الثانى عشر للميلاد ونهضته العلمية المعروفة بالنهضة العلمية الأولى التى ادت إلى احتكاك الفكر الإنسانى بين عدد من كبار الفلاسفة والمفكرين وقتذاك من أمثال الفيلسوف بطرس ابيلارد Peter Abelard والقديس برنارد اوف كليرفو St. Bernard of Clairvaux فهذه الجامعات هى التى حملت لواء العلم والمعرفة مما ساعد على تنوير اذهان الناس وزيادة عدد المثقفين . واخرجت الكثير من العلماء فى شتى فروع المعرفة الذين اخذوا ينادون بالاصلاح الشامل فى النظم والتعاليم الوسيطة ، ويطالبون بتحرير الفكر وانطلاقه من القيود البالية المتزمته ، مما هيأ الجو لهذا التغيير الكبير الذى شهدته أوربا فى اخريات العصر الوسيط (١).

---

(١) حول هذا التغيير الهائل الذى شهدته أوروبا فى شتى مجالات الحياة فى اواخر العصر الوسيط ، انظر المراجع التالية :

Brinton, C. and others, A History of Civilization, Vol. I, New Jersey, 1967, 303 ff., 381 ff., 409 ff., 425 ff., Baker D.N. and Fasel G.W. (eds.) Landmarks in Western Culture , Vol I, New Jersey, 1968,345 ff., Waugh. W.T., A History of Europe from 1378 to 1494. London, 1932, 1-9 ; Le Goff J., La Civilisation de l ' Occident Médiéval, Paris, 1965. 445 ff., Stone, D., France in the Sixteenth Century, New Jersey, 1969, 6 ff., Stephenson, C., Medieval Feudalism, New y rk. 1942, 102-109; Paetow , L.J.,A Guide to the Study of Medieval History, London, 1931, 330 - 1, 483-484, 493 ff., 512 ff. =

وإستنادا على كل ما سبق ، يمكن تلخيص أهم النظريات التى قامت حول نهاية العصور الوسطى الاوربية وبداية التاريخ الحديث ، فيما يلى :

النظرية الاولى :

تدور هذه النظرية حول الشاعر الايطالى دانتى اليجييرى والكوميديا الالهية . اذ اعتبر بعض المؤرخين أن حياة دانتى وكتاباته باللغة الايطالية المعاصرة له بدلا من لاتينية العصر الوسيط ، والتى لخص فيها أهم ما وصل اليه التاريخ الوسيط ، والتى بذر فيها أيضا بذور الفكر الحديث فى القرن الرابع عشر الميلادى ـ اعتبرها بعض المؤرخين نهاية العصر الوسيط وبداية لحركة النهضة العلمية التى استمرت فى القرن الخامس عشر وبلغت ذروتها فى القرن السادس عشر للميلاد . وعلى هذا يكون فى رأيهم أن القرن الرابع عشر الميلادى هو نهاية العصر الوسيط وبداية العصر الحديث (١).

النظرية الثانية :

تدور هذة النظرية حول الاصلاح الدينى الذى بدأ فى القرن الرابع عشر . إذ قامت كثير من الحركات تنادى بالخروج على تعاليم الكنيسة اللاتينية التى كان قد دب

---

(١) وللمزيد من المعلومات عن هذ النواحى ، أنظر ما يلى :

Lodge. R., The Close of the Middle Ages, London, 1922; Burckhardt, J., The Civilization of the Renaissance in Italy, Oxford. 1944; Huizinga. J., The Waning of the Middle Ages. London, 1955.

Paetow, op cit; 541 - 552 ; Baker and Fasel ; op cit., (I) Vol. 1, 284 , Les Utopies à la Renaissance, Colloque international (avril 1961) sous les auspices de la Fédération Internationale des Instituts et Sociétés pour l étude de la Renaissance et du Ministére de L Education nationale et de la Culture de Belgique Bruxelles, 1963, 23 ff.

فيها الفساد . وباصلاح الجهاز البابوى بعد أن تدهورت البابوية وبعد البابوات أنفسهم عن التعاليم الأولى للمسيحية . ومن أهم هذه الحركات اللولاردية الانجليزية التى قامت للاحتجاج على كل ما اخرجته الكنيسة والبابوية فى العصر الوسيط من نظم وتعاليم ، والتى تزعمها العالم اللاهوتى المعروف يوحنا ويكلف (١٣٢٤ — ١٣٨٤م) فى انجلترا وغرب أوربا . وكذلك حركة يوحنا هس (١٣٦٩ — ١٤١٦م) فى بوهيميا وشرق أوربا . واستمر نشاط الهسيين حتى قيام ثورة مارتين لوثر البروتستانتية فى القرن السادس عشر الميلادى ، تلك الثورة التى افقدت البابوية سلطتها وهيبتها والكثير من اتباعها فى اجزاء عديدة من أوروبا بعد اعتناق الكثير من الكاثوليك لمبادئها . وبخاصة فى انجلترا والمانيا (١) .

النظرية الثالثة :

ويرى فريق آخر من المؤرخين أن سنة١٤٥٣ م هى التى تحدد نهاية العصور الوسطى وبداية عصر النهضة ، لسببين هامين ، أولهما : أنه فى تلك السنة أنتهت حرب المائة عام بين انجلترا وفرنسا (١٣٣٨ - ١٤٥٣م) تلك الحرب التى امتلا بها التاريخ الوسيط ، واعتبرت من مظاهره ومميزاته العامة كالعدوان الصليبي على العالم العربى ، وغير ذلك من الانظمة والحركات الاجتماعية والدينية مثل الرهبنة والديرية والاقطاع والفروسية . اما الحدث الثانى الذى وقع فى تلك السنة فهو سقوط القسطنطينية فى قبضه الاتراك العثمانيين . وبسقوطها ينهار آخر صرح من مؤسسات الدولة البيزنطية التى تمثلت فيها نظم و تقاليد وفلسفة وافكار العصور

(١) Brinton and others. op. cit. Vol. 1, 391., 393 f., 450 ff.;

الوسطى . وبذلك ينتقل العـــالم الاوربى من تقاليد العصر الوسيط الى اوضاع جديدة مغايرة (١) .

النظرية الرابعة :

تدور هذه النظرية حول حركة الاستكشافات الجغرافية فى اخريات القرن الخامس عشر الميلادى . وأصحابها يرون أن سنة١٤٩٢ م تحدد نهـــاية التاريخ الوسيط وبداية التاريخ الحديث ، باعتبارها السنة التى اكتشف فيها كريستوفر كولومبس Christopher Columbus(١٤٥١-١٥٠٦م) امريكا . وفى نفس هذه السنة يقع حادث آخر هام فى تاريخ الغرب الأوربى وهو استيلاء اللاتين الغربيين على مملكة غرناطة من الخلفاء المسلمين . وحدث بعد ذلك بست سنوات أن تمكن فاسكودى جاما Vasco da Gama من تطويق رأس الرجاء الصالح والالتفـاف حول طرف افريقية الجنوبى فى طريقه الى الهند . وكان لهذا آثـــاره الخطيرة فى التاريخ والاقتصاد العالمى . إذ أن اكتشاف البرتغـــاليين لهذا الطريق التجارى الجديد من ناحية افريقية أدى إلى إنزعاج المماليك فى مصر وضياع الثروة الهائلة التى كانوا يجنونها من وراء التجارة . وقد قاموا ببعض المحاولات للدفاع عن كيانهم ولكنهم فشلوا فى ذلك ، إذ كان الزمام قد افلت من ايديهم بعد أن انتقلت الثروة إلى المحيط الغربى وأممه . وكان لهذا أثره الضخم ، فبينما ضعفت دولة المماليك بمصر وجدت الفرصة أمام الأغنياء والتجار من أهل إيطاليا لتشجيع العلوم والآداب

---

(١) LaMonte, J.L., The World of the Middle Ages, New York, 1949, 619. Runciman, S., Byzantine Civilization, London, 1948, 60; Brinton and others, op. cit., Vol. 1, 383-388; Ostrogorsky, G., History of the Byzantine State, trans. by J. Hussey, Oxford, 1956, 507-508; Baynes, N.H. and Moss, H. St. L.B. (eds), Byzantium, Oxford, 1953, 49.

والفنون ، الامر الذى عجل بزوال العصر الوسيط وبداية عصر النهضة فى أوروبا (١) .

لقد كانت هذه الأحداث الخطيرة التى تعرض لها العالم الأوروبى الوسيط فى اخريات قرونه والتى اهتز لها كيانه بعنف — كانت مظهرا من مظاهر عالم متغير قلق غير ثابت ، أحتكت فيه الآراء والمبادىء الجديدة المتحررة بالتقاليد والافكار القديمة البالية . ثم اشتبك الجديد والقديم فى صراع عنيف امتد فترة قصيرة من الزمن ، إلى أن إندمجا وتآلفا فى إتجاهات جديدة . وكان هذا إيذانا بانتهاء عصر بكل فلسفته وأوضاعه وانبلاج عصر جديد بمفاهيم وأراء جديدة مغايرة .

وكيفما كان الأمر ، فان هذه التغييرات الهائلة التى أشرنا إليها ، والتى أدت إلى الانتقال من العصر الوسيط إلى العصر الحديث ، إنما كانت مثل التغييرات بين العصرين القديم والوسيط . بمعنى انها كانت عبارة عن عملية تطور بطىء مستمر لا يشمل حادثة معينة أو واقعة بالذات فحسب ، بل يشمل جميع الحوادث والوقائع التى أشرنا اليها ، والتى تدور بصفة خاصة حول القرون : الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر الميلادية ، والتى يبدأ بها عصر جديد له نظمه وحضارته التى تختلف عما كان سائدا من قبل .

ولعلنا نستنتج مما تقدم ، أنه مهما كان اختلاف المؤرخين حول النقطة التى تبدأ منها العصور الوسطى الأوربية ، وتلك التى تنتهى عندها ، إلا أنهما من الناحية التقليدية الشكلية تبدأ فى القرن الخامس وتنتهى فى القرن الخامس عشر الميلادى ، وإن كانت الأسباب والعوامل التى مهدت لها والتى أدت إلى زوالها تسبق فى الواقع قيامها وتستمر بعد انتهائها بقرون عديدة .

---

(١) Britton and others, op. cit., vol. 1, 542, 550-552 .

البحث الثالث

مجتمع الاسكندرية فى العصر المسيحى
(حوالى ٤٨ - ٦٤٢م)

نشر هذا البحث فى كتاب « مجتمع الاسكندرية عبر العصور » الذى أصدرته كلية الآداب بجامعة الاسكندرية - الاسكندرية (مصر) ١٩٧٥ - ص ١٠٣ - ١٣٩.

مقدمة :

ظهرت المسيحية فى أخريات التاريخ القديم . وأخذ المبشرون ينشرون رسالتها فى أنطار الأرض المعروفة وقتذاك ، ومن بينها روما عاصمة الامبراطورية الرومانية ، ومصر إحدى ولايات تلك الامبراطورية . وقد بدأ التبشير بالديانة المسيحية كحركة سرية لا يمكن أن تكون علانية مع طبيعة النظام القائم وقتها . وكان على رأس المبشرين بها فى روما خلال القرن الأول للميلاد القديس بطرس أحد تلامذة المسيح ومعاونه الفيلسوف الرومانى القديس بولس ، بينما قام بالتبشير بها فى مصر القديس مرقس (١) .

ولقد وجدت المسيحية فى مصر حقلا خصيباً ترعرع فيه غرسها بسرعة كبيرة . ويرجع ذلك إلى أن التفكير الدينى المصرى القديم وصل فى تطوراته على مر العصور إلى كثير من النتائج التى اعتبرها المسيحيون أساساً لديانتهم الجديدة ، حتى أنهم لم يجدوا فى الانتقال من الدين القديم إلى الدين الجديد صعوبة كبيرة على عقولهم وأفهامهم . ولتفسير هذه الحقيقة نستعرض بعض المبادىء العامة التى كانت تحمل وجه الشبه بين القديم والجديد فى الديانتين ، والتى مهدت الطريق لسرعة انتشار المسيحية فى مصر .

(أولا) يلاحظ أن فكرة الوحدانية التى هى أساس الديانة الجديدة لم تكن غريبة على قدماء المصريين فى أخريات عهدهم بالرغم من تعدد آلهتهم . ولا يفوتنا

Cf. Lesourd, P., Histoire de l'Eglise (Paris, 1939), 11 (1) ff .; Moreau, E. de, Histoire de l'Eglise (Tournai - Paris, 1931) , 4 ff ; Neill, S.,A History of Christian Missions (Aylesbury, 1966) , 26 ff.

فى هذا الصدد ما كان من أمر ديانة اخناتون (١٣٨٣ - ١٣٦٥ ق . م) من الأسرة الثامنة عشرة ومحاولة تعميم وحدانية قرص الشمس . ولو أن هذه الثورة الدينية ترجع إلى عصر سحيق ، إلا أنها تمثل مرحلة هامة فى تطور التفكير الدينى المصرى ثم أن لاهوت المسيح وناسوته لها شبيه فى شخص أوزيريس الذى كان إلهاً وإنساناً فى ذات الوقت . وفى الحقيقة كان كل الفراعنة أشخاصاً مؤلهين . وكل هذه الأفكار التى تشبع بها المصريون القدماء كانت تميل إلى الوحدانية فى العبادة ، وهذه الوحدانية هى أساس الديانة الجديدة .

(ثانياً) فكرة التثليث ، وهى إحدى مفاتيح العقيدة المسيحية ، كانت مع الفارق فى جوهرها بطبيعة الحال ، شائعة كل الشيوع بين قدماء المصريين ، حتى أصبح لكل مدينة هامة من مدن مصر القديمة ثالوثها الخاص بها . ولا شك أن أشهر هؤلاء ثالوث ايزيس وأوزيريس وحورس ، ولذلك عندما نادت المسيحية بالتثليث لم يجد المصريون فيه شيئاً غريباً عليهم ، بل كان أمراً ألفوه وعرفوه من قبل .

(ثالثاً) أما الفكرة الثالثة فهى فكرة ولادة ابن الله من عذراء بكر بنفخة من روحه القدس . وتظهر هذه الفكرة أيضاً عند قدماء المصريين فى أمثلة وأشكال متعددة ، منها مولد حور محب آخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة ، حيث اعتبره الكهنة ابنا لآمون من عذراء بكر حتى يساعدوه على تثبيت نفسه على العرش . ومن ذلك أيضا أن الإله أبيس كان يتجسد من عجلة بكر بعد حلول روح الإله بتاح فيها .

(رابعاً) كان مبدأ البعث والخلود فى العالم الآخر ، وكذلك مبدأ الثواب والعقاب اللذان بشرت بهما المسيحية ، من أقوى تعاليم الديانة المصرية القديمة ،

واليها يرجع التطور العظيم الذى حدث فى مدنيتهم . وما الأهرامات والمقابر والمعابد الجنائزية والتحنيط وصناعة التماثيل وغير ذلك من الأعمال الجبارة الا بعض المظاهر التى حاول قدماء المصريين بواسطتها المحافظة على جثثهم حتى تعود اليها أرواحهم فى العالم السفلى ، أملا فى تخليد أنفسهم بعد الموت فى النعيم المقيم .

(خامساً) الصليب الذى أصبح فى شكله المعروف رمز الحياة الأبدية الروحية فى الديانة المسيحية، قريب الشبه بعلامة الحياة « عنخ » التى كان آلهة قدماء المصريين يحملونها على الدوام ، وما هى الا صليب معقود الرأس (١).

يتضح من كل ذلك أنه عندما بدأ القديس مرقس ، وكان يهودى الأصل من المقيمين فى ليبيا ثم اعتنق المسيحية ، رسالته بالتبشير بالدين الجديد فى مدينة الاسكندرية حوالى عام ٤٨ م ، لم يجد المصريون فى مبادئه أية غرابة على عقولهم بل لعلهم وجدوا فيها سمواً على كثير من الأفكار التى ألفوها واعتادوا عليها منذ القدم . ومن الأدلة على انتشار هــــذه الديانة بسرعة فى مصر ما وجده بعض المنقبين فى صعيد مصر من برديات وفيرة تحتوى على ترجمة قبطية لكثير من

Atiya, A . S ., A History of Eastern Christianity (1) (London, 1968), 20 - 21 & notes.

أنظر أيضاً عزيز سوريال عطية : نشأة الرهبنة المسيحية فى مصر وقوانين القديس باخوميوس مستخرج من رسالة مارمينا عن الرهبنة القبطية (الاسكندرية ١٩٤٨) ص ٦ ؛ منير شكرى : المسيحية وماتدين به القبط ـ مقال فى رسالة مارمينا الخامسة (الاسكندرية ١٩٥٤) ص ٦٠ - ٦١ ؛ زكى شنودة : تاريخ الاقباط ج١ (القاهرة ١٩٦٢) ص ٣٥ - ٣٧ ؛ سليمان نسيم : تاريخ التربية (القاهرة ١٩٦٣) ص ٣٧ وما يليها .

أجزاء الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد يرجع تاريخها على مايظن الى القرن الثاني الميلادى .

هذا ، ومن المحقق أن كنيسة الاسكندرية التى بثت لها الدعوة فى الخفاء فى أول الأمر ، لم يمض عليها زمن طويل إلا وكان قد انتظم عقدها تحت زعامة بطريركها (١) ورؤساء أساقفتها وكهنتها بجميع طبقاتهم ومختلف طقوسهم . وبذلك تغلغلت الديانة الجديدة تغلغلا سريعا فى جميع الأوساط المصرية فى وقت كانت فيه الامبراطورية الرومانية القديمة شبحا يحتضر ، بعد الأزمات العنيفة التى هزت كيانها وقوضت بنيانها من سياسية واجتماعية واقتصادية وفكرية وثقافية وعسكرية وغيرها . وقد واجهت كنيسة الاسكندرية بعزيمة ثابتة اضطهاد الأباطرة الرومان لها الذين اعتبروا الدين الجديد بمثابة دولة داخل الدولة ومنافساً خطيراً لسلطانهم وتهديداً مباشراً لوحدة الامبراطورية التى يرمز لها بالسلم الرومانى (٢) .

وبسقوط الدولة الرومانية القديمة وبداية الامبراطورية الرومانية الشرقية تنتقل تبعية مصر من روما نهائيا الى القسطنطينية ، تلك العاصمة الواقعة عند التقاء البسفور ببحر مرمرة . ولا يعنى هذا تغييراً كبيراً فى موقف الأباطرة الرومان من المسيحيين فى مصر أو فى غيرها من أركان دولتهم الواسعة . وانما جاء هذا التغيير مع بدايات القرن الرابع باعتلاء قسطنطين الكبير عرش الامبراطورية .

---

(١) أخذنا بتهجئة القلقشندى لهذا اللقب . فقد ورد فى صبح الأعشى (جـ ٥ القاهرة ١٩١٥ - ص ٤٧٢ و جـ ٨ القاهرة ١٩١٥ - ص ٤٢) تحت اسم بطرك وبطريرك وجمعها بطاركة .

(٢) Cf. Runciman, S., Byzantine Civilisation (London, 1948), 14 - 20.

ويعتبر حكمة من أهم الصفحات فى تاريخ مصر والدولة الرومانية ، لأنه كان أول الاباطرة الرومان الذين اعترفوا رسمياً بالديانة المسيحية، فأصدر مرسومه المشهور باسم مرسوم ميلان سنة ٣١٣ م الذى أجاز اعتناق هذه الديانة (١) .

وطوال العصر المسيحى فى مصر الذى بدأ حوالى منتصف القرن الأول واستمر حتى أواسط القرن السابع للميلاد ، كانت الاسكندرية - فى الحقيقة - هى مركز الاشعاع الذهنى والفكرى ومحط الأنظار ومعقد الآمال . وكان مجتمعها مليئاً بالصخب والضجيج نابضاً بالحركة والحياة . فقد أخرجت الكثير من القديسين من آباء الكنيسة الأول وعلى رأسهم القديس مرقس. وشاهدت أفظع أنواع الاضطهاد وبخاصة أيام دقلديانوس . واشتهرت مدرستها اللاهوتية التى تجلت فيهـا بشكل واضح حيوية كنيسة الاسكندرية من الناحية الفكرية ، والتى تكون فيهـا للمرة الأولى أدب مسيحى وافر المحصول، والتى قدمت للتراث البشرى طبقة من الفلاسفة اللاهوتيين الذين ملأوا العالم المعروف وقتذاك بعلومهم وأفكارهم وبجدلهم ونقاشهم فى المسائل الفلسفية واللاهوتية . كذلك واجهت المدينة أولى البدع التى نادى بها أحد كهنتها وهى البدعة الأريوسيه ، وتصدى له راهب قديس قـدر له أن يظل اسمه وسيرته وأعماله ومؤلفاته موضع دراسات حتى يومنا هذا ، وهو أثناسيوس الاسكندرى ، وذلك فى أول المجامع المسكونية التى عقدت لبحث مسألة الانشقاقات

---

(١) Stanley, A.P., Lectures on the History of the Eastern Church (Lond n, 1924) . 200 ff.; Moreau, 21, 38; Lesourd, 23; Runciman, 25 ff ; Baynes, N., The Byzantine Empire (London, 1939), 17.

راجع أيضاً ، سعيد عبد الفتاح عاشور : أوربا العصور الوسطى جـ ١ (القاهرة ١٩٥٨) ص ١٦ ومايليها .

الدينية التى أخذت تتزايد مع الزمن لتؤثر على علاقات مصر بالدولة البيزنطية نفسها . كذلك شهدت ضواحى الاسكندرية الفترة المبكرة من ظهور الرهبنة فى مصر ، وكان ذلك على وجه الخصوص فى وادى النطرون وصحراء مريوط .

كل هذه وتلك صور ومشاهد لابد للباحث المدقق فى مجتمع الاسكندرية فى العصر المسيحى (١) أن يتوقف أمامها . وفى ضوء هذه الحقيقية يمكن القول أن

---

(١) تخصص فى الكتابة فى موضوع تاريخ الاسكندرية القبطيه الارثوذكسية العديد من الباحثين والمؤرخين المحدثين الذين يمكن تقسيمهم إلى ثلاث مدارس فكرية متباينة . الأولى هى المدرسة البروتستانتية ، ويبدو فى كتابات أعضائها الانعطاف الشديد مع الفهم المحدود ، وعلى رأس هذه المدرسة ج . م نيــــل J.M. Neale و أ . ل بتشر E.L.Butcher؛ والثانية هى المدرسة الكاثوليكية ويبدو بصفة عامة الاتجاه غير المنصف فى كتابات أعضائهـا . فهم يكتبون عن تاريخ هذه الكنيسة من وجهة نظر كاثوليكية بحتة يبدو أثرها واضحاً عند تعرضهم لكثير من المشاكل والخلافات الدينية التى قامت فى العصور الوسطى بين مختلف المذاهب المسيحية ، ومن بينهم ب . شينو P. Cheneau و ب . لسيزورد P. Lesourd؛ أما المدرسة الثالثة فهى المدرسة المصرية ، وتتميز باعتدالها فى تناولها للموضوع . ولكن يؤخذ على كتابات كثير من الكتاب القبط تغلب الناحية العاطفيه عليها بشكل يبعد بها فى كثير من الأحيان عن الناحية العلمية الخالصة والمنهج العلمى السليم . وينتمى إلى هذه المدرسة كتاب مثل راغب عبد النور وزكى شنودة وصابر جبرة ومنير شكرى وايريس حبيب المصرى . وعلى هـذا يجب تناول مثل هذه المؤلفات بشيء من التروى والحذر مع القول بوجود عـدد من الدارسين والمؤرخين الكاثوليك الغربيين والقبط المصريين ممن تناولوا الموضوع بحيدة وجدية وموضوعية من أمثال أ . ر . هاردى E.R. Hardy وو . هـ . ورل W.H. Worrell من الغربيين ، وزاهر رياض وسليمان نسيم وعزيز سوريال عطية وكامل صالح نخلة ومراد كامل من القبط المصريين .

مجتمع الاسكندرية إبان تلك الحقبة من الزمن شاهد عدة ظواهر هامة تعتبر من سماته ومميزاته العامة التى طبعته بطابعها وتركت أثرها الواضح عليه ، ومن أهمها أن لم تكن أهمها على الاطلاق الظواهر السبع التالية :

الظاهرة الأولى : مرقس الإنجيلى وقديسو الاسكندرية .

عرف مجتمع الاسكندرية عدداً غير قليل من الآباء القديسين الذين ذاع صيتهم فى الشرق والغرب على السواء . فمنهم من برز فى مجال التبشير بالدين الجديد ، ومنهم من ارتبط اسمه بمدرسة الاسكندرية اللاهوتية ، ومنهم من عاصر عصر الشهداء واكتوى بنار الاضطهادات التى عانى منها أقباط مصر على أيدى الرومان ومن بعدهم البيزنطيين . ومنهم من انغمس فى المسائل اللاهوتية ومشاكل الانشقاقات الدينية ، ومنهم من اشتهر فى عالم الرهبنة .

ويأتى على رأس هؤلاء القديس مرقس الذى بشر بالمسيحية فى الإسكندرية (١) ، وهو بالنسبة لأقباط مصر يعتبر مؤسس كنيستهم

---

(١) حول سيرة القديس مرقس ، أنظر كامل صالح نخلة : تاريخ القديس مار مرقس البشير (القاهرة ١٩٥٢) ، بتشر (أ . ل .) : تاريخ الأمة القبطية — تعريب اسكندر تادوس — ج ١ (القاهرة ١٩٠٠) ص ٢٢ ومايليها . وراجع أيضاً الكتب الاجنبية التالى بيانها .

Glanville, S.R.K. (ed.), The Legacy of Egypt (Oxford, 1957), 310; Cheneau, P., Les Saints d Egypte, I (Jérusalem, 1923), 494—509.

ويلاحظ أن بول شينو الأورليانى يتحدث عن سيرة القديس مرقس من وجهة نظر كاثوليكية بحتة . ونجد مثلا لذلك عندما وصف مرقس بأنه سكرتير القديس بطرس ومترجمه الخاص ، وذلك لأسباب غير خافية (أنظر ج ١ ص ٤٩٧ من كتاب شينو) .

الوطنية ، فضلا عن أنه أحد الإنجيليين الأربعة ، وواضع أقدم إنجيل رجع اليه كل من القديسين متى ولوقا ، ويحتمل أن يكون قد إستخدمه أيضاً القديس يوحنا ثم أنه يعتبر أول بطاركة الاسكندرية فى سلسلة ممتدة لم تنقطع من الآباء البطاركة الذين جاءوا على الكرسى البطريركى فى الاسكندرية منذ وقته حتى يومنا هذا . وهو أيضاً أول قديسى الاسكندريه انهمر بعده سيل من القديسين والقديسات ، ثم هو واحد من أبرز شهداء المسيحية فى فجر تاريخها (١) .

ولد مرقس من أبوين يهوديين كانا يقيمان فى مدينة القيروان بأفريقية . وبعد أن تعرضا لهجوم قبائل البربر انتقلا إلى بيت المقدس، وهناك يحتمل أن يكونا قد أنجبا إبنهما مرقس ، وكان ذلك بعد ميلاد المسيح بوقت قصير . وقد تلقى الابن تعليما حسناً ، وكان على معرفة طيبة باليونانية واللاتينية، فضلا عن اللغة العبرانية. كان من أسرة شديدة التدين ، وقدتلقن مبادىء المسيحية على يد أحد أقربائه وهو القديس برنابا .St. Barnabas والمعروف أنه كان على صلة بكل القديسين بطرس وبولس فى روما . وفوق هذا وذلك أصبح من تلامذة المسيح المقربين اليه . وقد زاره المسيح فى منزله أكثر من مرة ، واختاره ليكون أحد السبعين تلميذاً . وكان اجتماع تلامذة المسيح بعد صعوده فى بيت مرقس فى أورشليم حيث حل عليهم الروح القدس. وأصبحت الغرفة التى تم فيها هذا الحدث أول كنيسة صغيرة فى التاريخ ولهذا السبب اكتسب مرقس مكانة خاصة مميزة باعتباره واحداً من أقرب المقربين

---

(١) Jouguet, P., " La Domination Romaine en Égypte aux deux premiers siècles après Jésus-Christ, " Conférence donnée à la Société royale d'Archéologie d'Alexandrie, le 29 Avril 1946 (Alexandrie, 1947 , 36; Atiya, 25.

أنظر أيضاً ، ايريس حبيب المصرى : قصة الكنيسة القبطية ـ ج ١ (القاهرة ـ بدون تاريخ) ص ١٩ ؛ بتشر : تاريخ الأمة القبطية ج ١ ص ٢٣ .

إلى المسيح . إذ عاصره ، وكان ملازماً له لا يكاد يفارقه ، كما كان شاهد عيان لأعماله وسيرته مما هيأ له فرصة كتابة انجيله الذى اعتبر أساس الأناجيل الأخرى.

هذا ، ويحتمل أن يكون القديس مرقس قد وضع انجيله باللاتينية أو اليونانية أو باللغتين معا . ويرى القديس يوحنا فم الذهب (حوالى ٣٤٧ - ٤٠٧ م) أن مرقس وضع إنجيله أصلا فى مصر باللغة اليونانية . وثمة رواية تقول أنه كتبه بعد استشهاد كل من بطرس وبولس . ولكن هذه الرواية لا تقف على أرض صلبة إذ من المعروف أن الأنجيل ظهر بعد صلب المسيح باثنى عشرة سنة ، أى سنة ٤٥ م ، بينما استشهد القديسان فى عهد نيرون (٥٤ - ٦٨ م) ، ويحتمل أن يكون ذلك فى سنة ٦٤ م . وكيفما كان الأمر ، فما لا شك فيه أن مرقس أحضر إنجيله معه إلى الاسكندرية عندما قدم اليها . وعلى الرغم من أن النسخة اليونانية التى معه كانت تفى بحاجته فى تلك المدينة ، فثمة رأى يقول انه أعدت نسخة أخرى من الانجيل باللغة المصرية ليستفيد منها أهالى الاسكندرية الذين اعتنقوا المسيحية وكانوا يجهلون اللغة اليونانية (١) .

كان مرقس قديساً لا يعرف الكلل أو الملل طريقاً إلى نفسه أو قلبه . وكان كثير السفر والترحال ، لا يكاد يستقر به المقام فى مكان حتى ينتقل إلى غيره واعظا ومبشراً . ونعرف أنه ذهب مع بولس وبرنابا إلى أنطاكية ، ثم عاد إلى بيت المقدس ، وبعد ذلك صاحب برنابا إلى قبرص . وكان أثناء إقامته فى روما وإيطاليا ملازماً لبطرس . ومع ذلك كان عمل مرقس الحقيقى فى افريقية. فعبر البحر المتوسط إلى القيروان التى كانت مستعمرة اغريقية وقتذاك . وبعد أن بذر فيها بذور الدين الجديد توجه إلى الاسكندرية عن طريق الواحات

---

(١) أنظر أيضاً Atiya, 25–26. ، كامل صالح نخله : تاريخ القديس مار مرقس ص ٨٦ ومايليها .

وبابليون . وكانت الاسكندرية وقتذاك مركزاً مرموقاً للعلم والفلسفة والأدب والفن . كانت نسخة طبق الأصل من روما من حيث اهميتها ولكونها مثلها معقلا للوثنية . وكان يعلم تماماً أنه سوف يدخل فى صراع مرير مع الوثنية فى تلك المدينة مدركاً صعوبه مهمته وخطورتها .

وقد ثار الخلاف حول تاريخ دخول مرقس مدينة الاسكندرية .فمن قائل انه دخلها سنة ٤٨ م ، أى بعد صعود المسيح بخمس عشرة سنة . وهناك روايات أخرى حددت تاريخ دخوله المدينة فى سنوات ٥٥ ، ٥٨ ، ٦١ م (١) . وأيا كان التاريخ الحقيقى لظهور مرقس فى الاسكندرية ، فقد أجمعت الآراء أنه استشهد سنة ٦٨ م أيام اضطهادات نيرون .وفيما بين تاريخ دخوله المدينة وسنة استشهاده نجح فى مهمته التى تنحصر فى إجتذاب عدد كبير من الوثنيين إلى المسيحية .وعندما أحس بنذر العاصفة تقترب بعد أن وصلت أخباره إلى روما ، بادر بتعيين أسقف له يدعى حنانيا الاسكاف ، ورسم اثنى عشر قسيساً وسبعة شمامسة لرعاية الجمهور المسيحى إذا تعرض للخطر . وكانت هذه أول صـــورة للتنظيم الكهنوتى فى الاسكندرية .

ويبدو أن مرقس قام بعد ذلك برحلتين . إذ أبحر أولا إلى روما حيث التقى بكل من بطرس وبولس ، وترك العاصمة بعد استشهادهما سنة ٦٤ م . ومكث بعض الوقت فى أكويليا بالقرب من البندقية قبل عودته إلى الاسكندرية . وبعد أن وجد رعيته ثابتين فى العقيدة قرر زيارة مدينة القيروان حيث أمضى عامين يقال أنه كانت له فيها الكثير من المعجزات . وبعد أن رسم للمدينة أساقفة وكهنة

---

(١) أنظر عن ذلك كامل صالح نخله : تاريخ القديس مار مرقس ص ٥٧ وما يليها ؛ ايريس حبيب المصرى : قصة الكنيسة القبطية ج ١ ص ١٩ ، ح ١٢ .

وبعد أن اجتذب الكثير من أهلها إلى الدين الجديد . قفل عائداً إلى الاسكندرية حيث كانت فرحته بالغة عندما وجد أن رجاله قد تكاثروا إلى درجة سمحت لهم ببناء كنيسة كبيرة فى منطقة نائية عند مشارف البحر يقال لها بوكاليا . وانتشرت الشائعات وقتها أن المسيحيين فى الاسكندرية أصبحوا يهددون بتحطيم تماثيل الآلهة الوثنية . الأمر الذى أدى إلى إشتعال النيران فى قلوب الوثنيين . وكانت النهاية تقترب بسرعة عندما وقع مرقس فى قبضة أعدائه فى يوم عيد القيامة من سنة ٦٨ م ، وهو يوافق نفس اليوم الذى يعيد فيه الوثنيون لآلهم سيرابيس . وتجمعت جموعهم الثائرة فى معبد سيرابيس وقد أثارهم الحكام ضد مرقس . وبعد الاحتفال بالعيد توجهوا مندفعين نحو المسيحيين الذين كانوا يحتفلون هم أيضاً بعيد القيامة فى كنيستهم فى بوكاليا . وألقوا القبض على مرقس ، وبعد أن ربطوا حبلا حول عنقه أخذوا يجرونه فى شوارع المدينة ، ثم ألقوا به فى السجن ليقضى فيه بقية الليل وهو بين الحياة والموت . وفى صباح اليوم التالى تكرر مشهد التعذيب إلى أن أسلم الروح . وقام المسيحيون بدفنه سراً فى قبره نحتوه من الصخر أسفل مذبح الكنيسة المقامة فى بوكاليا والتى سموها باسمه ، فعرفت باسم الكنيسة المرقسية نسبة اليه (١) .

هكذا كان مرقس هو أول قديسى الاسكندرية وأول شهدائها . وبعده لم يتوقف سيل الشهداء من القديسين والقديسات خلال القرون الثلاثة الأولى من

---

(١) Atiya, 25 — 28. أنظر أيضاً ، ايريس حبيب المصرى : قصة الكنيسة القبطية ج ١ ص ١٩ — ٢٧ .

المسيحية ، والذين بلغوا المئات والمئات ، وبخاصة أيام إضطهاد دقلديانوس فى أخريات القرن الثالث (١) . وليس من السهل حصر قديسى المدينة حصراً دقيقاً شاملا خلال القرون الأولى من المسيحية . ولكن لا شك أن عددهم كان كبيراً جداً . وأن نظرة إلى مؤلف الكاتب الفرنسى بو شينو الأورليسانى عن قديسى مصر ، تكفى لاعطائنا فكرة عن هذا العدد الهائل من قديسى الاسكندرية فى العصر المسيحى ، وهم الذين أمكن التعرف عليهم وعلى أسمائهم وسيرهم والوقت الذى عاشوا فيه . لقد كان هذا العصر بالنسبة للإسكندرية ، فى الواقع ، هو عصر القديسين والشهداء .

الظاهرة الثانية : الاضطهادات وعصر الشهداء .

لم يكن مصدر إضطهاد أباطرة الرومان المسيحيين بمصر هو حرصهم على العبادات الوثنية التى كانت سائدة قبل المسيحية . وإنما هم أوجسوا خيفة من طبيعة الدين الجديد الذى لا يرضى مع الله شريكاً حتى ولو كان الامبراطور . وكان القائمون على أمر الدولة الرومانية على إستعداد التساهل والتسامح فى حرية العبادة من جميع نواحيها إلا ناحية واحدة تمسكوا بها هى عبادة الامبراطور التى

---

(١) نجد حصراً لا بأس به لأولئك القديسين والقديسات فى الكتابين التاليين :
E. A. W. Budge (tr.), The Wit and Wisd m of the Christian Fathers of Egypt, Oxford, 1934 ; P, Cheneau, Les Saints d' Egypte, 2 vols., Jérusalem, 1923.
هذا ، وتتضمن مكتبة دير سيناء عشرات المخطوطات العربية القديمة التى تناولت سير الرسل والقديسين والآباء الأول فى المسيحية ، ومن بينهم قديسى الاسكندرية راجع فى ذلك مقالى « بستان الرهبان : عرض وتحليل للنسخه الخطية العربية غير المنشورة المحفوظة بمكتبة دير سيناء » . مقال بمجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية المجلد ٢٣ (الاسكندرية ١٩٧١) ص ٥٩ - ٩٢ .

كانت تبرأ ألوحدة الامبراطورية من جهة ولسيطرة الإمبراطور المطلقة من جهة أخرى . وكانت المسيحية كما بلغ الأباطرة تدعو إلى وحدانية الله وإلى الاقلاع عن فكرة عبادة الامبراطور . وهذا فى نظرهم خيانة عظمى يجب أن يعاقب عليها كل من يقول بها (١) .

هكذا كان لعبادة الامبراطور المكانة الأولى فى سياسة الأباطرة الرومان ، كحلقة اتصال وتوحيد بين مختلف أجزاء الامبراطورية المتباعدة وكعنوان ولاء الشعوب المتباينة ، ومن بينها شعب مصر ، للجالس على العرش فى روما عندما كانت روما هى عاصمة الدولة . ونشأ عن ذلك فى الديار المصرية إصطدام عنيف بين التفكير المصرى المسيحى الناشىء والتفكير الرومانى السياسى العتيق ، بعد أن وجد الأباطرة فى المسيحية خطراً يتهددهم ويهدد كيانهم . وكان إضطرابهم شديداً لشيوع تلك الديانة حتى أنهم عملوا جاهدين على طمس معـــالمها بكل الوسائل والسبل الممكنة ، وجدوا بهمة لاستئصال شأفتها والقضاء على اتباعها قبل أن تتأصل جذورها فى الأرض . وعلى ذلك تنشأ سلسلة الاضطهادات المعروفة التى أنزلها الأباطرة بأهالى الاسكندرية الذين اعتنقوا المسيحية ، وذلك خلال القرون الثلاثة الأولى للميلاد . وهذه الاضطهادات حسب تسلسلها الزمنى هى اضطهادات نيرون فى عامى ٦٤ و ٦٨ م ، وتراجان Trajan (٩٨ - ١١٧ م) عام ١٠٦ م ؛ وسبتميوس سفيروس Septimius Severus (١٩٣ - ٢١١ م) عام ٢٠٢م ، وديسيوس Decius (٢٤٩ - ٢٥١ م) حوالى عام ٢٥٠ م ، وفاليريان Valarian

---

(١) Chadwick, H., The Early Church (London, 1969), 24 ff.; Lesourd, 16; Moreau, 14 f.

راجع أيضاً ، سليمان نسيم : تاريخ التربية القبطية ص ٨٤ - ٨٥ .

(٢٥٣ - ٢٦٠ م) عام ٢٥٧م . وقد بلغت هذه الاضطهادات أشدها سنة ٣٠٣م في عهد الامبراطور دقلديانوس Diocletian (٢٨ - ٣٠٥ م) (١) .

ولكن أهم هذه الاضطهادات بالنسبة لمصر بعامة والاسكندرية بصفة خاصة هي اضطهادات سفيروس وديسيوس وفاليريان ودقلديانوس . ولذلك تستحق وقفة قصيرة أمامها . فقد أصدر سفيروس عام ٢٠٢ م مرســوماً يحرم اعتناق المسيحية ، وأمر بتطبيقه بصرامة متناهية.وكان ذلك أيام بطريرك الاسكندرية ديمتريوس الأول (١٨٧ - ٢٣٠ م) ومعاصــره أوريجين الاسكندرى ، واضطرت مدرسة الاسكندرية اللاهــوتية إلى إغلاق أبوابها فتره من الزمن . كذلك حرم المسيحيون من الامتياز الذى كان يهود المدينة يتمتعون به وقتها والخاص باعفائهم من إحراق البخور أمام تمثال الامبراطور . وكان الامر الامبراطورى صريحاً : وقيع أقسى أنواع العقاب على المتنمين الذين كانوا يجلبون من كل أنحاء البلاد إلى الاسكندرية حيث كان ينتظرهم مصير تعس فالبعض فصلت رءوسهم عن أجسادهم ، بينما أرسل البعض إلى الأسود والحيوانات المفترسة ، وأحرق البعض الآخر أحياء دون تفرقة فى السن أو الجنس . وفى هذه المذبحةفقد أوريجين أباه ليونيديس Leonides ، بينما نجا هو منها . ولكن جهود السلطة الامبراطورية فى القضاء على المسيحية ذهبت أدراج الرياح . ويكفى للدلالة على ذلك أنه كان يوجد بالاسكندرية ثلاثة أساقفة أثناء الاضطهاد ، ارتفع عددهم إلى عشرين عند نهاية حكم سفيروس .

---

(١) Chadwick, 117 f ; Moreau, 21 ; Jouguet, 37 f.

أنظر أيضاً ، مينا اسكندر : الشهيد المصرى مار مينا (الاسكندرية ١٩٦٣) ص ٥ وما يليها ؛ زكى شنوده : تاريخ الأقباط جـ ١ ص ١٠١ وما يليها .

ويمكن القول أن إضطهاد سفيروس كان أول إضطهاد رسمى تقوم به الدولة ضد المسيحيين فى مصر . أما الاضطهادات السابقة له فقد كانت ، فى الحقيقة ، اضطهادات شعبية قامت بها جماهير الشعب الوثنى واليهودى فى المدينةضد المسيحيين وكانت الدولة وقتها مجرد أداة لتنفيذ الاضطهاد فحسب . وابتداء من عهد سفيروس أصبح اضطهاد المسيحيين هو السياسة الرسمية للأباطرة الرومان . وكان الاضطهاد الثانى الكبير ، الذى مس الاسكندرية بصفة خاصة ، فى عهد ديسيوس. فقد أزعج الامبراطور الأخطار الكامنة وراء سرعة انتشار المسيحية . فأصدر عام ٢٥٠ م مرسوماً بالزام كل مواطن بالحصول على شهادة من الحاكم المحلى التابع له تفيد أنه قام بتقديم القرابين للآلهة الوثنية . وأنه سكب الزيت على الأرض اكراماً لها . وقد تعرض الذين رفضوا الامتثال للمرسوم للعذاب بصورة وحشية . وذهب ضحية هذا الاضطهاد آلاف الشهداء فى الاسكندرية ، وفى المدن والقرى المجاورة لها . واستمر الاضطهاد فى عهد خلفه فاليريان . ومما يذكر أن بعض المسيحيين ارتدوا عن دينهم جهاراً حفاظاً على حياتهم . ولم ينعم المسيحيون بفترة من الهدوء النسبي إلا فى عهد الامبراطور جالينوس Galienus (٢٥٣ - ٢٦٨ م) بسبب الأخطار الخارجية التى كانت تهدد الامبراطورية وقتها ، فضلا عن مشاكله الخاصة ، حتى أنه أصدر مرسوماً بالتسامح الدينى على الرغم من عدائه الشديد للمسيحية . ولكن سياسة الاضطهاد سرعان ما عادت فى شكل أشد من الأول وأنكى ، وكان ذلك فى عهد الامبراطور دقلديانوس الذى يعتبر بالنسبة لأقباط مصر خاتمة الاضطهادات (١) .

---

(١) Atiya, 28 — 30; Chenεau, I, 76 ff., 255 ff.

أنظر أيضاً ، بتشر : تاريخ الأمة القبطية جـ ١ ص ٩٦ وما يليها و ١٢٢ وما يليها .

لقد جعل هذا الامبراطور نفسه فى مرتبة أقرب إلى الآلهة منه إلى البشر ، وأحاط نفسه بهالة من العظمة . وأصبح على أولئك الذين يريدون مقابلته أن يسجدوا له وأن يقوموا بعبادته . وزاد إحتمالا إلى قدسيته ادعاؤه الانحدار من جوبيتر ملك الآلهة . وبناء على ذلك أصدر عام ٣٠٢ م طائفة من المراسيم تحتم على جميع رعاياه بما فيهم المسيحيين ضـــرورة تأدية فروض الديانة الوثنية فى المناسبات المقررة ، وتوقيع أشد العقوبات على كل مسيحى يمتنع عن ذلك . ولكن المسيحيين فى الاسكندرية لم يقبلوا فكرة عبـــادة كائن حى حتى ولو كان الامبراطور نفسه ، على أساس أن هذا يتنافى والتعاليم التى نادت بها تلك الديانة واعتبر دقلديانوس ذلك اهانة له وخيانة عظمى . وبدأ فى ٢٣ فبراير من عام ٣٠٣ م العهد الذى أطلق عليه المسيحيون أسم « عهد الاضطهاد الأعظم » حيث لقوا شتى أنواع العذاب ، وهدمت كنائسهم وحرقت كتبهم المقدسة ، ولكنه ووجه بمقاومة عنيفة من المسيحيين بعامة ومن مسيحي الاسكندرية بخاصة (١) .

لقد كان وقع الاضطهاد شديداً على القبط لدرجة أنهم بدأوا يؤرخون سنيهم للشهداء من ذلك العصر ، مبتدئين بعام ٢٨٤ م وهو تاريخ تولية دقلديانوس الحكم ، بمعنى أنهم استعملوا تاريخ حكمه بداية لتاريخ السنين القبطية ، فالسنة

---

(١) Budge, E.A.W. (ed. & tr.), Coptic Martyrdoms in the Dialect of Upper Egypt (London, 1915), 253 ff., Guettée, Histcire pe I'Eglise, II (Paris & Bruxelles, 1886), 264 274; Chadwick; 121 ; Atiya, 50 – 31.

أنظر أيضاً ، مراد كامل : من دقلديانوس إلى دخول العرب . أنظر تاريخ الحضارة المصرية ــ المجلد الثانى (القاهرة ـ بدون تاريخ) ص ١٩٨ ؛ ايريس حبيب المصرى : قصة الكنيسة القبطية جـ ١ ص ١٢٠ - ١٢٧ ؛ بتشر : تاريخ الامة القبطية جـ ١ ص ١٦٩ وما يليها .

الأولى القبطية تبدأ من سنة ٢٨٤ م لهذا السبب (١) . ومع ذلك يقال أن هذا الامبراطور الذى أخذ مسيحيى الاسكندرية بمنتهى العنف والقسوة فى بداية الأمر ، أحسن إليهم فى النهاية ، حتى أنه بعد عودته إلى الاسكندرية وزع عليهم غلالا كثيرة بقصد ترضيتهم ، فأقاموا له عموداً تذكارياً يحمل تمثاله عرف باسم عمود دقلديانوس ، وهو العمود الذى سماه العرب فيما بعد باسم عمود السوارى ، ولا يزال يعرف بهذا الاسم حتى اليوم (٢) .

أخفق دقلديانوس فى القضاء على المسيحية فى مصر وأخفق فى العـــودة بالامبراطورية إلى الماضى الوثنى ، بينما استمر المسيحيون ومن بينهم مسيحيو الاسكندرية منشقين على عبادة الامبراطور على الرغم من الاضطهادات التى عانوا منها الأمرين . ولم يجد دقلديانوس بداً من التنازل عن العرش عام ٣٠٥ م تاركاً لقسطنطين الكبير (٣٠٦ — ٣٣٧ م) مهمة ايجاد الحل المناسب الذى يربط الامبراطور بالاله المسيحى (٣) .

وكان قسطنطين حكيما ذكياً بعيد النظر ، وحتى يحافظ على وحدة العـــالم الرومانى وينقذ ما يمكن إنقاذه من الكيان المتداعى للامبراطورية ، وإدراكاً منه أن الوثنية تحارب فى معركة خاسرة أمام الديانة الجديدة التى تأصلت جذورها وازداد عدد أتباعها — أصدر فى عام ٣١٢ م ، وقبل أن يصبح الامبراطور

---

(١) Atiya, 32, أنظر أيضاً مينا اسكندر : الشهيد المصرى دار سيناء ص ١٧ ؛ مراد كامل : من دقلديانوس إلى دخول العرب ج ٢ ص ٢١٠ .

(٢) أنظر بتلر (الفرد أ ج) فتح العرب لمصر عربه محمد فريد أبو حديد (القاهرة ١٩٣٣) ص ٣٣٠ و ٣٢٥ وما يليها .

(٣) : Runciman, 23 — 24.

الأوحد في الدولة، مرسوم ميلان الشهير الذى أجاز رسمياً اعتناق الدين المسيحى، مبدياً قدراً كبيراً من التسامح الدينى حيال اتباع هذا الدين . وكان هذا انتصاراً كبيراً للمسيحية على الوثنية وعبادة الامبراطور ، بل كان دليلا على نهاية عصر بمثله ومفاهيمه وبداية عصر جديد بأوضاع جديدة مغايرة . وفى سنة ٣٢٣ م عندما أصبح قسطنطين الامبراطور الأوحد ، بعد أن تخلص من منافسيه فى الشرق والغرب ، إزداد ارتمازه فى أحضان الاله المسيحى ، وأصبحت المسيحية هى ديانة الدولة وكنيستها هى كنيسة الدولة . ويبدو الأثر المسيحى واضحـــاً فى عملته وقوانينه التى استنها لصالح المسيحية والمسيحيين (١) . وكان هذا بداية مرحلة جديدة فى العلاقات بين المسيحيين والوثنيين ، وهى مرحلة اضطهاد الاكثرية المسيحية للأقلية الوثنية مع بداية القرن الرابع الميلادى . وتتجلى هذه المرحلة بشكل واضح فى مدينة الاسكندرية .

ومما يدل على استقرار الديانة الجديدة وقتذاك ، والتطور الذى طرأ على العلاقات بين المسيحيين والوثنيين ، أنه عندما حاول جوليان المرتد (٣٦١-٣٦٣م) Julian, the Apostate سنة ٣٦١م القضاء على المسيحية والردة إلى الوثنية فشل فشلا ذريعاً فى تحقيق أمنيته (٢) . وإذا كان لمحاولة جوليان أثر فى الاسكندرية، فهو اشعال روح السخط والتذمر والثورة بين مسيحيي المدينة ضد بقايا العناصر الوثنية وضد اليهود المتعاونين معها الحاقدين على اتباع الدين الجديد . وبلغت

(١) Atiya, 32. راجع أيضاً ، عمر كمال توفيق : تاريخ الإمبراطورية البيزنطية (الاسكندرية ١٩٦٧) ص ٢٩ وما يليها .

(٢) Chadwick, 154 – 155 & ff. أنظر أيضاً ، موس (هـ .) : ميلاد العصور الوسطى ، ٣٩٥ — ٨١٤ ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد (القاهرة ١٩٦٧) ص ٣٣ .

ثورتهم ذروتها عندما هاجموا معبد سيرابيس بالاسكندرية سنة ٣٩١ م — وكان ذلك فى عهد الامبراطور ثيودوسيوس الكبير — ودمروه وأحرقوا المعبود القديم . وكانت هذه ضربة قوية وجهت إلى الوثنية فى مدينة الاسكندرية (١) .

واستمرت ثورة المسيحيين ، فدمروا بعض أجزاء المكتبة الصغرى التى كانت كليوباتره قد أسستها بأروقة المعبد بعد أن فتكوا بالقائمين على حراسته . ولم يقف الثوار عند هذا الحد ، بل تعدوه إلى مهاجمة اليهود فخربوا معابدهم أيضاً ، وكان اليهود قد استغلوا اضطهاد جوليان فأثاروا الوثنيين ضد مسيحيي الاسكندرية . وكانت هناك جيوش من الرهبان المسيحيين المتزمتين تعسكر فى المدينة على إستعداد للتصدى لبقايا الشعب الوثنى فيها . وحدث فى عام ٤١٥ م ، أيام الامبراطور البيزنطى ثيودوسيوس الثانى ، أن اندفع مسيحيو الاسكندرية نحو دار الفنون بالمدينة حيث وضعوا يدهم على زعيمة الدراسات الفلسفية الوثنية بها وهى هيباشيا Hypatia بينما كانت عائدة إلى منزلها بعد محاضرة لها . وجروها إلى معبد القياصرة Templum Caésaris حيث رجموها حتى ماتت . والمعروف أن موتها تنفى على آخر تلامذة المدرسة القديمة (٢) .

ويكاد يكون من المتعذر حصر شهداء الاسكندرية فى عصور الاضطهاد التى مرت بها البلاد خلال القرون الثلاثة الاولى من المسيحية . ونجد فى « السنكسار »

---

(١) Bury, J.B., History of the Later Roman Empire, I (New York. 1958), 398 — 369; Atiya, 22.

أنظر أيضاً ، السيد الباز العرينى : مصر البيزنطية (القاهرة ١٩٦١) ص ٢٥٠ .

(٢) Chadwick, 101 ; Bury, I, 217 — 219; Atiya, 32.

أنظر أيضاً ، السيد الباز العرينى : مصر البيزنطية ص ٥٨ و ٦٢ . هذا ، ويتناول هذه الناحية بمزيد من التفصيل فى [illegible] .

(١) القبطى وفى كتب « سير القديسين » اسماء العديد من أولئك الشهداء. ومع ذلك فهم يمثلون نسبة ضئيلة من سلسلة الشهداء الذين أمكن التعرف عليهم. فما لا شك فيه أن عددهم الاجمالى كان كبيراً جداً ، وبخاصة أولئك الذين راحوا ضحية اضطهاد دقلديانوس ، وكان على رأسهم مارمينا صاحب الدير المعروف باسمه فى صحراء مريوط ، وكذلك القديسة دميانة الأبنة الوحيدة لمرقس حاكم شمال الدلتا التى كانت قد انسحبت إلى دير للراهبات مع أربعين من العذارى وقد ذبحهن دقلديانوس جميعاً . ولا يزال المكان الذى لجأن اليه مزاراً يحج اليه أقباط مصر حتى اليوم . ومن ضحايا اضطهاد مكسيمينوس دايا (٢) Maximinus Daia(٣٠٥ ٣١٣م) القديسة كاترينة السكندرية التى استشهدت

---

(١) السنكسار هو كتاب سير القديسين وأخبارهم ، ويشمل سيرة حياة القديس فى كل عيد من الأعياد الكنسية . وتتضمن المجموعة الخطية العربية المحفوظة بدير سيناء عشرات المخطوطات التى اشتملت على « السنكسار » . أنظر عزيز سوريال عطية : الفهارس التحليلية لمخطوطات طور سيناء العربية : فهارس كاملة مع دراسة تحليلية للمخطوطات العربية بدير القديسة كاترينه بطور سيناء - ترجمة جوزيف نسيم يوسف — ج ١ (الاسكندرية ١٩٧٠) ص ٥٦٢ . أنظر أيضاً ، كامل صالح نخله : كتاب السنكسار الجامع أخبار الأنبياء والرسل والشهداء والقديسين — جزءان (القاهرة ١٩٥١) .

(٢) كان هو وفاليريوس ليسينيوس Valerius Licinius بعد تنازل دقلديانوس يحكمان فى الشرق ، بينما كان قسطنطين وزميله ماكسنتيوس Maxentius يحكمان فى الغرب ، إلى أن قامت الحرب الاهلية بينهم التى انتهت بانفراد قسطنطين بالحكم سنة ٣٢٣م . أنظر ، أومان (ش.) : الامبراطورية البيزنطية - تعريب الدكتور مصطفى طه بدر (القاهرة ١٩٥٣) ص ١٢ - ١٣ .

وهى فى سن الثامنة عشر من عمرها وكان ذلك عام ٣٠٧ م ، ولا يزال الدير المشهور فى سيناء يحمل اسمها إلى اليوم (١) . وكان على رأس ضحايا اضطهاد مكسيمينوس أيضاً القديس بطرس بطريرك الاسكندرية (٣٠٠ — ٣١١ م) الذى يعتبر خاتم الشهداء (٢) . والخلاصة أنه لم يسلم أحد من هذه الاضطهادات، سواء كان من الرجال أو النساء أو الشيوخ أو الأطفال ، وسواء كان من العامة أو الاشراف . وهكذا لم يكن الاستشهاد وقفاً على شخص دون آخر أو فئة دون أخرى ، إنما شمل الجميع دون تفرقة أو تمييز للسن أو الجنس .

الظاهرة الثالثة : كنائس الاسكندرية وتنظيمها الكهنوتى .

كان للاضطهادات التى قاسى منها المسيحيون فى الاسكندرية عدة نتائج هامة، أولاها تلك السلسلة الطويلة الممتدة من شهداء المدينة من الرجال والنساء الذين فضلوا الموت على الردة إلى الوثنية وتأدية فروض العبادة للامبراطور. أما النتيجة

---

(١) Atiya, 31–32; Cheneau, II, 513–514; Moreau, 18.

أنظر أيضاً ، ايريس حبيب المصرى : قصة الكنيسة القبطية ج ٢ ص ١٢٦ - ١٢٨ و ١٣٠ و ١٣٧ و ١٣٩ و ١٥١ ؛ زكى شنودة : تاريخ الاقباط ج ١ ص ١١٤ - ١١٧ ؛ يتشر : تاريخ الامة القبطية ج ١ ص ١٠٤ ؛ جوزيف نسيم يوسف : دراسات فى المخطوطات العربية بدير القديسة كاترينه فى سيناء . مقال بمجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية . العدد ٢٣ (الاسكندرية ١٩٦٩) ص ٩٠ - ١

(٢) جدير بالذكر أن الكنيسة القبطية تطلق لقب خاتم الشهداء على بطريركها بطرس الأول وكان السابع عشر فى عداد البطاركة ، ليس لأنه آخر شهيد مسيحى وإنما لأن قتله كان ختاما لحركة المذابح العامة التى استشهد فيها آلاف المسيحيين ، ولأنه أيضاً كان آخر من استشهد من بطاركة الاسكندرية ، وكان ذلك سنة ٣١١م، أنظر مراد كامل : من دقلديانوس إلى دخول العرب ، ص ١١٢ .

الثانية فهى أن الوثنية وعبادة الامبراطور كانتا تجاريان فى معركة خاسرة أمام الديانة الجديدة الزاحفة لظـــروف عديدة متشابكة تتعلق بالاوضاع التى ألمت بالامبراطورية الرومانية عند نهاية التاريخ القديم وبداية العصر الوسيط .

وهكذا بالرغم من موجة الاضطهادات التى تعرض لها المسيحيون والتى بلغت ذروتها أيام دقلديانوس وردة جوليان ، فقـد انتصرت المسيحية آخر الامر فى فترة تغير وانتقال كان فيها جهـــاز العمل الرومانى فى الدين والفلسفة والفكر والسياسة والاقتصاد يلفظ آخر أنفاسه معلناً عن نهاية عصر وبداية عصر جديد بأوضاع جديدة مغـــايرة . وإذا كان لكل فعـل رد فعل ، فقد كان لحركة الاضطهادات رد فعل يساويها . فكلما ازداد الاضطهاد ازداد اتباع المسيحية فى الاسكندرية تمسكاً بمبادئهم والعمل على تنظيم صفوفهم ولم شملهم . وكانت النتيجة أن تأسست كنيسة الاسكندرية التى كان لها أكبر الشأن فى تاريخ المدينة فى العصر المسيحى وفى سياستها وحضارتها ومجتمعها . ولقد امتد تأثيرها خارج نطاق الاسكندرية نفسها مما دعا أحد المؤرخين المحدثين وهو آرثر ستانلى (١) Arthur Stauley إلى القول بأن تاريخ هـــذه الكنيسة يلقى الضوء على تاريخ المسيحية ونشأتها فى الشرق .

وكانت أول كنيسة تشيد فى الاسكندرية هى تلك التى شيدها المسيحيون فى منطقة تعرف باسم « بوكاليا » أو « بوكاليس » بالقرب من البحر أيام القديس مرقس . وقد عرفت باسمه فأطلق عليها اسم « الكنيسة المرقسية » نسبة اليه (٢).

---

(١) Stanley, 16.

(٢) كانت هذه الكنيسة وفقاً لمـا كتبه أحد بطاركة وشهداء القرن الرابع الميلادى وهـو بطرس الأول تقع فى المنطقة القديمة المسماه بوكاليا بالقرب من =

ولم تكن هذه الكنيسة فى القرن السابع أكبر كنائس المدينة وأعظمها شأناً ، بل كانت هناك كنائس أخرى أعظم منها (١). ولما كان مؤسسها هو مرقس فقد اعتبر البطريرك الاول لها ، واعتبر البطاركة الذين تعاقبوا بعده خلفاءه ، وكان حنانيا الاسكاف هو خليفته المباشر . أما هيئة رجال الدين فكانت تتألف من الاساقفة والقساوسة والشمامسة (٢). وكانت مهمة هذه الهيئة بكامل أفرادها تأدية القدسات والطقوس الدينية فى أيام الآحاد والأعياد والمناسبات الدينية ، ورعاية أرواح اتباعها والسهر على راحتهم وتعليمهم والعمل على نشر الدين .

وإلى جانب الكنيسة المرقسية التى لا تزال إلى اليوم تحمل اسم مؤسسها ، كان هناك العديد من الكنائس التى أخذ عددها يزداد مع الزمن . فتأسست كنائس أخرى منها كنيسة رئيس الملائكة ميخائيل ، وكنيسة القديس أثناسيوس وكنيسة ثيوناس ، وكنيسة القيصريون ، وكنيسة توما ، وكنيسة البشيرين أي الذين كتبوا البشائر الاربع ، وغيرها (٣) .

= الميناء الشرقى للمدينة . أنظر ، Pallia, J., "Alexandrie aux prêmiers siécles du Christianisme," Société Archéologique d'Alexandrie, Alexandrie, 1964, 19; Cheneau, I, 234. 263.

وتذكر الكاتبة بتشر أن بوكاليا تقع على شاطىء البحر . ويرجع سبب تسميتها بهذا الاسم ماذكره المؤرخ سترابو من أن البقعة المذكورة كانت قبلا مرعى للماشية ، ومن ذلك اشتق اسم المكان ، بتشر : تاريخ الامة القبطية جـ ١ ص ٢٧ أنظر ، أيضاً ماسبق ، ص ٩ — ١٠ من هذا البحث .

(١) بتلر : فتح العرب لمصر ص ٣٢٣ .

(٢) بتشر : تاريخ الامة القبطية جـ ١ ص ٢٩ .

(٣) أنظر ، ايريس حبيب المصرى : قصة الكنيسة القبطية جـ ١ ص ٢٩ - ٣١ .

وكانت كنيسة القديس ميخائيل التى تعرف أيضاً باسم كنيسة الاسكندر تقع على قة ربوة صخرية بين معبد القياصرة والحى اليهودى فى المدينة وكانت فى العصر الوثنى معبداً للاله ساتورن (١) Saturn : وقد تحول إلى كنيسة فى العصر المسيحى أثناء بطريركية الاسكندر (٣١٣ — ٣٢٦) ، ولذلك نسبت اليه . كذلك تحول العيد الوثنى للاله ساتورن إلى عيد مسيحى ، وهو يقع فى الثامن من نوفبر من كل عام ، وأصبح هذا العيد هو عيد القديس ميخائيل (٢) .

ويفسر أحد المؤرخين الغربيين الحديثين وهو جورج جوردون كولتون ظاهرة تحويل المعابد الوثنية القديمة إلى كنائس مسيحية ، وكذلك تحويل أعياد الآلهة الوثنية إلى أعياد مسيحية للقديسين يقول ان المسيحية عند انتشارها اختلطت بمعان وعناصر فكرية سابقة عنها وكانت تسير فى اتجاهات متعارضة. من بين هذه العناصر دين الدولة، والمقصود به عبادة الامبراطور التى تظاهر بها الرجل العادى فى الامبراطورية الرومانية بوصفها أمراً روتينيا، وكانت دينا رسمياً للدولة فحسب لم يمتد فقط إلى تدريس الأخلاق. كذلك اختلطت المسيحية بعبادات وثنية مختلفة، وبخاصة تلك التى من أصل شرقى، مثل عبادات سيبيل وإيزيس وسيرابيس وغيرها ، وقد اتصفت بقدر ضئيل من المحتويات، كما اتصف عدد منها بإباحية صريحة. واتحدت هذه العناصر بالمسيحية التى تأثرت بها. ويستطرد كولتون قائلا ان المسيحية ان كانت قد استوعبت أفضل ما فيها، فقد أخذت عنها فى نفس الوقت بعض نواحى ضعفها . وساعد على ذلك أن

---

(١) هو اله الزمان ويشتهر بقسوته الزائدة ، والمعروف أنه افترس أبناءه بمجرد مولدهم . عنه والمزيد من المعلومات ، أنظر مايلى :

Hillgarth, J. N. (ed.), The Conversion of Western Europe 740-750 Englewood Cliffs, N.J 19 9 57, 60; R se, H H Ancient Greek Religion London. 1946, 12 idem Ancient Roman Religion (London 1948). ff

(٢) Cf. Pallis, Oriens, I, 2 27.

المسيحية بما تمثله من مثل وقيم ، وما فيها من رموز وطقوس ، كانت فوق مستوى ادراك العامة وافهامهم ، ولذلك اضطرت أن تنحدر من مستواها الرفيع وأن تتنازل عن عليائها لتنتصر . فحاولت التوفيق بينها وبين الافكار الفجة السابقة ، وكان أن سمحت بتدشين المعابد القديمة بمـا يتفق وطقوس الكنيسة الجديدة ، مع الابقاء على حفلات الوثنيين وأعياد آلهتهم كما هى على أن تحول إلى احتفالات وأعياد مسيحية ، وأن يوجه اتباعها فى نفس الوقت من عبادة الشياطين إلى عبادة الإله الحق . وكان هـذا التساهل بدون شك أمراً حكيما وضرورياً وقتذاك ، فضلا عن أنه آتى ثماره المحتومة . وهكذا نجد أنه باندماج المسيحية فى العبادات الوثنية توارت كثير من الافكار القديمة تحت جناحى كنيسة العصور الوسطى . «(١) ولم تسلم كنيسة فى الشرق والغرب ، بما فى ذلك كنيسة الاسكندرية ، من هـذا التطور الذى طرأ عليها فى تلك الفترة المبكرة من تاريخ المسيحية .»

وإذا كنا قد أشرنا إلى كنيستى كل من القديس مرقس والقديس ميخائيل ، فهناك كنائس أخرى عديدة يرجع تاريخها إلى العصر المسيحى . منها كنيسة القديس أثناسيوس التى ترجع إلى شهر أغسطس من سنة ٣٧٠م ، وقد شيدها أثناسيوس وقام بتدشينها بنفسه ، واقام بها فى السنوات الاخيرة من حياته .

---

(١) كولتون (ج . ج .) : عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة — ترجمة وتعليق د. جوزيف نسيم يوسف ـ ط . ثانية (الاسكندرية ١٩٦٧) ص ٢٤ و ٤٩ وما يليها و٦٧ وما يليها . أنظر أيضاً ، كتاب كرامب وجاكب Crump, C.G & Jacob, E.F. (eds.), The Legacy of the Middle Ages (Oxford, 1951), 31.

وتأتى هذه الكنيسة من حيث الأهمية والفخامة بعد كنيسة ثيوناس Theonas .
وكانت تحتوى على عدد كبير من الاعمدة الرخامية القديمة وقليل من الجرانيت
الاحمر من أشكال وأحجام مختلفة تعلوها تيجان من الطراز البيزنطى (١) .

ويقول المؤرخون ان الكنيسة التى تحمل اسم ثيوناس كانت من اشهر المبانى
المسيحية فى الاسكندرية ، وهى تنسب إلى البطريرك الذى قام بتشييدها فيما
بين عامى ٢٨٢ و ٣٠٠م(٢) . وكان المسيحيون قبل ذلك يعقدون
اجتماعاتهم سراً ، ويقيمون شعائرهم فى المغاور والكهوف وفى المقابر بعيداً
عن أعين الحكام الرومان . ونهاهم عن ذلك حاكم مصر فى عهد كل من
الامبراطورين فاليريان وجالينوس . الا أنهم تمتعوا بعد ذلك بشىء من
التسامح من قبل السلطات الرومانية . فقام البطريرك إسكندر (٣١٣ -
٣٢٦ م) باعادة تشييد الكنيسة ، وحولها إلى كنيسة كبرى دشنها باسم
السيدة العذراء ، وجعل منها بطاركة الإسكندرية مقراً لهم لفترة تزيد
عن قرن من الزمان (٣) .

(١) Pallia, 17 - 18 ; Cheneau, 453.

(٢) يقول جان جاك باليا ان كنيسة ثيوناس هى اول كنيسة تم تشيدها فى
الاسكندرية ، وأن مسيحى الاسكندرية كانوا قبل ذلك يقيمون شعائرهم فى
المغاور والكهوف والمقابر . أنظر Pallia, 18. وهذا غير صحيح ، فالمعروف
أن أول كنيسة شيدت فى الاسكندرية هى كنيسة القديس مرقس فى منطقة بوكاليا
القديمة ، وكان ذلك فى القرن الاول قبل استشهاد مرقس بسنوات قليلة . انظر
ما سبق ، ص ٩ - ١٠ و ٢٠ من هذا البحث .

(٣) Pallia, 18 - 19.

وهناك أيضاً الكاتدرائية الكبرى المعروفة باسم كنيسة القيصرون التى أقيمت فى نفس موقع معبد القياصرة . وقد بدىء فى تشييد هذا المعبد خلال السنوات الاخيرة من حكم كليوباترة السابعة (٥٠ - ٣٠ ق . م) ، وتم بناؤه فى عهد أوغسطس حيث خصص لعبادته ، ولذلك كان يحمل أيضاً اسم « معبد أوغسطس » (١) . وبعد ان اعترف الامبراطور قسطنطين بالمسيحية فى القرن الرابع ، وحل السلام بين الدولة والكنيسة بعد صراع مرير دام قرابة ثلاثة قرون ، انتهى « معبد القياصرة » كمعبد وثنى ، وتحول إلى كنيسة كاتدرائية أطلق عليها اسم « الكنيسة الكبرى » أو « كنيسة السيد » . ولكنها مع ذلك احتفظت باسمها القديم فعرفت باسم كنيسة القيصريون » . وكانت من الكنائس العظيمة فى الاسكندرية . وبلغ من عظم شأنها أنها كادت تحل محل كنيسة مرقس ، وكانت تقع فى نفس الحى . وكان بناؤها جليلا ، ولهـــا مسلتان قديمتان فى فنائها . وقد دمرها الوثنيون بعد ذلك سنة ٣٦٦ م واشعلوا فيها النيران . ثم أعاد البطريرك الملكانى أثناسيوس تشييدها سنة ٣٦٨م، أى قبل وفاته بخمس سنوات (ت ٣٧٣ م) . وظلت الكاتدرائية منذ ذلك التاريخ فى حوزة بطاركة الملكانيين الأغريق حتى دخـــول العرب مدينة الاسكندرية سنة ٦٤٢ م . وفى تلك السنة انتقلت إلى حوزة أقباط مصر الموتوفيزيين ، ثم أعيدت ثانيـــة إلى الروم الملكانيين سنة ٧٢٧ م ،

---

(١) للمزيـــد من المعلومات عن معبد أوغسطس ، أنظر رواية كل من الفليسوف الاسكندرى فيلون والكاتب اللاتينى بلينى الاكبر الذى عاش فى القرن الاول للميلاد ، وقد أوردهما باليا فى بحثه Pallia, 16 - 17.

واندثرت نهائياً سنة ٩١٢م (١)

وثمة كنيسة أخرى ترجع إلى هذا العصر المبكر لم يتسن معرفة موقعها ، وكانت تعرف باسم كنيسة ديونيسيوس Dcminicum Dionisii . والمعروف أن القديس أثناسيوش أقام بها بعض الوقت (٢) . وهذا يدل على أنها كانت موجودة فى القرن الرابع ، وربما تكون قد شيدت فى نفس القرن .

تلك هى أهم كنائس الاسكندرية فى العصر المسيحى . ولا شك أنه بعد اعتراف قسطنطين بالمسيحية ، وبعد المراسيم التى أصدرها لصالح الدين الجديد واتباعه ، ازداد عدد الكنائس فى المدينة لأداء شعائر العبادة فيها . كذلك نشطت عملية نسخ الكتاب المقدس ليكون فى متناول المسيحيين الذين كان عددهم فى ازدياد مستمر . وكان فشل جوليان المرتد فى القضاء على المسيحية بمثابة آخر محاولة يائسة العودة إلى الماضى الوثنى . وبعدها نعمت مصر بعامة والاسكندريه بخاصة بفترة ممتدة من الهدوء والاستقرار ساعدت على بناء المزيد من الكنائس فى طول البلاد وعرضها .

وليس من السهل حصر جميع الكنائس التى شيدت فى ثغر الاسكندرية خلال العصر المسيحى (٣) . كما أنه ليس من السهل معرفة تواريخ بناء جانب كبير

---

(١) Pallia, 16 – 17, أنظر أيضاً ، بتلر : فتح العرب لمصر ص ٣٢٣ وما يليها .

(٢) Pallia, 19.

(٣) للمزيد من المعلومات عن هذه الكنائس أنظر : Cheneau, I, 99, 179, 240, 256, 327, II, 131, 230, 401, 421,

منها على وجه اليقين . أو تحديد مواقعها تحديداً دقيقاً قاطعاً ، أو التعرف على الزيادات التي أضيفت إلى بعضها ، خاصة وأن عدداً منها قد اندثر مع الزمن . فضلا عن انه أقيمت كنائس جديدة اما على انقاض الكنائس القديمة المندثرة ، أو في جهات ومناطق أخرى ، وفي أزمان مختلفة ( ) .

هذا ، وقد ارتكزت كنيسة الاسكندرية أساساً على قوانين المجامع المسكونية الثلاثة الأول، بينما نبذت تعاليم المجمع الرابع والمعروف باسم مجمع خلقيدونية. وعارضت البدع والهرطقات ليس في الشرق فقط وإنمـــا في الغرب الأوروبي أيضاً . وهي تعتبر من الآثار الباقية الخالدة للمسيحية في فجر تاريخها ، وقد ارتبطت بالمدينة نفسها ارتباطاً وثيقاً . وعلى الرغم من أن مؤسس الاسكندرية هو الاسكندر المقدوني ، الا أن تلك الكنيسة طبعت المدينة بطابعها وصبغتها بصبغتها طيلة العصر المسيحي (٢) . لقـد كانت كنيسة الاسكندرية هي قلعة المسيحية العتيدة في الشرق ، والمركز الوحيد الكبير للتعليم المسيحي . وكان كرسيها كرسياً رسوليا ، ذلك أن مؤسسه هو القديس مرقس أحد الإنجيليين الاربعة ، ولذا عرف باسم كرسي القديس مرقس ، كما غدا هذا الكرسي هو رأس العالم المسيحي وقتها (٣) .

---

(١) أشـــار المقريزي إلى بعض كنائس الاسكندريه الموجودة في عصره (القرن الخامس عشر الميلادي) ، ومنها كنيسة بوجرج ، وكنيسة يوحنا المعمدان ، وكنيسة الرسل ، وكانت كلها لليعاقبة . أنظر ، المقريزي : كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار جـ ٢ القاهرة (ط . بولاق ١٢٧٠) ص ٥١٨ .

(٢) Stanley, 61.

(٣) Stanley, 231.

الظاهرة الرابعة : مدرسة الاسكندرية اللاهـوتية ، وطبقة الفلاسفة اللاهـوتيين بها .

ثمة رواية تقول ان القديس مرقس قبل استشهاده أسس مدرسة لاهوتية مسيحية فى الاسكندرية لنشر الثقافة المسيحية بين طلابها ، وحتى تكون نواة لمعهد يتخرج منه الرجال الأكفاء لادارة شئون الدين الجديد . وقد ثـار كثير من الجدل والخلاف بين المؤرخين حول صحة ارجـاع هذه المدرسة إلى مرقس . ويرى فريق منهم أن هذه الرواية لاسند لها من الواقع التاريخى وانها تدخل فى نطاق الاساطير (١) . والواقع ان هذه المدرسة قامت على انقاض دار الفنون القديمـة فى الاسكندرية ، ثم انقلبت الى مدرسة لاهـوتية امتزجت فيها الفلسفة بأصول الدين . وكانت تشتغل فى أول الامر بدرس وتدريس مبادىء المسيحية على طريقة السؤال والجواب . على ان نطاقهـا قد اتسع بعد ذلك ، فاشتغلت بالعلوم والآداب والخطابة والقانـون والفلسفة واللاهـوت . واصبحت مدرسة لاهوتية كبرى ازدهرت جنباً الى جنب مع المدرسة الوثنية الاولى فى المدينة التى ترجع نشأتها الى الملك بطليموس الاول سنة ٣٢٣ ق . م . الا ان المدرسة الوثنية لم تكن مدرسة بالمعنى المعروف من هذه الكلمة ، بل كانت حلقات متسلسلة من العلماء المجتهدين الذين خدموا العلوم والآداب بما قاموا به من محادثات ومحاضرات وكتابة ونشر . وظلت الفلسفة ومذاهبها المختلفة اهم ما كانت تشتغل به المدرسة

---

(١) مراد كامل : من دقلديانوس الى دخول العرب ص ٢٣٨ ؛ ايريس حبيب المصرى : قصة الكنيسة القبطية جـ ١ ص ٣٥ ؛ زكى شنودة : تاريخ الاقباط جـ ١ ص ١٢٠ ؛ السيد الباز العرينى : مصر البيزنطية ص ٢٧٠ . ويرى كل هؤلاء ان مؤسس المدرسة هو القديس مرقس دون الاشارة الى الاصول التى استمدوا منها مادتهم . أما الدكتور عزيز سوريال عطية فيذكر ان هذه الرواية تدخل فى

المسيحية أسوة بالمدارس اليونانية القائمة وقتذاك (١) .

واشتغلت تلك المدرسة ايضاً بالعلوم الاخرى كالطب والكيمياء والطبيعة والحساب والهندسة والفلك والجغرافية والموسيقى والتاريخ . والهدف من ذلك خدمة الدين الجديد وتحديد الأعياد وأيام القديسين ، ولو أن هذه المعارف والعلوم أسهمت بطريق غير مباشر فى نشر الثقافة فى المدينة والنهوض بالآداب والعلوم والفنون بها . ومن أشهر ماقامت به ترجمة التوراة من العبرية الى اليونانية، وهى الترجمة المعروفة بالترجمة السبعينية التى قام بها سبعون عالماً من علماء اليهود بالاسكندرية بأمر الملك بطليموس فيلادلفوس لصالح الجالية اليهودية المتأغرقة بالمدينة (٢) .

= نطاق الأساطير ، وأن أول إشارة عن تلك المدرسة كانت أيام رئيسها بنتاينوس Pantaenu أنظر Atiya, 33.

(١) Hardy, E.R., Christian Egypt, Church and people (New York.1952) , 13 ; Layne , N. H. & Moss, H. St. L.B. (eds.), Byzantium: An Introduction to East Roman Civilization (Oxford, 1953) , 213 ; Atiya, 33 – 34.

أنظر أيضاً ، زكى شنودة : تاريخ الأقباط جـ ١ ص ٣١٨ . وحول المنافسة الحادة التى قامت بين المدرستين المسيحية والوثنية فى الاسكندرية . والطلاب الذين وفدوا من الخارج لتلقى العلم فيها ، أنظر — Mostafa El Abbadi, "A Side – Light on the Social Life of Ancient Alexandria," Cahiers d'Alexandrie, Série II, Fasc. 3, Alexandrie, 1964, 48 - 49.

(٢) جورجى صبحى : من تراث الكنيسة القبطية ـ مقال فى رسالة مارمينا عن الرهبنة القبطية (الاسكندرية ١٩٤٨) ص ١١ ؛ زكى شنودة : تاريخ الاقباط جـ ١ ص ١١٩ . وحول تركز العلوم فى مدرسة الاسكندرية ، أنظر ، مراد كامل: القبط فى ركب الحضارة العالمية ـ مقال فى رسالة مارمينا الخامسة (الاسكندرية ١٩٥٤) ص ٢٥ ومايليها .

وإذا أردنا التعرف على تاريخ المدرسه ونشاطهـــا وتأثيرها فى مجتمع الاسكندرية ، يمكن التعرف عليه من سير وأعمال رؤسائها وطلبتها ومدرسيها . إذ ترتبط المدرسة فى هذا المجال بأسماء ثلاثة رجال يعتبرون من أشهر من تولوا إدارتها فى العصر المسيحى . وقد ازدهرت فى عهودهم وذاع صيتها خارج نطاق المدينة نفسها . لقد أبدى هؤلاء الثلاثة نشاطاً فائقاً فى ربط الدين بالفلسفة ، وفى اثارة زوبعة من الجدل والنقاش فى المسائل الدينية واللاهوتية . أولهم بنتاينوس Pantaenus الذى رأس المدرسة من سنة ١٨٠ م إلى حوالى سنة ١٩٠ م، وثانيهم كلمنت Clement الذى خلفه فى إدارة المدرسة ، ثم أوريجين Origen تلميذ كلمنت الذى تولى إدارتها بعده . وغنى عن القول أنه أتى بعد هؤلاء عدد آخر ممن ذاع صيتهم من أمثال ديونيسيوس وديديموس الضرير (١) .

ويعتبر بنتاينوس (٢) هو الذى فكر فى ترجمة الكتـــاب المقدس إلى اللغة المصرية . ولكنه رأى كل الخطـــوط المصرية من هيروغليفيـة وهيراطيقيـة وديموطيقية صعبة الكتابة خاصة وأنها لم تكن معروفة إلا لعدد قليل من الأمراء ، فاستعار الأحرف اليونانية وأضاف اليها السبعة الأحرف الأخرة من الديموطيقية وكون منها جميعاً الأبجدية القبطية . وبهذه الوسيلة تمكن من ترجمة الكتاب المقدس بمساعدة تلاميذه إلى اللغة القبطية التى تعتبر آخر صورة من صور اللغة المصرية .

---

(١) Lesourd, 19 راجع أيضاً سليمان نسيم : تاريخ التربية القبطية ص ١٢٣ .

(٢) حول بنتاينوس وأعماله أنظر R. P. Reginald de Sà O.P., "L' Oeuvre de Pantene," Cahiers d'Alexandrie, Série IV, Fasc, 1, Alexandrie, 1966, 13 – 25.

القديمة (١) . ويقول بيير جوجيه P. Jouguet أن مدرسة الاسكندرية تألقت في عهد بنتاينوس الذي يعتبر أول أستاذ بارز يتولى ادارتها .ولسنا نعرف الكثير عن سيرته سوى ماجاء في ثنايا كتاباته (٢) . وكانت وفاته حوالي سنة ١٩٠ م في عهد الامبراطور الروماني كومودوس Commodus .

أما كلمنت الاسكندري فهو من أبرز تلامذة بنتاينوس .ولد حوالي سنة ١٥٠م من أبوين وثنيين . ولم يكن مولده في الاسكندرية . ولكنه قدم اليها بعد أسفار عديدة تلقى خلالها العلم على عدد من المعلمين المسيحيين . وقد تفوق في الفلسفة اليونانية ، ثم اعتنق المسيحية بارشاد أستاذه ، واشتهر بتضلعه في معرفة الكتب المقدسة وفي تأليف الكتب الدينية واللاهوتية التي لا يزال بعضها موجوداً حتى اليوم . وهو يعتبر المؤسس الحقيقي لعلم اللاهوت المسيحي . وقد وكل بادارة المدرسة اللاهوتية في الفترة التي سافر فيها بنتاينوس على رأس بعثة تبشيرية إلى الهند . ثم أصبح مديراً لها بعد وفاة الاخير ، وظل مديرها حتى سنة ٢٠٢م ، وتوفي حوالي سنة ٢١٥م (٣) .

---

(١) Worrell, W., A Short Account of the Copts (Michigan, 1945), 8; Sharpe, A., History of Egypt, 204; Atiya, 34.
أنظر أيضاً ، سليمان نسيم : تاريخ التربية القبطية ص ١٢٢ و ح ٢ ؛ مراد كامل : القبط في ركب الحضارة العالمية ص ٢٨ .

(٢) Jouguet, 38. وجدير بالذكر أن معرفتنا بشخصية بنتاينوس جاءت ، فضلا عما ورد في ثنايا مؤلفاته ، عن طريق كتابات الآخرين عنه . أنظر عن ذلك كتاب جلانفيل Glanville, 302.

(٣) Mémoires de l'Institut Français d'Archéologie Orientale du Caire, X, Le Caire, 1904, 1 – 3; Atiya, 34 – 35; Glanville, 302 – 303.
وللمزيد من المعلومات عن تعاليمه ومثله وأفكاره ، أنظر سليمان نسيم : تاريخ التربية القبطية ص ١٢٣ — ١٢٥ ، وكذلك Chadwick, 94 — 100.

أما أوريجين (حوالى ١٨٥ — ٢٥٥م) فهو ألمع تلامذة كلمنت، ويعتبر من أبرز الشخصيات التى ظهرت فى تاريخ الكنيسة المسيحية، وأحد عمالقة المفكرين المسيحيين الاول، وبه اكتمل الفكر المسيحى القبطى فى القرن الثالث. كما تمثلت فى دراساته فلسفة مدرسة الاسكندرية أوضح تمثيل. ولد من أبوين مصريين مسيحيين حوالى سنة ١٨٥م. وهو من الاسكندرية، ونشأ وتربى فى بيئة مسيحية وتلقى تعليمه الدينى على يد والده، كما درس الفلسفة على يد أستاذه كلمنت. وهو وان كان لا يشير اليه فى كتاباته، الا أنه لاشك قد قرأ له باهتمام بالغ، وسار على خطاه فى كثير من الامور. ومع أنه كان دون معلمه معرفة بالادب الاغريقى الا أنه كان أعمق منه تفكيراً وأرسخ فهما لمختلف المذاهب الفلسفية. وقد أشتهر بذكائه الخارق، فذاع صيته حتى قربه اليه ديمتريوس الاول بطريرك الاسكندرية وقتذاك. وفى أثناء اضطهادات سبتميوس سفيروس استشهد أبوه ليونيديس سنة ٢٠٢م، واضطرت مدرسة اللاهوت بالاسكندرية إلى التوقف عن عملها فترة من الزمن، خاصة وان رئيسها كلمنت كان قد غادر البلاد ولم يحل محله أحد. وهكذا بدأ أوريجين فى التدريس بصفة غير رسمية بالمدرسة المذكورة، ثم قام ديمتريوس بتثبيته فى منصبه كرئيس لها خلفاً لاستاذه على الرغم من أنه كان لا يزال فى الثامنة عشرة من عمره، وكان ذلك نحو سنة ٢٠٣ أو ٢٠٤م.

وفترة ادارة اوريجين للمدرسة جديرة بالتسجيل، إذ أدى نشاطه الفائق الى ظهور نهضة كبيرة فيها. لقد عمل على ازدهارها حتى اقبل عليها ليس المسيحيون فقط بل الوثنيون ايضاً. ولكنه لم يبال بهم، بل اخذ فى التعليم داخل المدرسة وخارجها. وهو، فضلا عن ذلك، يعتبر بحق اول استاذ للنقد العلمى للتعاليم الدينية. ويبدو انه اهتم فى الفترة الاولى من حياته العملية بدراسة النصوص الدينية وكتب عليها كثيراً من التعليقــات. كما حذا حذو استاذه فى استخدام

الفلسفة اليونانية لخدمة المسيحية .

وأشتهر أورجين بالسيرة الصالحة والزهد الشديد . ولشده خوفه على عفته من الفساد فقد خصى نفسه . وفى سنة ٢١٢ م زار مدينة روما حيث قوبل بحفاوة لسمو منزلته العلمية . وما كاد يعود إلى الاسكندرية حتى كان أعداؤه قد كثر عددهم . فأثاروا ضده القيصر كاراكالا Caracalla سنة ٢١٥ م . فغادر مصر إلى فلسطين وكانت شهرته قد سبقته اليها ، فاستقبله أساقفتها بالترحيب ودعوه للوعظ واطلقوا عليه لقب « أمير شراح الكتاب » ، لغزارة معلوماته الدينية ودقة تفسيره الكتاب المقدس . وفى سنه ٢٢٦ م استدعته ماميا Mamaea والدة القيصر اسكندر سفيروس Alexander Severus (٢٢٢ — ٢٣٥ م) إلى أنطاكية لتستمع إلى وعظه وحديثه .

وفى سنة ٢٢٨ م رسمه أسقف مدينة قيسارية كاهناً . فلما علم ديمتريوس بطريرك الاسكندرية بذلك عقد مجمعا فى المدينة تقرر فيه قطع أوريجين من وظيفته الكهنوتيه . وبنى قراره على أمرين : أولهما أن أوريجين خصى نفسه ؛ وثانيهما أنه قبل الرسامة فى اقليم خلاف الاقليم التابع له . واقام ديمتريوس مكانه فى رئاسة المدرسة أحد تلامذته وهو هيراكلاس Heraclas الذى كان اوريجين نفسة قد جعله وكيلا للمدرسة . وكان هذا الحكم سببا فى ان اوريجين هجر وطنه سنة ٢٣١ م الى قيسارية فى فلسطين حيث امضى البقية البقية من حياته . وهناك قامت حوله مدرسة كاملة من طلابه ومريديه . وهناك أيضاً استأنف كتابه الوسائل وتصنيف المؤلفات التى كان قد بدأها أثناء وجوده فى الاسكندرية ، وكان صديق له من أغنيائها يمده بالمال اللازم ممكيناً له من التفرغ للكتابة والتأليف ، كما خصص له عدداً من الكتبة يملى عليهم ما تجود به قريحته ،

وفى سنة ٢٥٥ م توفى أوريجين فى مدينة صور أثناء اضطهادات الامبراطور ديسيوس عن ٦٩ سنة . ومما يذكر عنه أنه استخدم التعليم الدينى فى خدمة العقيدة الجديدة . وعمل على التوفيق بين المسيحية والفلسفة اليونانية القديمة . كما قام بتفسير العهد القديم ، وبخاصة سفر التكوين ، على أساس فلسفة أفلاطون القائمة على ثنائية العقل والمادة وكان أوريجين متطرفاً فى آرائه أثناء حياته . وبعد وفاته اشتد الجدل والنقاش حول افكاره خلال القرنين الخامس والسادس ، ورفضت المجامع الدينية قبول الكثير منها . (١)

وبعد أوريجين تولى رئاسة المدرسة أحد تلامذته وهو ديونيسيوس الاسكندرى Dionysius الذى لقب فيما بعد عندما أصبح بطريركا باسم ديونيسيوس الكبير . وقد شغل هذا المنصب العلمى الى ان اصبح بطريركا (٢٤٦ — ٢٦٤ م) . وكان عهدة مليئا بالاضطرابات ، واضطر إلى الاختفاء أثناء اضطهاد ديسيوس سنة ٢٥٠ م . وقد القى القبض عليه ذات مرة ولكنه تمكن من الهرب . ووقع اضطهاد آخر سنة ٢٥٧ م فى عهد الامبراطور فاليريان ،

---

(١) Tollington, R.B., Clement of Alexandria, I (London. 1914), 48; French, R.M., The Eastern Orthodox Church (London. 1951), 29 ff.; Burgh. W.G. de, The Legacy of the Ancient World, II (London, 1955), 362 – 366; Glanville, 303 – 309; Chadwick. 100 ff; Atiya, 35 – 38.

أنظر أيضاً ، راغب عبد النور : أوريجانوس (١٨ — ٢٥٥م) — مقال فى رسالة مارمينا الرابعة (الاسكندرية ١٩٥٠) ص ٥ — ٣٦ ، يقشر : تاريخ الامة القبطية جـ ١ ص ٦٢ — ٩٦ ، سليمان نسيم : تاريخ التربية القبطية ص ١٢٥ — ١٢٨ . وعن الجدل والنقاش الذى ثار حول آراء وافكار اوريجين ، أنظر Glanville, 300 — 301.

وغدت الاسكندرية مسرحاً القلاقل ، إذ تحرشت القبائل المتبربرة بالبلاد من ناحية الجنوب . بينما أعلن والى مصر من قبل روما والمسمى اميليانوس Amilianus نفسه امبراطوراً . واشتعلت نيران حرب اهلية فى البلاد انتهت بأن ألقى القائد الامبراطورى المسمى ثيودوتس Theodotus القبض على الثائر. وأدت الحرب إلى دمار المدينة وفرار الأهالى منها ، بينما هددتها الأوبئة والمجاعات . وكان ديونيسيوس عقب كل أضطهاد يواجه مشكلة المرتدين عن المسيحية . ولكنه كان بعيد النظر راجح العقل ، إذ سمح للمرتدين بالعودة إلى حظيرة الدين ؛ كما تجاوز عن اعادة تعميد العائدين منهم إلى العقيدة .

وممن يجب الاشارة اليهم عند التعرض لمدرسة الاسكندرية اللاهوتية ديديموس الضرير Didymus الذى وكل إليه البطريرك أثناسيوس رئاسة المدرسة فى الفترة الممتدة من حوالى سنة ٣١٥م حتى سنة ٣٩٨م . وقد عاصر ديديموس ظهور الأريوسية والمجتمع المسكونى الاول فى نيقية. وله العديد من المؤلفات ، ولكنها فقدت كلها . ومن تلامذته القديس جيروم St. Jerome والمؤرخ روفينوس Rofinus وهما من زوار أديرة مصر ورهبانها فى القرن الرابع . وبعد ديديموس تدخل مدرسة الاسكندرية التى أخرجت ألمع الفلاسفة اللاهوتيين فى فجر المسيحية والتى كان كثير من البطاركة من بين تلامذتها ومديريها ، تدخل فى مرحلة مظلمة قاتمة ينطفىء فيها نورها ، ولا نكاد نسمع عنها بعد ذلك شيئاً .

لقد أدت تلك المدرسة دورها وقتذاك فى تشكيل العقيده المسيحية ، وأدلت بدلوها فى المسائل اللاهوتية التى شغلت الاذهان ردحاً طويلا من الزمن . ولكن بعد ذلك بدأت الحماسة تخبو وأخذت المعرفة فى التقلص ، وبخبو الحماسة وتقلص المعرفة اندثر معهد عظيم (١) .

---

(١) Atiya, 38 — 39, انظر أيضاً ، مراد كامل : القبط فى ركب الحضارة العالمية ص ٢٩ ؛ زكى شنودة : تاريخ الأقباط ج ٩ ص ١٢٢ ، ١٢٤ .

هؤلاء هم أبرز العلماء والمتعلمين الذين ارتبطت أسماؤهم بمدرسة الاسكندرية اللاهوتية وارتبطوا هم أيضاً بها خلال القرون الثانى والثالث والرابع الميلادية .
وإذا أردنا تقييم دور هذه المدرسة التى قامت على أنقاض المدرسة الوثنية القديمة، فلابد من الاشارة إلى العصر الذى ظهرت فيه المسيحية وعناصر الفكر السابقة لها، والتأثير المتبادل بين المسيحية وبين تلك العناصر .

كان ظهور المسيحية فى أواخر التاريخ القديم ،فى وقت كانت فيه الامبراطورية الرومانية بمثلها وأفكارها شبحاً يحتضر . وكانت عناصر الفكر الرئيسية السابقة لها أربعة هى : دين الدولة والمقصود به عبادة الامبراطور ، والعبادات الوثنية المختلفة ، وقد سبق الاشارة إليها . أما العنصر الثالث فهو الفلسفة اليونانية التى كانت تحتوى على قدر عظيم من دروس الاخلاق ، ولكنها فى جوهرها دروس أكاديمية تقصر عن الوصول إلى مستوى ادراك الرجل العادى . والعنصر الأخير هو اليهودية ، وهى قوية فى إيمانها بالوحدانية وفى نفورها من عبادة الأصنام ، وان كانت تتميز بالتعصب وضيق الأفق .

تلك هى الخيوط الأربعة التى كانت موجودة قبل المسيحية ، وكانت تسير وقتها فى إتجاهات متنافرة مما أدى إلى بلبلة الفكر واضطرابه فى وقت كان فيه العالم الرومانى يلفظ آخر أنفاسه . وكانت النتيجة أن انعدمت الاصـــالة فى الآداب والعلوم والفنون وفى الفكر والثقافة بسبب الضعف الذى انتاب الدولة من ناحية وبعثرة الفكر وتشتته من ناحية أخرى . ولكن بعد ظهور المسيحية وانتشارها اتحدت هذه العناصر الاربعة فى الدين الجديد ، وترتب على ذلك مع تقدم الزمن انصهارها فى المسيحية التى استوعبت أفضل مافيها وان كانت قد أخذت عنها بعض هناتها . والحصيلة أن هذه الاسلاك الاربعة انصهرت لتصبح سلكاً واحداً . وأصبح الفكر يسير فى اتجاه واحد بعد أن كان مبعثراً متنافراً متصارعاً . وقد

أدى ذلك إلى بعث الحياة من جديد فى شتى نواحى الحضارة (١).

وتمثل هذا خير تمثيل فى مدرسة الاسكندرية اللاهوتية ، وفيمن تتلمذوا فيها ومن تولوا ادارتها من الفلاسفة اللاهوتيين ، وكثير منهم كانوا من الوثنيين الذين دخلوا فى الدين الجديد من أمثال بنتاينوس وتلميذه كلمنت .كما يبدوا هذا فى محاولة التوفيق بين الفلسفة اليونانية والمسيحية باستخدام الفلسفة لخدمة الدين الجديد (٢) .

كل هـذا خلق تناسقاً فى الفـكر وأوجد نهضة فلسفية لاهوتية شهدتها المدرسة على يد من تولوا رئاستها ومن تلقوا العلم بين جدرانها .ويكفى أنها هى التى أخرجت تلك الطبقة من الفلاسفة اللاهوتيين المشهورين فى تاريخ آباء الديانة المسيحية من أمثال كلمنت وأوريجين واثناسيوس الكبير وكيرلس الكبير وغيرهم ممن وقفوا فى وجه الأباطرة الرومان المضطهدين للمسيحية فى قرونها الأولى ، وممن شهدوا المجامع المسكونية الكبرى وكان لمنطقهم وسعة علمهم أكبر الأثر فى توجيه الفكر فى ذلك العصر ولقرون طويلة تالية (٣) .

الظاهرة الخامسة : الانشقاقات المذهبية ، والمجامع المسكونية ، ودور الاسكندرية فيها (٤) .

---

(١) أنظر ، كولتون : عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة ص٤٩-٥٠.

(٢) Neill, 36.

(٣) Cf. Stanley, 230; Neill, 47.

(٤) تتضمن المجموعة الخطية العربية المحفوظة بمكتبة دير سانت كاترينة فى سيناء عدداً من المخطوطات القيمة التى يرجع تاريخها إلى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، والتى تناولت بالتفصيل موضوع الانشقاقات المذهبية ودوافعها وأسبابها والمجامع المسكونية التى عقدت من أجلها والقرارات التى توصلت اليها . ومن بينها المخطوطات التى تحمل أرقام مكتبة الدير ٢٩٠و٣٩١ و ٣٩٢ و ٣٩٣ و ٥٢٦ و ٥٩٠ و ٦٠٠ سيناء - عربى والمخطوطات الاربع الاولى قامت بعثة =

من العرض السابق يتضح أن العلاقات بين الوثنيين والمسيحيين فى الاسكندرية مرت بمرحلتين رئيسيتين : الاولى مرحلة اضطهاد الاغلبية الوثنية للاقلية المسيحية وقد شغلت القرون الثلاثة الاولى من المسيحية حتى دقلديانوس . وبعد اعتراف قسطنطين الكبير بالمسيحية تغيرت الاوضاع بعد أن أصبحت المسيحية هى ديانة الدولة ، وجاء دور الاغلبية المسيحية لتضطهد الاقلية الوثنية فى المدينة. وقد اختتم بمقتل هيباشيا فصل فى قصة الاضطهاد ، ولم يعد هناك وثنيون لاضطهادهم . وبعد ذلك حل نوع جديد من الاضطهاد هو اضطهاد مسيحى مذهبى لأسباب سياسية . إذ أخذ المسيحيون يضطهدون بعضهم بعضاً عندما بدأت الخلافات المذهبية تظهر بشكل واضح بينهم ، والتى من أجلها عقدت المجامع المسكونية الكبرى التى أدلى فيها رجالات كنيسة الاسكندرية بدلوهم ، وأحرزوا الانتصار تلو الآخر على الكراسى المسيحية الاخرى فى الشرق والغرب على السواء .

ولتفصيل ذلك نقول انه بعد هزيمة الوثنية وتأصل جذور المسيحية ، وبعد تأسيس كنيسة الاسكندرية بكامل هيئتها ابتداء من البطريرك حتى أصغر قس،

= جامعة الاسكندرية ومكتبة الكونجرس سنة ١٩٥٠ بتصويرها بالميكرو فيلم . وتحتفظ كلية الآداب بجامعة الاسكندرية بنسخ منها . أنظر مقالى « دراسات فى المخطوطات العربية بدير القديسة كاترينة فى سيناء » ص ١٩٢ و ح ١ . وهناك مخطوطات أخرى عديدة تحتفظ بها مكتبة الدير تضمنت فيما تضمنته من موضوعات أخبارا عن المجامع وتعاليمها والقرارات التى اتخذت فيها . أنظر ، عزيز سوريال عطية : الفهارس التحليلية لمخطوطات طور سيناء العربية ج ١ ص ٤١ (مخطوط رقم ١١ ورقة ١٣٩ ب وما يليها) ، وص ٤٤٧ (مخطوط رقم ٢٣٧ ورقة ١١ أ وما يليها) ، وص ٤٦١ (مخطوط رقم ٥٤٢ ورقة ٢٠٨ ب) .

فظل العالم المسيحى فى الشرق والغرب فترة من الزمان متحداً متماسكاً (١).
ولكن مشاكل المسيحية لم تنته تماماً بزوال الوثنية ونهاية عصر الاضطهادات ،
إذ سرعان ما ابتدأ الانقسام الدينى بين المسيحيين أنفسهم ، وبدأت اعراض
الانفصام تظهر بينهم ، وغرست بذور المذاهب المتعددة فى العالم المسيحى على
أثر ذلك . وقد جاهد الاباطرة الرومان فى سبيل القضاء على ذلك الانقسام ،
وتوحيد الصفوف من جديد عن طريق عقد المجامع المسكونية الكبرى التى كانت
تضم كل أساقفة العالم المسيحى وكبار رجال الدين فيه ، بقصد التشاور والنقاش
فى المسائل المذهبية والخلافات الدينية ، أو لاعلان رأيهم وقرارهم فى هرطقة أو
بدعة ما ، مع العمل على حل النزاعات القائمة بالتفاهم . ومما يذكر هنا أن خطأ
كبير تعريف المهرطق بأنه شخص مارق عديم التقوى خارج عن المبادىء الدينية.
بل نجد ، على العكس من ذلك ، أن بعض الهراطقة الاول كانوا مرتبطين
بالعقيدة ارتباطاً وثيقاً ، كما كانوا يتصفون بالتقوى والورع ارائدين . لقد كان
هذا العصر — بحق — هو عصر القديسين والهراطقة . وكانوا كلهم مسيحيين
بالمعنى المفهوم من هذا الاصطلاح ، كل حسب عقيدته أو مذهبه . وعلى أية حال،
فقد كان لقرارات المجامع التى عقدت للنظر فى هذه الهرطقات أهمية كبرى ونتائج
بالغة الأثر . إذ اعتبرت الأساس الذى بنيت عليه الديانة المسيحية ، وكان لكرسى
الاسكندرية فيها دور بارز (٢) .

---

(١) Lesourd, 21.

(٢) Atiya, 39–40; Cf. Daoud Abdo Daoud, " Alexandria and the Early Church Councils," Cahiers d'Alexandrie, Série II, Fasc. 3, Alexandrie, 1964, 51.

وقد تكرر اجتماع هذه المجامع خلال القرن الرابع والنصف الأول من القرن الخامس بهدف وضع القوانين الأصلية للديانة المسيحية على أساس الكتب المقدسة وتعاليم القديسين . وإذا كانت هذه الطريقة قد نجحت فى بدايتها ، الا أن اتساع شقة الخلاف بين مختلف الأمم المسيحية ليس فقط من ناحية العقيدة وانما أيضاً لظهور عوامل التفرقة السياسية ، أدت إلى اخفاقها فى النهاية فى مهمتها . وكانت النتيجة أن استقلت الكنائس المختلفة فى الاسكندرية وانطاكية والقسطنطينية وروما وغيرها ، وما ترتب على ذلك من آثار فى الأحقاب التالية .

وربما كانت أهم المجامع المسكونية هى المجامع الأربعة الأول التى انعقدت فيما مابين عامى ٣٢٥ و ٤٥١ م . وقد عقد أولها وهو مجمع نيقية ، فى صيف عام ٣٢٥ م بأمر الامبراطور قسطنطين الكبير ، وحضره ٢١٨ أسقفاً من مختلف أقطار المسكونة للنقاش فى أمر بدعة نادى بها أحد كهنة الاسكندرية ويدعى أريوس Arius (حوالى ٢٥٠ — ٣٣٦ م) حول الوهية المسيح . وقد التف حوله جمع غفير من سكان المدينة ، وانتشرت بدعته إلى ما وراء الحدود المصرية داخل الامبراطورية الرومانية الشرقية وخارجها بين الأمم الجرمانية بصفة خاصة . وتتلخص بدعة أريوس فى أن المسيح مخلوق بشر وهو يشبه الله الأب ، ولكن طبيعته تختلف عن طبيعة الاب الذى كان موجوداً قبله . غير أن عمل الاب انتهى بخلق الابن بنفحه من روحه القدس فى العذراء مريم ، وهذا الابن خلق العالم . وبعبارة مبسطة تتلخص بدعة أريوس فى أن المسيح مخلوق بشر منكراً الوهيته . وقد تصدى له فى المجمع أثناسيوس (١) الشهير (حوالى ٢٩٦ — ٣٧٣م) ،

(١) حول أثناسيوس وسيرته والمناصب الدينية التى تقلدها ونشاطه الدينى، وعلاقاته بمعاصريه مثل الامبراطور قسطنطين الكبير والقديس بازيل وغيرهما أنظر : =

وكان إذ ذاك أسقفاً فى مقتبل العمر لم يصل إلى كرسى البطريركية بعد . فدحض حجج أريوس بقوة حتى قرر الجمع خطأ النظرية الأريوسية وحرمان أريوس من الكنيسة واعتبار حركته بدعة وهرطقة (١) . وكان هذا نصرا للاسكندرية ووجهة نظرها (٢) . وهكذا أصبح بطريرك الاسكندرية بعد مجمع نيقية هو الحكم

Neale, J. M., A History of the Holy Eastern Church = (London, 1873), 138 f.; Stanley, 227 ff.; Chadwick, 139 ff.; Cheneau, I, 533 ff.

وكذلك ، منير شكرى : أثناسيوس الرسولى - مقال فى رسالة مار مينا الرابعة (الاسكندرية ١٩٥٠) ص ٤٩ وما يليها . وللمزيد من المعلومات أنظر ، المراجع التالية :

Moehler, G.A., Atharase le Grand et l'Eglise de son temps, traduit par J. Cohen, Paris, 1840; Fialon E., Saint Athanase, Paris, 1877; Barbier, Saint Athanase, Paris, 1880; Cavallera, F., Saint Athanase, 908; Bardy, G., Saint Athanase, Paris, 1920.

(١) Atiya, 34 – 44; Neale, 85; Stanley, 97 – 196; Lesourd, 24 - 25; Moreau 48 - 50.

هذا ، ويلاحظ أن الأريوسية لم يقض عليها نهائياً عقب مجمع نيقية ، بدليل ما كانت تلاقيه من تأييد الشعب ومن تعضيد الأباطرة الرومان ، وأن القضاء عليها بصفة قاطعة لارد لها لم يحدث إلا متأخراً . وللمزيد من المعلومات ، أنظر سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ٣٥ وما يليها . راجع أيضا ، Hillgarth 21, 44. Chadwick, 139 ff., 133 ff.; Diehl, Ch., Histoire de l'Empire Byzantin (Paris, 1920), 9 f.

(٢) Cf Bell, H.I., Egypt from Alexander the Great to the Arab Conquest (Oxford, 1948), 107 f.

والفيصل فى العالم المسيحى فيما يتعلق بالمسائل الدينية والأمور الدنيوية على السواء، وأصبح لكرسى الاسكندرية المكانة الأولى بين مختلف الكراسى فى العالم المسيحى (١) .

وفى الجمع الثانى المعروف بمجمع القسطنطينية الذى عقد عام ٣٨١ م ، ظهر التنافس واضحاً بين كراسى الاسكندرية وروما والقسطنطينية التى هى « روما الجديدة » أو « روما الثانية » ، خاصة وأن كلا من روما والقسطنطينية أخذت تتوجس خيفة من نفـــوذ الاسكندرية المتزايد . وعقد هذا المجمع فى عهد الامبراطور ثيودوسيوس الكبير (٣٧٩ - ٣٩٥ م) . وفيه جعل لبطاريرك مدينة القسطنطينية المقام الثانى بين البطاركة باعتبار أن القسطنطينية هى «روما الجديدة»، وكان لاسقف روما القديمة الاسبقية والمكان الأول (٢) . كذلك منحت بطريركية القسطنطينية فى هذا المجمع الاسبقية على الاسكندرية . والواقع أن روما لم تعترف مطلقاً بادعاء القسطنطينية بأن لها المقام الثانى بعدها لخوفها من ازدياد نفوذها عليها . أما الاسكندرية فقد قبلت هذا الادعاء على مضض . وكانت تتحين الفرص لتؤكد استقلالها التام ومذهبها الدينى الاكثر أرثوذكسية من وجهة نظرها . وهكذا كان من نتيجة منح بطريركية القسطنطينية الاسبقية على الاسكندرية أن حقدت الأخيرة على الاولى ، حتى انه فى بداية القرن الخامس قام نزاع بين ثيوفيلس Theophilus (٣٨٥ - ٣١٢م) وبين يوحنا فم الذهب John Chry-sostom (حوالى ٣٤٧ - ٤٠٧ م) القسطنطينى ، ذلك النزاع الذى كاد أن يؤدى

---

(١) Stanley, 331.

(٢) Baldwin, M.W., The Mediaevel Church (Ithaca, New York, 1953), 94; Baynes, 77.

راجع أيضا ، ايريس حبيب المصرى : قصة الكنيسة القبطية جـ١ ص ١٤٤ .

إلى حركة انفصالية خطيرة فى المذهب . (١) وصفوة القول انه نتيجة لهذا المجمع الثانى بذرت بذور العداء والبغضاء بين كراسى روما والقسطنطينية والاسكندرية، ونشأ بينها عامل الغيرة الذى تفاقم مع الزمن ، وكان سبباً من أسباب ظهور البدع الدينية فى القرون التالية من ناحية ، وفى ازدياد حـــدة الصراع بين الاسكندرية والقسطنطينية من ناحية أخرى ، وهو الصراع الذى كانت أسبابه سياسية فى المرتبة الأولى وان اتخذ من الخلافات المذهبية ستاراً له.

كذلك كان للاسكندرية دور كبير فى المجمع المسكونى الثالث المعروف باسم مجمع أفسس الذى عقد عام ٤٣١م بدعوة من الامبراطور ثيودوسيوس الثانى (٤٠٨ - ٤٥٠ م) وحضره مائتى أسقف برئاسة بطريرك الاسكندرية كيرلس الأول (٤٣٠ - ٤٦٣ م)، وذلك للنظر فى بدعة أخرى مصدرها القسطنطينية هذه المرة . وقد خرج بها شخص يدعى نسطور الذى كان أسقفاً للقسطنطينية ، إذ قال بأن الجزء الإلهى من المسيح لم يولد من مريم العذراء ،وبذا تصبح العذراء أما للمسيح الانسان فحسب . ولم تلق هذه الحركة تأييداً واستحساناً لأنها أدت إلى مهاجمة مريم العذراء ، كما أنها كانت تهدد بفقدان لقبها وهو أم الإله . وفى هذا المجمع اتحد ضد نسطور بطريرك الاسكندرية وأسقف روما ورجال الدين فى القسطنطينية لأنهم رأوا أن فى هذا القول مخالفة صريحة لأصول الدين المسيحى.] وبذلك اعتبرت هذه الحركة هرطقة والحاداً ، وأصبح كل من يجاهر بمبادىء المذهب النسطورى معرضاً للاضطهاد والتعذيب (٢) . وقد حقق كيرلس بطريرك الاسكندرية فى هذا المجمع نصراً حاسماً كلاهوتى وكواحد من كبار

---

(١) Chadwick, 185 - 191; Baynes, 79.

(٢) Moreau. 50 - 51; Chadwick, 194 - 200; Atiya, 46 – 49; Diehl, 10 – 11.

رجالات الكنيسة السياسيين . لقد انتصر على بطريرك عاصمة الدولة البيزنطية نفسها وعلى الحكومة الامبراطورية هى الأخرى . ورغم هذا من قدره ومكانته ، وانتعشت بطريركية الاسكندرية التى بلغت ذروة قوتها ونفوذها فى عهد كيرلس الذى آلت اليه زعامة الكنائس المسيحية فى الشرق . وبلغ الأمر أنه أصبح يتدخل فى المسائل الدنيوية ويفرض نفوذه على الموظفين الامبراطوريين المحليين المعينين من قبل بيزنطة فى مصر (١) .

ان الفاحص المدقق فى الملامح الرئيسية للمجامع الثلاثة سالفة الذكر ، يدرك حقيقة واضحة هى أن الاسكندرية كانت تسيطر عليها من الناحيتين الروحية والعقلية على الرغم من قرارات المجمع الثانى . ونظراً لأنها كانت مقراً للمدرسة اللاهوتية ، فضلا عن كونها المركز الرئيسى للمجادلات اللاهوتية ، فقد أكدت المدينة لفترة طويلة أنها منبع المعرفة المسيحية والتضلع فى العلوم اللاهوتية ، وبالتالى جدارة زعامتها العالم المسيحى . وقد أكسب هذا الوضع بطاركة الاسكندرية سلطة ونفوذاً كبيرين داخل مصر بخاصة وخارجها فى العالم المسيحى المعروف وقتذاك بصفة عامة . وغدا بطاركة الاسكندرية هم «فراعنة الكنيسة» ، الأمر الذى خشى منه كل من أسقف روما وبطريرك القسطنطينية ، مما ترك بصماته على قرارات المجمع المسكونى الرابع (٢) .

وقد تبدو مثل هذه المجادلات والمناقشات التى عقدت من أجلها المجامع المسكونية ، والتى أدات فيها الاسكندرية بدلوها ، فى وقتنا هذا نوعاً من الترهات التى لا تشفى من غل وأن البحث فيها وقت مضيع . إلا أنها فى الواقع

---

(١) Ostrogorsky, G., A History of the Byzantine State, trans. by J. Hussey (Oxford, 1956), 54.

(٢) Atiya, 56.

كانت فى عهدها من المسائل الخطيرة التى شغلت عقل الانسان ومست مشاعره واحاسيسه مساً عميقاً مباشراً . ومن أمثال المعضلات التى لم تحل ولم يتفق عليها الرأى العام فى منتصف القرن الخامس ، والتى كان للاسكندرية أيضاً دور رئيسى فيها ، مسألة الطبيعتين والمشيئتين والطبيعة الواحدة والمشيئة الواحدة للمسيح . وهى مسألة من أخطر المسائل التاريخية التى عرضت على بساط البحث فى المجمع المسكونى الرابع المعروف باسم مجمع خلقيدونية . ولقد انعقد هذا المجمع بدعوه من الامبراطور مارشيان Marcian (٤٥٠ - ٤٥٧م) عام ٤٥١م للبحث فى هذه المسألة . وأخذ الحزب الأوروبى فيها بالقول الأول على أساس أن للمسيح طبيعة ومشيئة إلهية لانه استمد ذلك من روح الله الذى نفخه فى العذراء ، وان له إلى جانب ذلك طبيعة ومشيئة أخرى كاحدى لزومياته البشرية باعتباره إنساناً . ولكن حزب الاسكندرية رفض هذا الزعم رفضاً باتاً ، وبقى محافظاً على مبدأ الطبيعة والمشيئة الواحدة بالرغم من انحياز أغلبية المجمع للرأى الآخر (١) . وهكذا اتحدت كل من روما والقسطنطينية فى المجمع المذكور للقضاء على ادعاءات الاسكندرية . وقد أنهى هذا التضامن خطر سيادة الاسكندرية فى المسائل الكنسية ، ولكنه خلف وراءه سلسلة لا تنتهى من المتاعب والمشاكل (٢) .

ولأول مرة فى تاريخ هذه المجامع تتخذ النزاعات السياسية مكاناً واضحاً لها

---

(١) Cf. Moreau, 51–52; Chadwick, 200—205; Bury, I, 356–358; Atiya, 57.

أنظر أيضاً ، سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ٤٦ ؛ سليمان نسيم : تاريخ التربية القبطية ص ١١١ ، موس : ميلاد العصور الوسطى ص ٧٢ .

(٢) Baynes & Moss, 5.

وراء الجدل الديني ، فالاغريق أرادوا بتحكمهم في تلك القضية إعلاء شأن القسطنطينية على الاسكندرية في ابدين نضمان سلطانهم السياسي أيضاً على بقية الكراسي البطريركية ومختلف الشعوب (١) . وازاء هذا الموقف اشتد عناد الاسكندريين ،فقرر المجمع عزل بطريرك الاسكندرية ديسقورس Dioscorus (٤٦٣ - ٤٧٩ م) مع نفيه من مصر والكنيسة وتعيين اغريقي أو ملكاني يدعى بروتريوس Proterius . وكانت المدينة تغلي غليانا لهذه التطورات حتى لقد استلزم الأمر تدخل الجيش للقضاء على الاضطرابات والعمل على توطيد أقدام البطريرك الجديد الذي لم يعترف به أقباط مصر الوطنيون . ومن هنا نشأ النزاع العنيف في مصر بين الملكانيين الاغريق والمصريين المونوفيزيين . واصبح المونوفيزيون أصحاب الطبيعة الواحدة محلا للتعذيب والاضطهاد الديني .وزادهم هذا الاضطهاد عناداً وتمسكا بمبادئهم الدينية وأهداب استقلالهم ووطنيتهم . وكانت تساند البطريرك الملكاني في الاسكندرية قوات امبراطورية ، بينما تقف وراء البطريرك القبطي أفراد الشعب وأعداد غفيرة من الرهبان .

---

(١) ويزيد بيوري الأمر وضوحاً فيقول إن مجمع خلقيدونية من الناحية السياسية يعتبر نصراً حاسماً للقسطنطينية وضربة نهائية لادعاءات كرسي الاسكندرية . أنظر ، Bury, I, 358. أما وليم ورل فيقول أن الاسكندرية التي ظلت متسيدة طوال المجامع الثلاثة السابقة ، فقدت اعتباراً من مجمع خلقيدونية زعامتها ومركزها القيادي الذين كانت تتمتع بها من قبل . أنظر ، Worrell, 18. راجع أيضاً ،، Ostrogorsky,55 هذا ، ولكتاب ورل ترجمة عربية تحت اسم ورل (و) : موجز تاريخ القبط ، قام بمراجعة الترجمة من الانجليزية الدكتور مراد كامل ، والترجمة منشورة في رسالة مار مينا الخامسة (الاسكندرية ١٩٥٤) ص ١١٧ - ١٩٢ ، أنظر ص ١٤٧ من الترجمة العربية .

هكذا لم يرضخ المصريون لتعاليم خلقيدونية ، وظلت القسطنطينية متمسكة بحقها الأعلى على كنيسة الاسكندرية.ورفض الاغريق التسامح فى نزعة الاستقلال المصرية ، بينما استقتل أبناء مصر فى الدفاع عن كنيستهم الوطنية التى أصبح استقلالها مسألة حيوية بالنسبة اليهم . ومنذ ذلك الحين انشطرت وحدة الكرسى الاسكندرى شطرين ، الوطنيون ولهم بطريرك يعضدونه ضد سلطان والى الاسكندرية وبطريركها الملكانى . وكان الوطنيون هم الأقباط المونوفيزيون الذين يمثلون الأغلبية ، بينما كانت الأقلية من الاغريق الملكانيين ، وقد ظل الأقباط يناضلون فى سبيل هذا النوع من الاستقلال طوال الحكم البيزنطى . وغدت الاسكندرية مسرحاً للفوضى والاضطرابات خلال السنوات التى أعقبت مجمع خلقيدونية بسبب الصراع بين البطريركين المتنافسين (١) . واستمر الحال على هذا المنوال من سنة ٤٥١م إلى سنة ٦٤٢م حيث مارست السلطات البيزنطية

---

(١) Lane-Poole, St., A History of Egypt in the Middle Ages (London, 1933); 2; Bury I, 358. 402; Worrell, 18; Atiya, 69-70

أنظر أيضاً . بتشر : تاريخ الأمة القبطية جـ ٣ (القاهرة ١٩٠١) ص٥٧ وما يليها. هذا ، وكلمة الملكانيين مشتقة من لفظة Malko ومعناها « ملك » ، والمقصود رجال الملك الذين يؤمنون بمذهب الطبيعتين والمشيئتين للمسيح الذى أخذ به مجمع خلقيدونية . أنظر ، Baldwin, 94. وفيما يتعلق بعقائد الملكانيين واليعاقبة، أنظر مخطوط رقم ١١ سيناء - عربى ، وعنوانه «النبوات» ورقة ١٥٠ أو مايليها ، وتوجد له نسخة بالميكروفيلم بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية . وللمزيد من البيانات عنه ، أنظر ، عزيز سوريال عطية : الفهارس التحليلية لمخطوطات طور سينا العربية جـ١ ص ٤٠ .

الضغط على أقباط مصر بشتى السبل والوسائل (١). وكانت محاولات بيزنطة المتكررة رأب الصدع بين كنيستي الاسكندرية والقسطنطينية، وبخاصة في عهد كل من جستنيان (٥٢٧ - ٥٦٥م) وهرقل (٦١٠ - ٦٤١م)، مقضياً عليها بالفشل. وازدادت مع الزمن حدة الخلاف والبغضاء بينهما. ويكفي أنه عندما قام أباطرة بيت هرقل بمحاولاتهم التوفيقية كان قد فات الوقت وأفلت الزمام، فانفصلت الكنائس المونوفيزية، ومن بينها كنيسة الاسكندرية عن بيزنطة تماماً ودخل غالبية اتباعها في دولة الاسلام (٢).

---

(١) Cf. Glanville, 327 - 328.

(٢) حول العداء بين الاسكندرية والقسطنطينية، أنظر موس: ميلاد العصور الوسطى ص ٧٠ ومايليها. والمعروف أن السياسة العامة للاباطرة البيزنطيين كانت ضد المونوفيزية مع التشبث بتعاليم خلقيدونية، وأن وجد بعض التساهل في عهود عدد من الأباطرة الذين حاولوا التوفيق بين المذاهب المسيحية والقضاء على النزعة الانفصالية. من ذلك أن المونوفيزيين في مصر لاقوا تأييداً وتشجيعاً في عهد الامبراطورة تيودورا زوجة جستنيان لأنها كانت مونوفيزية الرأي. كما أصدر جستنيان تحت ضغط زوجته تشريعاً أرضى به المونوفيزيين دون مخالفة تعاليم خلقيدونية. ولكن بعد موت زوجته سرعان ماعاد إلى سياسة اسلافه في اضطهاد المونوفيزيين. وعندما تولى هرقل عرش الامبراطورية حاول كسب صداقة المونوفيزيين بتوفيق لاهوتي في المبادىء الدينية عرف باسم المونوثليتية، وتبع الفكرة القائلة بأن للمسيح نشاط واحد فقط، وعرف مذهبه باسم مذهب التوفيق، ولم يوافق عليه المونوفيزيون ولم يعترفوا به مما أدى إلى ازدياد هوة الخلاف بين مصر وبيزنطه. أنظر، Atiya, 71 — 78; Runciman, 40; Chadwick, 205 - 211.

الظاهرة السادسة : الاسكندرية وعالما التبشير والرهبنة .

يلاحظ أنه كلما اشتد الضغط على المصريين من قبل السلطات البيزنطية وولاتها على مصر من الناحيتين الدينية والسياسية ، كلما اشتد عنادهم وتمسكهم بأهداب مبادئهم . ولكن ذلك الضغط الذى مارسته بيزنطه ضد أقباط مصر لم يصرفهم عن نشاطهم الدينى الذى ظهر واضحا فى اتجاهين : الأول فى عالم التبشير بالديانة الجديدة خارج الاسكندرية وخارج الحدود المصرية ، والثانى هو عالم الرهبنة فى ضواحى الثغر الاسكندرى .

وفيما يتعلق بالمجال الأول ، فقد كان للاسكندرية دور بارز فى ميدان التبشير . وقد ساعدت على ذلك عدة ظروف ، منها أن الاسكندرية كانت منذ عصر البطالسة مفرق الطرق إلى العالم القديم . وكمركز تجارى كان يفد اليها التجار من كل مكان ، كما التحق بمدرستها اللاهوتية الطلاب الذين كانوا ينتمون إلى مختلف المجتمعات المسيحية . وهكذا كان أهلها على معرفة بأناس من كل الأجناس ، ووجد أبناؤها الأبواب مفتوحة أمامهم ، فسهل هذا مهمتهم إلى حد بعيد (١) . هكذا ساعدت الظروف كنيسة الاسكندرية على نشر المسيحية على مذهبها

= هذا ، وللمزيد من المعلومات عن محاولات التوفيق ، أنظر ، بتلر : فتح العرب لمصر ص ١٥٨ وما يليها و ص ١٨٢ . ويقول هنرى شادويك (نفس المرجع ص ٢١١) أن المسيحيين فى مصر والشام رحبوا بالعرب ونظروا اليهم كمخلصين لهم من تعاليم خلقيدونية .

(١) Atiya, 49.

أنظر ، بتلر : فتح العرب لمصر ص ١٥٨ وما يليها وص ١٧٢ .

المونوفيزى فى النوبة (١) وفى أثيوبيا (٢) على يد قس قبطى من الاسكندرية اسمه فرومنتيوس Frumentius ، وكان ذلك حوالى منتصف القرن الرابع الميلادى أيام البطريرك أثناسيوس الذى أسلفنا الاشارة اليه والدور الذى قام به فى شبابه فى مجمع نيقية المسكونى . وفى القرن السادس بتشجيع من تيـــودورا زوجة الامبراطور جستنيان أرسلت كنيسة الاسكندرية بعثة تبشيرية أخرى إلى أثيوبيا. وتأسست الكنيسة الاثيوبية كفرع من كنيسة الاسكندرية الأم (٣) .

---

(١) للمزيد من المعلومات عن التبشير بالمسيحية فى النوبة فى فجر المسيحية، أنظر زاهر رياض : كنيسة الاسكندرية فى افريقيا (القاهرة ١٩٦٢) ص١٦٠ ومايليها . راجع أيضاً كتاب ، Atiya, 50.

(٢) زاهر رياض : كنيسة الاسكندرية فى افريقيا ص ٧٩ ومايليها ، راجع أيضاً ، Atyia, 51, 52; Stanley, 62, 231 – 232; Neill, 52-53

وجدير بالذكر أنه بعد أن بشر فرومنتيوس بالمسيحية فى أثيوبيا عاد إلى الاسكندريه أيام بطريركية أثناسيوس طالباً المزيد من العون لتدعيم الدين الجديد هناك . ويحتمل أن المقابلة بينه وبين البطريرك تمت فى وقت ما فيما بين عامى ٣٤١ و ٣٤٦ م . وكان رد أثناسيوس عليه أنه ليس هناك من هو أفضل منه القيام بهذه المهمة . ورسمه أسقفا على أثيوبيا . وعاد فرومنتيوس إلى أثيوبيا حيث خدم فيها حتى وفاته باعتباره رئيس الكنيسة الأثيوبية كفرع من الكنيسة الأم فى الاسكندرية . أنظر ، مراد كامل: القبط فى ركب الحضارة العالمية ص١٥ ، مراد كامل : الرهبنة، فى الحبشة ـ مقال فى رسالة مار مينا عن الرهبنة القبطية (الاسكندرية ١٩٤٨) ص ٢٩ ومايليها . أنظر أيضاً ، Neill, 53.

(٣) Glanville, 328 وحول الأسباب التى دفعت تيودورا إلى التعاطف مع المونوفيزيين فى مصر ، أنظر ، ديل شارل) تيودورا الممثلة المتوجه ـ ترجمة حبيب جاماتى (القاهرة ـ بدون تاريخ) ص ٢٣ - ٣٤ .

كذلك امتد نشاط كنيسة الاسكندرية إلى الهنـــد . فبكراً فى القرن الثانى اختار البطريرك ديمتريوس الأول بنتاينوس الشهير (حوالى ١٩٠ م) الذى كان رئيساً لمدرسة الاسكندرية اللاهوتية ، للتبشير بالدين الجديد هناك . وفى القرن السادس قام شخص من الاسكندرية يدعى كوزماس انديكوبلويزتس Cosmas Indicopleustes الذى أصبح راهباً فيما بعد ، بمغامرة أخرى إلى بلاد الهند ، وقد ترك بياناً برحلاته وأسفاره (١) .

هذا عن الاتجاه الأول ، أما الاتجاه الثانى فقد جاء فى عالم الرهبنة، والمعروف أن الرهبنة بأشكالها المتعددة لعبت دوراً قيادياً فى تاريخ الكنيسة المسيحية اعتباراً من القرن الثالث فصاعداً .وكانت الصوامع والقلالى هى مراكز الثقافة فى العصور المظلمة . فنهـــا خرجت بعثات التبشير بالمسيحية ، وعلى يد نزلائهـا تطورت الحياة الروحية التصوفيه التى تركت أعمق الأثر على العقيدة . ومنبع هذه الحركة مكان واحد هو مصر (٢)

---

(١) Atiya, 52—53; Neale, 40. أنظر أيضـاً ، مراد كامل : القبط فى ركب الحضارة العالمية ص ١٦ ؛ بتشر : تاريخ الأمة القبطية ج ١ ص ٥٧ - ٥٨ ويعرف كوزماس بالبحار الهندى وقد قام برحلته الهامة عن طريق البحر الأحمر إلى المحيط الهندى ماراً بأثيوبيا وافريقية الشرقية وزنجبار حتى وصل إلى الهنـد وجزيرة سيلان . ولكن بعد هذه الرحلة انزوى عن العالم واعتنق الرهبنة فى دير سيناء حيث كرس وقته لتسجيل ملاحظاته الطبوغرافية عن العـالم المسيحى . أنظر ، بتلر : فتح العرب لمصر ص ٩١ و ح ٢ .

(٢) Glanville, 317

وقد نشأ فى الاسكندرية نظام الرهبنة كان مأخوذاً من نظام انطونيوس(١) (حوالى ٢٥١ — ٢٥٦م) القائم على الحياة التوحــدية الرهبان ، ونظام باخوميوس (حوالى ٢٩٠ — ٣٤٦م) القائم على الحياة الاجتماعية للرهبان داخل حيطان دير واحد يخضع فيه الرهبان إلى قوانين معينة بعد أن يتركوا الحياة الدنيا وبعـــد أن يتخلصوا من مالهم وثرائهم ليعيشوا جماعات شعارها التبتل والطهارة والطاعة مع التضحية ونكران الذات زيادة فى التقـــرب إلى الله (٢) . وقـــد تعددت مؤسسات هذا النظام فى ضواحى الاسكندرية وبخاصة فى جبل نتريا Nitria والقلالى Cellia وبرية شيهات Shiet بوادى النطرون ، وفى صحراء مريوط Mareotis أيضاً (٣) .

وتعتبر منطقة وادى النطرون - فى الحقيقة - من أهم المناطق التى تركزت فيها جماعات الرهبان السكندريين فى الصحراء الغربية (٤) . إذ ذهب اليها المتوحدون

---

(١) حول تأثير القديس انطونيوس على الرهبنة فى الاسكندرية أيام البطريرك أثناسيوس أنظر ، Moreau, 60 ; Stanley , 232 – 233

(٢) Atiya, 59 ff., 62 ff.

(٣) موس : ميلاد العصور الوسطى ص ٧٣ ؛ السيد الباز العرينى : مصر البيزنطيه ص ٢٠٠ ؛ صابر جبره : نصيب القبط فى تقدم العلوم — مقالة فى رسالة مار مينا الخامسه (الاسكندريه ١٩٤٥) ص ٩٩ .

(٤) يعتبر كتاب ايفلين هوايت عن أديرة وادى النطرون من أفضل ما كتب فى هذا الموضوع . أنظر ، H.C. Evelyn – White, The Monasteries of Wadi'n Natrun, 2 vols., New York, 1926—33.

راجع أيضاً . عمر طوسون : وادى النطرون ورهبانه وأديرته ومختصر تاريخ البطاركه — الاسكندرية ١٣٥٤ هـ — ١٩٣٥ م .

مبكراً منذ القرنين الثانى والثالث. وكانت هذه المنطقة تنقسم إلى المراكز الرهبانية الثلاثة التى أسلفنا اليها : أولها جبل نتريا وثانيها مستعمرة القلالى وثالثها برية شيهات على التوالى من الشمال إلى الجنوب منحرفة صوب الشرق قليلا . ويرجع تأسيس المركز الأول إلى آمون (حوالى ٢٧ — ٣٣٧ م) الذى نزح إلى تلك المنطقة حوالى عام ٣٢٥ م ، أى فى نفس الوقت الذى ظهر فيه نظام انطونيوس تقريباً ، وذلك بعد أن عاش ١٧ سنة فى منزل الزوجية بالاسكندرية . وقصة زواجه قسراً واقناعه زوجه أن تحيا معه حياة التبتل والعبادة سراً طوال هذه الفترة مشهورة . وكان آمون هذا شديد التدين والتقوى . ويقال ان زوجته هى التى حثته على الانضمام إلى جماعات النساك المقيمين هناك ، مما يدل على أنه كان يوجد فى هذه المنطقة بالفعل رهبان قبل ذلك التاريخ .

هذا عن المركز الأول ، أما المركز الثانى فقد نشأ حول أبى مقار الكبير الذى ولد بالاسكندريه فى فجر القرن الرابع . ثم مال إلى النسك ، فأخذ يتوغل فى صحراء مريوط إلى أن استقر فى جهة القلالى . وعرفت بهذا الاسم لأن اتباعه تكاثروا حواليه ، وبنى كل منهم لنفسه قلايته فى جواره ليتتلمذوا عليه . ولما اكتظت القلالى بالرهبان من حواليه ، هجرها إلى المركز الثالث وهو شيهات أو الاسقيط ، وتبعه إلى هناك عدد محدود من تلاميذه ومريديه . وكانت الحياة فى تلك المنطقه كما يصفها الرحالة والحجاج اجتماعيه استقلاليه تذكرنا بالمؤسسات الباخوميه (١) .

---

(١) عزيز سوريا عطيه : نشأة الرهبنه المسيحيه فى مصر وقوانين القديس باخوميوس — مستخرج من رسالة مار مينا عن الرهبنه القبطيه (الاسكندريه ١٩٤٨) ص ١٣ — ١٤ ، موريس مكرم : الاديرة الغربيه — مقال فى رسالة =

وتعتبر مجموعة أديرة أنبا بيشوى التى ترجع إلى القرن الرابع من أهم أديرة وادى النطرون ، ومن بينها دير أنبا مقار ودير السريان ودير براموس ودير أنبا بيشوى (١) . ومما يذكر أن هذه المجموعة قامت نتيجة للبدع التى تناولت لقب مريم العذراء بعد النسطورية كشاهد تمسك رهبانها بالايمان الارثوذكسى، حتى أنه شيدت كنيسة ألحقت بكل دير من هذه الأديرة عرفت باسم كنيسة العذراء (٢) . وكان هناك عشرات الأديرة والقلايات المتناثرة فى الوادى التى يرجع انشاؤها إلى العصر المسيحى . وقد اندثر كثير منها ، ولا يزال بعضها ماثلا إلى اليوم (٣) . وتحتاج هذه المنطقة إلى تنقيب وحفريات أثرية واسعة فى بقايا هذه الأديرة والقلايات وما حوالها الأمر الذى قد يلقى المزيد من الضوء

= مار مينا عن الرهبنة القبطية (الاسكندرية ١٩٤٨) ص ٥٥ ومايليها، يشرة: تاريخ الأمة القبطية جـ ١ ص ١٥٤ ومايليها وص ٢٨٣ ، عمر طوسون : وادى النطرون ورهبانه وأديرته ص ٢٣ ومايليها . راجع أيضاً

Atiya, '61;Glanville, 322; Cheneau, I, 117, II, 381 .

هذا ، ويعرف دير ابو مقار أيضاً باسم دير الأنبا مكاريوس ، وهو يقع إلى الجنوب الشرقى من ديرى السريان وأنبا بيشوى على مقربة من دير براموس . أنظر ، زكى شنودة : تاريخ الأقباط جـ ١ ص ٢٢٦ .

(١) حول تاريخ هذه الاديرة فى العصر المسيحى ، أنظر عمر طوسون : وادى النطرون ورهبانه وأديرته ص ٥٠ ومايليها .

(٢) منير شكرى : أديرة وادى النطرون ، فى رسالة مار مينا السادسة (الاسكندرية ١٩٦٢) ص ١٠ ومايليها ، زكى شنودة : تاريخ الاقباط جـ١ ص ٢٠٧ و ٢٢٤ ومايليها ، موريس مكرم : الاديرة الغربية ص ٥٧ ومايليها . أنظر أيضاً كتاب شادويك : Chadwick, 184 — 186.

(٣) لا يزال كثير من هذه الاديرة باقيا إلى اليوم يحمل نفس الاسماء القديمة. =

على تاريخ الرهبنة فى الاسكندرية فى العصر المسيحى ( ) .

لقد امتدت شهرة الرهبنة المصرية بصفة عامة ورهبنة الاسكندرية بصفة خاصة خارج الحدود المصرية لتصل إلى مختلف أنحاء العالم المسيحى فى الشرق والغرب . وكانت مصر لفترة طويلة تعتبر بمثابة « الأرض المقدسة » حيث كان الزوار والحجاج يقدرون اليها لمشاهدة تلك الجموع الغفيرة من النساك الذين تركوا وراءهم كل متاع الدنيا رغبة فى التقرب إلى الله والتأمل فى ذاته العلية . لقد كان المسيحيون من كل مكان يحجون اليهم لرؤيتهم والعيش بينهم والاستماع اليهم . ومن بين هؤلاء الكثير من آباء الكنيسة ومن الشخصيات البارزة فى عصرها . ومنهم القديس بازيل الكبير St. Basil (حوالى ٣٣٠ — ٣٧٩م) مؤسس الرهبنة الاغريقية . وكذلك هيلاريون Hilarion الذى أدخل الرهبنة إلى فلسطين ، والمؤرخ الكنسى روفينوس الأكويلى Rûfinus of Apuileia (حوالى ٣٤٥ — ٤١٠ م) ومعه أرملة رومانية ثرية تدعى ميلانيا Melania ، وقد أمضيا ستة أشهر فى مصر من عام ٣٧٣ م . والمعروف أن روفينوس زار جبل نتريا الذى كان يعرف فى العصر المسيحى باسم جبل البرنوج Mount Fernuj ، وقد ترك وصفاً ممتعاً لما لقيه من نساك الجبل من مظاهر الحفاوة والتكريم (٢) . وفى سنة ٣٨٦ م زار القديس جيروم (٣) St Jerome (حوالى ٣٤٧ —

= وقد أشار المؤرخ تقى الدين المقريزى فى القرن الخامس عشر إلى بعضها ، ومن بينها دير أبى مقار ودير براموس ودير أنبا بيشوى . وأوضح المقريزى أن وادى النطرون كان يعرف أيضاً باسم وادى هبيب . أنظر ، خطط المقريزى . جـ ٢ ص ٥٠٧ — ٥٠٨ .

(١) منير شكرى : أديرة وادى النطرون ص ١٣ — ١٤ .

(٢) منير شكرى : أديرة وادى النطرون ص ٢١ — ٢٢ . وموقع جبل البرنوج هو نفس المكان المسمى الآن البرنوجى ، وهى قرية تقرب حوش عيسى .

(٣) حول القديس جيروم ، أنظر المرجع الاجنبية التالى بيانها : =

٤١٩ م) وأرملة ثرية تدعى باولا Paula أديرة مصر، وترك لنا جيروم وصفاً لهذه الزيارة . أما بلاديوس Palladius أسقف هلينوبوليس، فقد أمضى الفترة من ٣٨٨ إلى ٣٩٩ م ومن ٤٠٦ إلى ٤١٢ م بين رهبان مصر . وكانت الفترة الاولى بين رهبان طيبة ، أما الثانية فكانت فى جبل نتريا لولا أنه وجد أن نظامهم أقسى من أن تحتمله صحته الضعيفة وسنه المتقدمة.وقد ترك وصفاً زياراته والنساك الذين التقى بهم فى كتابه المسمى « التاريخ اللوزياكى » Hisscria Lausiaca أو « بستان الآباء » (١) . ومن كتاباته نعرف أن المؤسس الحقيقى للرهبنة فى منطقة جبل نتريا هو آمون الذى أسلفنا الاشارة اليه . كما أوضح أنه وجد هناك خمسة آلاف راهب يعيشون مع بعضهم فى جماعات صغيرة ، غير ستمائة ناسك كانوا يعيشون فرادى فى جوف الصحراء . ويبدو أن بلاديوس توجه إلى الاديرة التى كان يوجد بها رهبان يتكلمون اليونانية لعدم معرفته اللغة القبطية .

وأما جون كاسيان الفرنسى John Cassian (حوالى ٣٦٠ — ٤٢٥ م) ، وهو من مواطنى جنوب غالة ، فقد زار مصر فيما بين عامى ٣٩٠ و ٤٠٠ م ، ولكنه لم يذهب إلى أبعد من طيبة . والمعروف أنه التقى برهبان وادى النطرون فى أواخر القرن الرابع ، وأقام بينهم واستمع اليهم . وقد ألف كتابين ضمنها مشاهداته . وصدر الكتابان فى أوائل القرن الخامس ، وبالتحديد فيما بين عامى ٤٢٠ و ٤٣٠ م ،وتناول فيهما حياة وعادات رهبان مصر وقوانينهم ونظمهم ، وكان لكتاباته أثرها فى انتقال الرهبنة إلى الغرب (٢) .

Coulton, G. G., Medieval Panorama (New York, 1955), 9, — 11 ; Burgh, I, 310 - 311 ; Hillgarth, 64.

(١) وحول « بستان الآباء » ، أنظر مقالى «بستان الرهبان : عرض وتحليل النسخه الخطية العربية غير المنشورة المحفوظة بمكتبة دير سيناء »ص ٨١ومايليها.

(٢) Glanville, 323 — 324 ; Atiya, 53,65 — 66.

هكذا اجتذبت الرهبنة المصرية بوجه عام ورهبنة الاسكندرية بخاصة ، الكتاب والمفكرين والآباء والقديسين من الغرب ومن كل مكان ليشاهدوا عن قرب أولئك النساك الذين تركوا العالم ليعتزلوا فوق قمم الجبال وفي جوف الصحاري . وكان لتآلفهم أكبر الأثر في انتشار الرهبنة في الاراضي المقدسة والدولة البيزنطية والغرب الاوروبي (١) . وان دل هذا على شيء فانما يدل على ازدهار الحركة الرهبانية في الاسكندرية ، حتى أن سمعتها امتدت خارج المدينة بل خارج مصر كلها لتصل إلى شتى بقاع العالم المسيحي المعروف وقتذاك (٢) .

وجدير بالذكر أن رهبنة وادي النطرون (٣) لم تكن بمعزل عن الاحداث

= وللمزيد من المعلومات عن هؤلاء الزوار الاجانب ، أنظر : منير شكري : آباء البرية — ما كتب عنهم وما لهم من أثر عالمي — مقال في رسالة مار مينا عن الرهبنة القبطية (الإسكندرية ١٩٤٨) ص ١٤ وما يليها ، منير شكري : أديرة وادي النطرون ص ١٧ و ٢١ وما يليها ، عزيز سوريال عطية : نشأة الرهبنة المسيحية في مصر ص ١٣ .

(١) Atiya, 65.

(٢) منير شكري : أديرة وادي النطرون ص ٤١ .

(٣) للمزيد من المعلومات عن أديرة وادي النطرون في العصر المسيحي ، وأهم المناطق التي أقيمت فيها ، ونظام الحياة فيها ، وأشهر الآباء الذين وردت الاشارة إليهم في مؤلفات العصر وسيرهم وأعمالهم ، وموقف رهبانها من مختلف البدع والهرطقات التي ظهرت في القرون المبكرة من المسيحية ، وما إلى ذلك من المعلومات المتعلقة بالرهبنة والديرية وأنظمتها وقوانينها في هذه المنطقة ، والإضطهادات التي لحقت رهبانها على أيدي الاباطرة البيزنطيين وولاتهم في مصر ، أنظر ، منير شكري : أديرة وادي النطرون ، ص ٢٣ - ١٧٨ . ولكن =

التى مرت بها البلاد ، كما تسبب رهبانها فى وقوع كثير من المشاكل . ففى أيام القديس أثناسيوس كان رهبان الوادى هم الموالين له ضد اريوس وبدعته . وكان رهبان جبل نتريا فى هذا الصراع وما تلاه من منازعات يميلون إلى استخدام العنف واثارة الشغب . ولا شك ان السلطات المدنية ممثلة فى ولاة بيزنطة وجدتهم فى بعض الأحيان مصدراً للقلاقل والاضطرابات التى عانت منها البلاد . من قبيل ذلك أن الامبراطور ثيودوسيوس الكبير كان قد أصدر أمراً بالاكتفاء باغلاق المعابد الوثنية فى المدينة دون تدميرها . ولكن مجموعات من رهبان هذا الوادى قادت الغوغاء لهدم تلك المعابد وتحطيم التماثيل بداخلها . وبعد ذلك وقع الانقسام الكبير فى الكنيسة المسيحية نتيجة لتعاليم مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١ م . وقد وافقت الكنيسة البيزنطية على قرارات هذا المجمع ، بينما وقفت منهـا كنيسة الأسكندرية موقف المعارضة الصريحة . وهكذا بدأ صراع مرير بين الكنيسة البيزنطية مزودة بكل أسلحة البطش والارهاب وبين كنيسة الاسكندرية . وأبعد بطاركة الاسكندرية من مناصبهم وحـل محلهم بطاركة اغريق أو ملكانيين يدينون بالطاعة لبيزنطة . ولكن أقباط مصر لم يعترفوا بهؤلاء واعتقلوا بعضهم . واستمرت حالة الفوضى هذه من سنة ٤٥١ حتى سنة ٦٤٢ م حيث رحب المصريون بالعرب المسلمين وفتحوا لهم أبوابهم كمخلصين لهم من الاضطهاد الاغريقى (١).

= يؤخذ على الدكتور منير شكرى ، على الرغم مما تضمنه كتابه من معلومات قيمة ، عدم اتباعه المنهج التاريخى السليم بالنسبة لسرد الوقائع والاحداث وتسلسلها وترابطها ربطاً سليما محكماً يجعل القارىء لا يشعر بوجود أى ثغرات أو فجوات فى الكتاب . وهذا أيضاً ما يمكن أن يقال عن كتاب « قصة الكنيسة القبطية » لمؤلفته ايريس حبيب المصرى .

(١) جاء فى خطط المقريزى (ج ٢ ص ٥٠٧) أنه بعد أن فتح عمرو بن =

وحدث أيضاً في سنة ٥٥١ م ان اشتد الضغط البيزنطى على أقباط مصر حتى أن بطريرك الاسكندرية وقتها ترك المدينة وأقام بين رهبـــان وادى النطرون . وسرعان ما أصبح الوادى مركزاً لكنيسة الاسكندرية الوطنية تدير منه شئون الكنيسة القبطية فى فترات الاضطهاد البيزنطى التى مرت بها . وهناك أيضاً كان يتم تدشين الاساقفة والمسح بالزيت المقدس المعروف بالميرون . فضلا عن أنه فى هذه المنطقة تبلورت طقوس الكنيسة القبطية وأخذت شكلها النهائى (١) .

= العاص مصر والاسكندرية خرج اليه من أديرة وادى النطرون سبعون ألف راهب بيد كل واحد منهم عكاز وسلموا عليه ، وكتب لهم كتاباً بقى عندهم يؤمنهم فيه على أنفسهم وحياتهم وأديرتهم . وقد يكون فى العدد الذى ذكره المقريزى بعض المبالغة ، إلا أنه يدل على كثرة عدد الرهبان الذين كانوا يقيمون فى الوادى . فضلا عن أن النص المذكور يلقى الضوء على سياسة التسامح الدينى التى تمتع بها رهبان الدير فى ظلام الاسلام . أنظر ، عمر طوسون : وادى النطرون ورهبانه وأديرته ص ٤٠ .

(١) Glanville, 327. وقد ساعد على ذلك سهولة الاتصال بين أديرة وادى النطرون وبخاصة منطقة جبل نتريا ، ومدينة الاسكندرية . فقد كان هناك طريق يربطها بالاسكندرية . وكان رهبان نتريا على اتصال مستمر بالمدينة التى كانوا يذهبون اليها بين وقت وآخر لبيع السلال التى كانوا يصنعونها بأيديهم . والمعروف أيضاً أنه أثناء المتاعب التى واجهها القديس أثناسيوس هرب ليعيش بين هؤلاء الرهبـــان ، وكان يدير شئون كنيسة الاسكندرية من هناك . وكان يعيش فى نتريا بعض الاغريق من مواطنى الاسكندرية الذين اختـــاروا حياة الرهبنة ، ويبدو أنهم كانـــوا بمعزل عن اخوانهم الرهبـــان القبط . أنظر ، Glanville. 323. ويحتمل أن يكون ذلك بسبب اختلاف المذهب ، فضلا عن جهلهم باللغة القبطية .

وإذا تركنا وادى النطرون بأديرته وانتقلنا إلى صحراء مريوط ، نجد أنها فى العصر المسيحى قد اكتظت هى الأخرى بالعديد من الأديرة الواسعة وعلى رأسها دير مار مينا حيث كانت تقوم مدينة كاملة حول مقبرته وديره وكنيسته التى بناها الامبراطور اركاديوس Arcadius (٣٩٥ — ٤٠٨ م) فى أواخر القرن الرابع ، وذلك بمناسبة شفاء ابنته عند زيارتها لمكان وجود جسد هذا القديس . ويقال ان كنيسة مار مينا كانت من أكبر الكنائس اتساعاً فى عصرها ، كما أنها فاقتها فى الأبهة وروعة الفن والبناء ، وقد درست معالمها (١) .

لقد كان سكان الاسكندرية يمجدون ذكرى الابرار الذين أنشأوا الأديرة فى صحارى مصر وأشاعوا فيها حياة الرهبنة . فقد أحاطت الأديرة وأماكن العبادة بالمدينة وملأت ضواحيها . وكان عدد الرهبان والمتعبدين والزهاد الذين هجروا العالم ليعيشوا فى الصحراء الغربية حيث الأديرة وصوامع العبادة التى لا عدد لها ، كبيراً إلى حد جعل العالم المسيحى يطلق على تلك الصحراء اسم « صحراء القديسين » (٢) .

الظاهرة السابعة : نظرة عامة إلى مدينة الاسكندرية فى العصر المسيحى فى ضوء الظواهر السابقة .

---

(١) وللمزيد من التفاصيل عن سيرة مار مينا وديره وكنيسته بمريوط ، أنظر ، مينا اسكندر : الشهيد المصرى مار مينا العجايبى ص٢١ وما يليها و٢٠٩ وما يليها ٢٥٢ وما يليها ، ايريس حبيب المصرى : قصة الكنيسة القبطية جـ ١ ص ١٣٨ وما يليها ، باهور لبيب : الآثار القبطية — مقال فى : سالة مار مينا الخامسة (الاسكندرية ١٩٥٤) ص ١٠٧ ، السيد الباز العرينى : مصر البيزنطية ص ٣٠٨ وما يليها .

(٢) أنظر ، ديل : تيودورا الممثلة المتوجة ص ٣٣ .

كانت الاسكندرية فى العصر المسيحى هى عاصمة مصر ، ومن أكبر مدن العالم ، ومن أهم مراكز التجارة الدولية وغناك . كانت ذات تجارة واسعة رابحة هيأها لها موقعها الممتاز ، يرحل تجارها إلى الصين والهند وسيلان لجلب الحرير والتوابل والأحجار الكريمة . كما كانت مستودعاً تصدر منه إلى مؤانى البحر المتوسط حنطة وادى النيل ومنتجات الشرق الأدنى . وفضلاعن ذلك، فقد كانت مدينة اللهو والبذخ والترف بفضل ما فيها من ثروات الضخمة والغانيات الجميلات (١) .

واشتهرت المدينة أيضاً بأنها احدى عواصم المسيحية ومعاقلها الكبرى التى تلتقى عندها الطرق الآتية من آسيا وافريقية ومن الشرق والغرب ، فحوت أناساً من أمم مختلفة وأجناس متعددة نتج من إحتكاك أفكارهم وأخلاقهم ودياناتهم وغلبانها إثراء فكرى كبير . فكانت بذلك المخ المفكر للعالم المسيحى وقتها . وكان فيها مدارس فلسفية وثنية ويهودية . كما انتجت فيها تعاليم القديس مرقس مدرسة أخرى أخذت تكبر وتنمو بمرور الزمن بمؤازرة بطاركة الاسكندرية حتى أصبحت مدرسة لاهوتية كبرى تعاقب على رئاستها فى القرون الأولى المسيحية عدد من العلماء المبرزين الذين سجل التاريخ أسماءهم ، حتى بدت الاسكندرية فى القرن الثالث العاصمة الفكرية ليس للعالم المسيحى فقط بل وللعالم الرومانى أيضاً (٢) .

وكان مجتمع المدينة بعد انتشار المسيحية فيها مجتمعاً مسيحياً كما رأينا . كان مجتمع القديسين والشهداء والبطارقة والمفكرين والفلاسفة اللاهوتيين ، كما كان مجتمع الزهاد والنساك والمتعبدين من معتنقى الدين الجديد . الا أنه أثناء ردة جوليان نشط اليهود وبقايا الوثنيين فى الاسكندرية بعض الوقت ، وبعد فشل

(١) ديل : تيودورا الممثلة المتوجه ص ٣٢ — ٣٣ .

(٢) منير شكرى : المسيحية وما تدين به للقبط ص ٦٢ .

محاولته انتهى عصر الاضطهادات وقل نشاط الوثنيين واليهود قلة محسوسة (١) .
وليست هناك بيانات احصائية دقيقة عن تعداد المدينة فى العصر المسيحى ، الا أنه لم يكن يقل عن ٦٠٠,٠٠٠ نسمة (٢) .والمعروف أن سكانها كانوا مصدراً للقلاقل ، كما سببوا لبيزنطة الكثير من المتاعب والمضايقات ، خاصة بعد مجمع خلقدونية اعتباراً من أواسط القرن الخامس .وعلى الرغم من عظمة القسطنطينية وثرائها وبهائها ، فقد ألقت الاسكندرية عليها بظلها ، ولم يقلل رفضها لتعاليم خلقيدونة من أهميتها السابقة التى احتفظت بها مثلما احتفظت بالكثير من خصائصها وسماتها القديمة . فقد كانت الاسكندرية فى القرن الخامس بسكانها الذى كان عددها يزيد عن النصف مليون ، مدينة محببة إلى النفس زاخرة بالحركة نابضة بالحياة مليئة بالعمل والنشاط . ولم يجد البيزنطيون مدينة فى امبراطوريتهم الواسعة كان من الصعب حكمها والسيطرة عليها مثل تلك المدينة التى تميز سكانها بسرعة الخاطر وسرعة الاندفاع فى نفس الوقت، كما اشتهروا بحدة الطبع والمزاج حتى أنهم كانوا يثورون لاقل الاسباب . وكانت شوارع المدينة مسرحاً للقلاقل التى كثيراً ما قامت بين الاهالى والجند البيزنطيين ، كما كانت مسرحاً لثورات الاهالى ضد ولاة بيزنطة .

وزودت المسيحية أهالى الاسكندرية بمسائل حيوية ترضى مزاجهم الحاد ، الامر الذى جعل المدينة تغلى غلياناً . لقد أمدتهم بجمل واصطلاحات وعبارات اتخذوا منها ذريعة للثورة والالتجاء إلى العنف . ولا شك أن طموح بطاركة الاسكندرية ومحاولاتهم المستمرة السمو بكرسيهم على بقية الكراسى المسيحية

(١) Stanley, 323. وحول تقلص نفوذ الجالية اليهودية فى الاسكندرية فى العصر المسيحى المبكر ، أنظر ، Glanville, 316:

(٢) Cf. Bury, I, 8 n. 3.

الاخرى فى الشرق والغرب ، كانا من بين العوامل التى أدت إلى وقوع كثير من الاضطرابات . لقد كان هدف بطاركة المدينة فى القرن الخامس بالذات، وبخاصة أيام ثيوفيلس وكيرلس الكبير ، هو العمل على أن يعلو نفوذهم على نفوذ الوالى المدنى المعين من قبل بيزنطة مصر ، وأن يجعلوا من الاسكندرية مدينة مسيحية الصبغة والطابع بالقضاء بصفة نهائية وقاطعة على كل أثر للوثنية التى كانت لاتزال نشطة فى بعض مدارسها ، مع عدم التساهل أو التسامح حيال الجالية اليهودية التى ظلت لقرون طويلة تمثل أغلبية لها وزنها فى المدينة (١) . وكانت هيباشيا التعسة الحظ أشهر ضحايا هذا الاتجاه عندما لقيت مصرعها فى مارس من سنة ٤١٥ م . ويرجع سبب ما أحاق بها أنها كانت صديقة حميمة للوالى البيزنطى فى مصر وهو أورستيس Orestes الوثنى ، فضلا عن كراهية كيرلس الكبير بطريرك الاسكندرية لها بسبب تحمسها فى التبشير بالوثنية من ناحية وصداقتها لعدوه اللدود الوالى البيزنطى من ناحية أخرى .

واستغل يهود الاسكندرية الحاقدين على بطريرك الأقباط الفرصة ، وعملوا على توسيع شقة العداء والبغضاء بين كيرلس وأورستيس ، ولم يجدوا وسيلة إلا واصطنعوها لتحقيق هدفهم وتصاعدت حدة الأزمة بين الرجلين نتيجة فتنة افتعلها اليهود . وانتهى الأمر بمذبحة دموية كان مسيحيو المدينة هم ضحاياها ، وذلك عندما شاع خبر خلاصته أن النار قد اشتعلت فى الكنيسة الكبرى بالمدينة، وعندما هرول المسيحيون إلى الموقع لاستجلاء الخبر ، حاصرهم اليهود وأعملوا فيهم الذبح والتقتيل . وكان رد كيرلس هو طرد كل اليهود من المدينة والسماح

---

(١) يرجع العداء بين أهل الاسكندرية والجالية اليهودية المتأغرقة المقيمة بالمدينة إلى ما قبل المسيحية بكثير. عن ذلك أنظر، Bell, H.I. (ed.), Jews and Christians in Egypt (Oxford, 1924), 19 ff.

للمسيحيين بنهب ثرواتهم وممتلكاتهم ، متخطياً بذلك سلطات الوالى البيزنطى الذى اعتبر الاجراء المذكور اهـــانة موجهة اليه بصفتيه الشخصية والرسمية . ولذلك بادر بتقديم شكوى إلى القسطنطينية . وعند هذا الموقف المتأزم أسرع خمسمائة من رهبان جبل نتريا بوادى النطرون كانوا قدعلموا بما وقع للمسيحيين فى المدينة ، ليكونوا على مقربة من مسرح الأحداث وقامـــوا بسب الوالى أورستيس جهاراً ، ثم رماه أحدهم بحجر وأصبحت حياته معرضة للخطر .

وقد أصيب الرأى العـــام بصدمة عنيفة ليس فى الاسكندرية فقط وانما فى القسطنطينية أيضاً بسبب تلك الأحداث الملتهبة المتلاحقة . وكانت تجلس على العرش البيزنطى وقتذاك بولكيريا Pulcheria باعتبارها وصية على أخيهــــا الامبراطور القاصر ثيودوسيوس الثانى . وأخـذت الشكاوى والاتهامات تترى على العاصمة البيزنطية من كل من الوالى والبطريرك ، وكل منهما ينفى التهمة عن نفسه ملقياً اياها على الآخر ، وأرسلت بيزنطة موظفاً من قبلها إلى الاسكندرية لمعرفة الحقيقة والقبض على الجناة الذين تسببوا فى اشعال نار الفتنة . وليست لدينا معلومات عن نتائج تحريات المندوب البيزنطى وما وصلت اليه أو أسفرت عنه ، ولا نعرف أيضاً أن كانت هناك عقوبة قد وقعت على الجناة أم لا (١) . ويبدو أن قبط مصر قد نعموا بعد ذلك بفترة من الهدوء اثناء سنى حكم الفرس للبلاد . إذ سمح الفرس بعد غزو مصر لبطريرك الأقباط أن يبقى فى الاسكندرية وأن لا ينازعه منازع فى رئاسة الدين ، وظل هكذا حتى موته . كذلك تم انتخاب خليفته بنيامين فى سلام واطمئنـان . وقد قضى أولى سنى ولايته مستظلا بحكم الفرس ، بينما كانت بقية ولايته بعد استرداد بيزنطة لمصر مشحونة بالعواصف التى لم يضع حد لها سوى فتح العرب لمصر فى أواسط القرن السابع الميلاد (٢) .

---

(١) Cf, Bury, I, 215 – 220.

(٢) أنظر ، بتلر : فتح العرب لمصر ص ٨٢ .

لعله يتضح مما سبق أن البناء الاجتماعى فى الاسكندرية فى العصر المسيحى كان مغايراً لما كان سائداً فى المدينة فى العصور السابقة له . كما يتضح حدوث تغييرات جذرية فى هذا البناء خلال العصر المسيحى نفسه الذى شغل أكثر من ستمائة عام انتهت بالفتح العربى لمصر . فقد كان هذا المجتمع فى القرون الثلاثة الأولى من المسيحية يتألف من أغلبية وثنية متسيدة وهى من أهالى "بلاد الاسكندريين ، وأقلية يهودية متأغرقة مثيرة للقلق ولها تأثيرها فى اقتصاديات البلاد ، وكذلك أقلية ضئيلة من الوثنيين الذين اعتنقوا المسيحية سراً وكانوا محلا لاضطهاد الأباطرة الرومان من ناحية وأهالى المدينة الوثنيين واليهود من ناحية أخرى . واعتباراً من بدايات القرن الرابع حدث تخلخل فى التركيب الاجتماعى للمدينة التى أصبحت تتكون من أغلبية مسيحية من الاسكندريين الذين كانوا أصلا يدينون بالوثنية ، وأقلية محدودة من اليهود المتأغرقين الذين كانوا مصدراً للشغب والمتاعب والمضايقات بحكم كرههم للمسيحية والمسيحيين ، وكذلك شراذم مبعثرة لا اعتبار لها من الوثنيين الذين انتهى أمرهم تقريباً بمقتل الفيلسوفة الوثنية هيباشيا فى بدايات القرن الخامس . ولكن منذ أواسط القرن الخامس تنشطر الأغلبية المسيحية بالمدينة شطرين متصارعين : أكثرية وطنية وهى التى تمثل أقباط مصر المونوفيزيين وأقلية ملكانية من الإغريق أو الاسكندريين المتأغرقين وهى التى تتبع تعاليم مجمع خلقيدونية المسكونى . وكان هذا بداية صراع مرير بين الفريقين من جهة وبين أقباط الاسكندرية وبيزنطة وولاتها على مصر من جهة أخرى . وباستيلاء عمرو بن العاص على الاسكندرية سنة ٦٤٢ م يسدل الستار على هذا الصراع المذهبى فى مظهره السياسى فى حقيقته وجوهره ، والذى شهدته البلاد فى القرون الأخيرة من الحكم البيزنطى .

هكذا كانت القرون الأخيرة من العصر المسيحى فى الاسكندرية ، وعلى وجه

التحديد الفترة الممتدة من سنة ٤٥١ م حتى سنة ٦٤٢ م ، مملوءة بالصخب وروح الثورة والتذمر بين المصريين بعامة وأهالى الاسكندرية على وجه الخصوص .
وليس لنا — بطبيعة الحال — أن ننتظر أو نتوقع أى تقدم حضارى بالمعنى المفهوم من هذا الاصطلاح فى جو مضطرب كهذا . فالنظام الحكومى ظل فى روحه واتجاهاته قائماً على نفس الأسس التى أخذ بها الرومان عن البطالسة مع ادخال بعض التعديلات الطفيفة عليها . وربما كان أهم تعديل هو ما أحدثه الامبراطور جستنيان من تركيز السلطتين الادارية والدينية العليا فى يد شخص واحد كما كان حاصلا فى ولاية أبولينياريوس Apollinarius سنة ٥٥١ م ، وكذلك فى ولاية المقوقس Cyrus أيام هرقل(١) .

لقد قاست الاسكندرية كثيراً على أيدى ولاة بيزنطة ، وجعلت الاضطهادات المذهبية ساكن المدينة يتولاه اليأس والقنوط ويفكر فى العزلة عن العالم والتنسك فى مغاور الصحراء وقمم الجبال . وساعد ذلك على انتشار الرهبنة وازدهارها فى ضواحى المدينة وبخاصة فى وادى النطرون وصحراء مريوط . واضطربت نتيجة لذلك الأحوال الاقتصادية ، وتعثرت حركة التجارة الداخلية والخارجية . ولكن هذا لا يعنى عفاء الآداب والعلوم والفنون تماماً . حقيقة أنها تأثرت بنفس العوامل والمؤثرات التى جرت البلاد نحو الهاوية الاقتصادية ، ولكن ليس إلى الحد الذى يقضى عليها . فقد كان فى الاسكندرية خلال القرنين السادس والسابع أطباء معروفين مشهود لهم ، وكانت مدرسة الطب فى المدينة كعبة الطلاب يقصدونها من كل أنحاء الدولة .

كذلك كانت الاسكندرية فى أوخريات العصر المسيحى لا تزال جديرة بأن تكون مقر الآداب ليس فى مصر فقط ولكن فى العالم كله . وكان يقصدها طلاب

(١) Cf. Bury, I, 213, II, 342 f.

العلم من كل مكان . وكانت لا تزال تحتفظ ببقايا من العلم القديم وان كان معظمه خاصاً بالدين . إذ اقتصر النشاط الذهنى على مدرسة الاسكندرية اللاهوتية وعلى الأديرة التى كانت تحمل مشاعل العلم . وترتب على ذلك أن أصطبغ أدب العصر بالصبغة الدينية اللاهوتية . وكانت المدينة أيضاً سوقاً رائجة لتجارة بيع الكتب وتصديرها إلى الخارج . وإلى جانب ذلك اشتهرت المدينة بتضلعها فى علوم الفلك والرياضة والتنجيم ، فضلا عن علم تقويم البلدان . كذلك انتعشت الفنـــون فى المدينة التى كانت بأسوارها وحصونها وقصورها وكنائسها وأديرتها وطرقها آية فى الروعة والفخامة . وقد تأثرت تلك الفنون بدخول المسيحية إلى الاسكندرية، إلا أنه كان للأساليب البيزنطية أيضـــاً أثر واضح فى هذا الشأن . وإلى جانب ماتقدم ازدهر فن النحت والتصوير وفن تفسير الكتب وايضاحها بالرسوم ،فضلا عن العديد من الصناعات مثل صناعة الورق وعمل الزجـــاج وغزل المنسوجات وبناء السفن . لقد كانت عاصمة مصر من أبهى المدن وأفخمهـــا ، ومن أكبر أسواق العالم خلال تلك الحقبة من الزمن (١) .

خـاتمـة :

كانت الأعوام الأخيرة من الحكم البيزنطى فى مصر سقيمة مليئة بالفوضى والاضطرابات فى المسائل السياسية والدينية والمذهبية . فالقسطنطينية ظلت متمسكة بحقها الأعلى على كنيسة الاسكندرية منذ مجمع القسطنطينية المسكونى الذى عقد عام ٣٨١ م أيام الامبراطـــور ثيودوسيوس الكبير ، والذى نص فى قانونه الثالث على تقدم كرسى القسطنطينية على جميع الكراسى الأخرى بعد روما باعتبار أن القسطنطينية هى « روما الجديدة » . وقد دخلت فى ذلك اعتبارات

(١) بتلر : فتـــح العرب لمصر ص ٨٤، ٩٠، ٩٢ وما يليها و ٢٥٤، ٣١٩ وما يليها . وللمزيد من المعلومات عن الحياة فى الاسكندرية فى العصر المسيحى أنظر : =

سياسية تتلخص فى أن القسطنطينية كانت تنظر إلى نفسها كراعية للكنائس المسيحية الأخرى بحكم وجود الامبراطور فيها . وتضاف إلى ذلك عوامل الحقد والغيرة بعد أن طغت الاسكندرية بشهرتها وعائتها ومدرستها اللاهوتية وعلمائها ومفكريها على « روما الجديدة (١) » . وزاد الطين بلة مجمع خلقيدونية بتعاليمه التى أصبح بعدها مسيحيو الاسكندرية مجرد هراطقة فى نظر بيزنطة .

على أى حال ، رفض الأغريق التسامح فى نزعة الاستقلال المصرية ، بينما استقتل قبط مصر فى الدفاع عن كنيستهم التى أصبح استقلالها أمراً حيوياً بالنسبة لهم . واتسعت شقة الخلاف بين الطرفين ، وازدادت مع الوقت عمقاً ، كما ازدادت الكراهية بينها حدة وشدة . وفشل الامبراطور جستنيان فى كبح جماحهم بتعيين الحاكم أبوليناريوس الذى جمع فى قبضته السلطتين الزمنية والدينية حتى يتمكن من إخضاع المنشقين على كنيسة الملكانيين من بنى مصر . كذلك أخفق خلفاؤه فى هذا الصدد . وظل البيزنطيون يتعسفون فى معاملة الأهلين ، وحكموا البلاد على غير رضاها بحاميات عسكرية بحتة . غير أن هذه السياسة لم يكن يتوقع لها أن تدوم ، بل كان مصيرها هو الاخفاق .

= Irmscher, J., "Alexandria die christusliebende Stadt," Bulletin de la Société d'Archéologie Copte, t. XIX (1967 – 1968.) Le Caire, 1970, 1.5 - 121 ; Mostafa El Abbadi, "Aspects of Everyday Life in Ancient Alexandria," Cahiers d'Alexandria, Série IV, Fasc.- 3, Alexandrie, 1966, 38 – 46

وللمزيد من المعلومات عن مدرسة الطب فى المدينة ، أنظر :

Parthéniades, G.E. "L'Ecole de Medecine d' Alexandrie." Cahiers d, Alexandrie, Série IV, Fasc I, Alexandrie, 1966

(١) Runciman, 109 110

وبدأت الظروف فى بيزنطة نفسها تمهد لهذه النتيجة عندما أبحر هرقل الصغير ابن حاكم ولاية افريقية إلى القسطنطينية كنقذ للبلاد من الكوارث التى نزلت بها أيام آخر أباطرة أسرة جستنيان وهو فوكاس (٦٠٢ - ٦١٠ م) ، وأسس أسرة نسبت اليه وكان هو أول أباطرتها ، وقد حكم من سنة ٦١٠ م إلى سنة ٦٤١ م . وقد رأت مصر أن تنحاز إلى جانب الامبراطور الجديد أملا فى التخلص من النظام القائم الذى عانت منه أيام اسلافه . ولكن هرقل الذى كافأ المصريين على ولائهم بعد نجاحه بمنحهم بعض الحرية ، مالبث أن عاد إلى سياسة أسلافه فى وقت كانت الامبراطورية فيه تعانى من الضعف والانحلال فى الداخل والخارج حتى رجحت كفة الفرس عليها فى بعض المناطق ، ومن بينها مصر التى استولوا عليها فيما بين سنتى ٦١٩ م و ٦٢٩ م . فلما استردها البيزنطيون منهم ، كشف هرقل النقاب عن نياته الحقيقية بالعودة إلى سياسة اسلافه فى أخذ المصريين بالشدة والاعتداء على حرياتهم وطمس معالم كنيستهم . وأقام عليهم حاكما مدنياً وبطريركاً دينيا ليصب عليهم نقمة الاستعباد فى كل نواحى حياتهم الخاصة والعامة ، وبشكل لم يسبق له مثيل فى تاريخ البلاد حتى باتوا يتحينون الفرصة المواتية للخلاص منه ، بل وللخلاص من كابوس الحكم البيزنطى (١) .

وفى غمرة هذه الاحداث ظهر الاسلام فى شبه الجزيرة العربية يدعو الناس بصفة عامة إلى عبادة الله وحده ونبذ الأصنام ، والعرب بخاصة إلى الاتحاد والتآلف والمحبة ونبذ الفرقة والخلاف . ولم تمض بضع سنوات حتى كانت هذه الدعوة الجديدة قد تمكنت ودانت لها كافة القبائل العربية التى أصبحت ترى فيها رمز وحدتها وشعار مجدها وأمل مستقبلها . وعلى هذا الأساس قامت الدولة العربية

---

(١) A'tiya, 75 — 78 Ostrogorsky, 83, 86, 76 f.
راجع أيضا ، بتلر : فتح العرب لمصر ص ١٥٨ وما يليها و ١٦٢ وما يليها .

الفتية وخرجت من جزيرتها الصغيرة للفتح دفاعاً عن كيانها ونشراً لدعوتها
وتأميناً لها من مناوشات جيرانها ومضايقاتهم المستمرة على الحدود . وانطلقت
وراء حدودها لتصطدم بالدول المتاخمة لها . وكان من الطبيعى أن يبدأ الصدام
بينها وبين بيزنطة الذى انتهى فى سنوات قلائل باستيلاء العرب على بلاد الشام .
وتلا ذلك فتح مصر على يد عمرو بن العاص فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن
الخطاب سنة ٦٤٠ م . ولم يتحرك أقباط مصر لمساعدة البيزنطيين المعتدين على
حرياتهم ، لا سيما وأن الدين الجديد كان أساسه التسامح مع أهل الذمة وترك
أمور عقيدتهم لهم يديرونها كيفما شاءوا . ولقد رأى أقباط مصر أنهم تحت حكم
بيزنطة خاسرون سياسيا ودينيا ، وأنهم تحت حكم العرب كاسبون عدم التعرض
لهم ولكنيستهم . فرحبوا بالفاتحين الجدد ولم يقوموا بأية محاولة لمساندة بيزنطة
فى الصراع الذى نشب بين المقوقس وعمرو بن العاص . وهكذا بعد الاستيلاء
على الفرما وبلبيس وحصن بابليون، حاصر العرب مدينة الاسكندرية سنة ٦٤١م .
وفى نفس السنة مات الامبراطور هرقل وكانت الاسكندرية لا تزال هى المكان
الوحيد المتبقى من ممتلكات بيزنطة فى مصر ، وقد تم الاستيلاء عليها فى السنة التالية
(٦٤٢م) (١) .

وكل ما يهمنا أن المصريين الذين كانوا هراطقة مضطهدين فى نظر الكنيسة
البيزنطية ، والذين أثقلت كواهلهم الضرائب الباهظة تحت نير الحكم البيزنطى ،

---

(١) Atiya, 79 – 81; Neill, 64; Glanville, 327, 328;
Lane-Poole, 2, 4 ff., Diehl, 52; Ostrogorsky, 98 ff.
هذا ، ويعتبر الفريد بتلر حجة فى دراسة هذه الفترة الغامضة من تاريخ مصر ،
وبخاصة حصار عمرو بن العاص لمدينة الاسكندرية واستيلاؤه عليها . أنظر ،
بتلر : فتح العرب لمصر ص ٢٥٤ وما يليها ، ٣٠٠ وما بعدها ، ٣٨٤ وما يليها .

لم يبدوا أية محاولة لحفظ هذه المستعمرة الامبراطورية . بل على العكس ، رحب أهل البلاد بالعرب وفتحوا لهم قلوبهم قبل أبوابهم (٢) . ويقول المؤرخ ستيفن رانسيمان (٣) إنهم اعتبروا الاسلام أقرب إلى مبادئهم ومعتقداتهم من تعاليم مجمع خلقيدونية المسكوني . وبانتصار العرب وتأسيس دولتهم الواسعة يبدأ دور جديد في تاريخ مصر نعم فيه الأقباط بالحرية في أداء شعائرهم وطقوسهم في ظل التسامح الإسلامي (٤) .

---

(٢) . Lane-Poole, 15, Ostrogorsky, 103 أنظر أيضا ، المقريزي : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار جـ ١ ص ١٦٣ ، بتلر : فتح العرب لمصر ص ١٧٠ .

(٣) Runciman, 41.

(٤) أنظر ، سعيد عبد الفتاح عاشور وعبد الرحمن الرافعي : مصر في العصور الوسطى من الفتح العربي حتى الغزو العثماني (القاهرة ١٩٧٠) ص ٣١ ، جمال الدين الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية — المجلد الأول — ط . ثانية (الاسكندرية ١٩٦٥) ص ١١ ومايليها ، بتلر : فتح العرب لمصر ص ٢٨٢ وما يليها و٣٨٦ وما يليها و٣٨٨ وما يليها .

مراجع البحث

أولا – مراجع وبحوث عربية

إيريس حبيب المصرى : قصة الكنيسة القبطية جـ ١ ـ القاهرة (بدون تاريخ).

باهور لبيب (دكتور) : « الآثار القبطية » ـ مقال فى رسالة مارمينا الخامسة « صفحة من تاريخ القبط » ـ الاسكندرية ١٩٥٤ ، ص ١٠٣ – ١١٥ .

جمال الدين الشيال (دكتور) : مجموعة الوثائق الفاطمية ـ المجلد الأول ـ ط. ثانية ـ الاسكندرية ١٩٦٥ .

جورجى صبحى (دكتور) : « من تراث الكنيسة القبطية » ـ مقال فى رسالة مارمينا عن الرهبنة القبطية ـ الاسكندرية ١٩٤٨ ، ص ١٠ – ١٣ .

جوزيف نسيم يوسف (دكتور) :

١ – « دراسات فى المخطوطات العربية بدير القديسة كاترينه فى سيناء » ـ مقال بمجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية ـ العدد ٣٢ ـ الاسكندرية ١٩٦٩ ، ص ٩٥ - ١٣٩ .

٢ – « بستان الرهبان : عرض وتحليل لنسخه الخطية العربية غير المنشورة المحفوظة بمكتبة دير سيناء » ـ مقال بمجلة كلية الإداب بجامعة الاسكندرية ـ العدد ٢٣ ـ الاسكندرية ١٩٧١ ، ص ٥٩ - ٩٢ .

راغب عبد النور (دكتور) : « اوريجانوس (١٨٥ - ٢٥٥م) » ـ مقال فى رسالة مارمينا الرابعة « صور من تاريخ القبط » ـ الاسكندرية ١٩٥٠ ، ص ٥ - ٣٦

راهر رياض (دكتور) : كنيسة الاسكندرية فى أفريقيا ـ القاهرة ١٩٦٢ .

زكي شنوده : تاريخ الأقباط - ج١ - القاهرة ١٩٦٢ .

سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) وعبد الرحمن الرافعي : مصر في العصور الوسطى من الفتح العربي حتى الغزو العثماني - القاهرة ١٩٧٠ .

سليمان نسيم : تاريخ التربية القبطية - القاهرة ١٩٦٩

السيد الباز العريني (دكتور) : مصر البيزنطية - القاهرة ١٩٦١

صابر جبرة (دكتور) : «تعقيب القبط في تقدم العلوم» مقال في رسالة مار مينا الثالثة - الإسكندرية ١٩٤٨ (ص ٩٣ - ١٤٢) .

عزيز سوريال عطية (دكتور) : «نشأة الرهبنة المسيحية في مصر، الأنبا أنطونيوس والقديس باخوميوس» ترجمة ... مقال في رسالة مار مينا عن الرهبنة القبطية - الإسكندرية ١٩٤٨ ، ص ١ - ٣٧ .

عمر طوسون : وادي النطرون ورهبانه وأديرته ومختصر تاريخ البطاركة ، مذيل بكتاب تاريخ الأديرة البحرية - الإسكندرية ١٣٥٤ هـ - ١٩٣٥ م .

عمر كمال توفيق (دكتور) : تاريخ الإمبراطورية البيزنطية - الإسكندرية ١٩٦٧ .

القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشا - ١٤ ج - القاهرة ١٩١٣ - ١٩٢٠ .

كامل صالح نخلة :

١ - كتاب السنكسار القبطي الجامع أخبار الأنبياء والرسل والشهداء والقديسين - جزءان - القاهرة ١٩٥١ .

٢ - تاريخ القديس مار مرقس البشير - القاهره ١٩٥٢ .

مراد كامل (دكتور) :

١ - «الرهبنة في الحبشة» - مقال في رسالة مار مينا عن الرهبنة القبطية ، الإسكندرية ١٩٤٨ ، ص ٧ - ٣٢ .

٣ - « من دقلديانوس إلى دخول العرب » - أنظر تاريخ الحضارة المصرية - المجلد الثانى - القاهرة (بدون تاريخ) ، ص ١٩٧ - ٣٢٠ .

المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار - ٢ جـ - القاهرة (ط . بولاق) ١٢٧٠ هـ .

منير شكرى (دكتور) :

١ - « آباء البرية : ما كتب عنهم ومالهم من أثر عالمى » - مقال فى رسالة مار مينا عن الرهبنة القبطية - الاسكندرية ١٩٤٨ ، ص ١٤ - ٢٨ .

٢ - « أثناسيوس الرسولى (٣٢٦ - ٢٧٣ م) » - مقال فى رسالة مار مينا الرابعة « صور من تاريخ القبط » - الاسكندرية ١٩٥٠ ، ص ٤٩ - ٨٩ .

٣ - « المسيحية وما تدين به للقبط » - مقال فى رسالة مار مينا الخامسة - الاسكندرية ١٩٥٤ ، ص ٥٥ - ٩٢ .

٤ - أديرة وادى النطرون - أنظر رسالة مار مينا السادسة - الاسكندرية ١٩٦٢ .

مينا اسكندر : الشهيد المصرى مار مينا العجايبى - الاسكندرية ١٩٦٣ .

موريس مكرم : « الأديرة الغربية » - مقال فى رسالة مار مينا عن الرهبنة القبطية - الاسكندرية ١٩٤٨ ، ص ٥٤ - ٦٤ .

ثانيا - مراجع معربة

ارمان (ش.) : الامبراطورية البيزنطية - تعريب الدكتور مصطفى طه بدر - القاهرة ١٩٥٣ .

بتشر (ا. ل.) : تاريخ الأمة القبطية - ٤ جـ - تعريب اسكندر تادرس - القاهرة ١٩٠٠ - ١٩٠٧ .

بتلر (الفرد . ج) : فتح العرب لمصر - عربه محمد فريد أبو حديد - القاهرة ١٩٣٢ .

ديل (ش.) : تيودورا الممثلة المتوجة - ترجمة حبيب جاماتى - القاهرة (بدون تاريخ) .

عزيز سوريال عطية : الفهارس التحليلية لمخطوطات طور سيناء العربية - فهارس كاملة مع دراسة تحليلية للمخطوطات العربية بدير القديسة كاترينه بطور سيناء - ترجمة جوزيف نسيم يوسف - جـ ١ - الاسكندرية ١٩٧٠ .

كولتون (ج . ج .) : عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة - ترجمة وتعليق جوزيف نسيم يوسف - ط . ثانية - الاسكندرية ١٩٦٧ .

موس (هـ .) : ميلاد العصور الوسطى (٣٩٥ - ٨١٤) - ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد - مراجعة السيد الباز العرينى - القاهرة ١٩٦٧ .

ورل (وليم) : موجز تاريخ القبط - راجع الترجمة من الانجليزية مراد كامل - أنظر رسالة مار مينا الخامسة ١٩٥٤ ، ص ١١٧ - ١٩٢ .

ثالثا — مراجع وبحوث أجنبية

ATIYA, A.S., A History of Eastern Christianity. London, 1968.

BALDWIN M.W., The Mediaeval Church. Ithaca, New York, 1953.

BAYNES, N., The Byzantine Empire. London, 1939.

BAYNES, N.H. & MOSS, H. St. B., Bayzantium : An Introduction to East Roman Civilization. Oxford, 1953.

BELL, H.I. (ed.), Jews and Christians in Egypt. Oxford, 1924.

BELL. H.I., Egypt from Alexander the Great to the Arab Conquest. Oxford, 1948.

BUDGE, E.A.W. (ed. & tr.), Coptic Martyrdoms in the Dialect of Upper Egypt. London, 1914,

BUDGE, E.A.W. (tr.), The Wit and Wisdom of the Christian Fathers of Egypt. Oxford, 1934.

BURGH, W.G. de, The Legacy of the Ancient World. 2 vols. London, 1955.

BURY, J.B., History of the Later Roman Empire from the death of Theodosius I to the death of Justinian, 2 vols. New York, 1958.

CHADWICK, H., The Early Church. London. 1969.

CHENEAU, P., Les Saints d'Egyqte, 2 vols Jerusalem, 1923.

Coulton G.G., Medieval Panorama. New York, 1955.

CRUMP, C.G. & JacoB E.F. (eds.) The legacy of the Middle Ages, Oxford, 1951,

DAOUD ABDO DAOUD, "Alexandria and the Early Councils" Cahiers d'Alexandrie. Serie II, Fasc 3, Alexandrie 1964, pp. 51—65.

DIEHL. Ch, Histoire de l'Empire Byzantin. Paris, 1920.

FRENCH, R.M., The Eastern Orthodox Church. London, 1951.

GLANVILE, S.R.K. (ed.), the Legacy of Egypt. Oxford, 1957.

GUETTEE, Histoire de l'Eglise, 2 vols, Paris & Bruxelles, 1886.

HARDY, E.R., Christian Egypt. Church and People. New York, 1952.

HILLGARTH, J.N (ed.), The Conversion of Western Europe : 350 —750. Englewood Cliffs, N J. 1969.

IRMSCHER, J., " Alexandria, die christusliebende Stadt, " Bulletin de la Societe d'Archeologie Copte, t. XIX (1967 – 1968), La Caire. 1970, pp. 115 —121.

JOUGUET, P., "La Domination Romaine en Egypte aux deux prèmiers siécles aprés Jesus-Christ, " Conference donnée à la Société d'Archeologie d'Alexandrie, le 29 avril 1946, Alexandrie, 1947, pp. 1 – 63.

LANE-POOLE, St., A History of Egypt in the Middle Ages. London, 1936.

LESOURD, P., Histoire de l'Eglise, Paris, 1939.

MEMOIRES de l'Institut Francais d'Archeologie Orientale du Caire t. X. Le Caire, 1904.

MOREAU E. de, Histoire de l'Eglise. Tournai-Paris, 1931.

MOSTAFA EL-ABBADI, ' A Side-Light on the Social Life of Ancient Alexandria, " Cahiers d'Alexandrie, II, Fasc. ,ε Alexandrie, 964, pp. 40—50.

MOSTAFA EL-ABBADI, "Aspects of Everyday Life in Ancient Alexandria, "Cahiers d'Alexaudrie, IV, Fasc. 3, Alexandrie, 1966,pp. 38 – 46.

NEALE, J.M.. A History of the Holy Eastern Church. London, 1873.

NEILL, S. A History of Christian Missions, Aylesbury, 1966.

OSTROGORSKY, G., Hi tory of the Byzantine State, trans. by J. Hussey. Oxford, 1956.

PALLIA, JEAN-JACQUES, "Alexandrie aux piemiérs siècles du Christianisme,"Conference donnee à la Socite e d,Archeologie le 29 janviér 1964, Alexandrie, 1964, pp. 3—19 .

PARTHENIADES, G.E., "L'Ecole de Mcdecine d,Alexandrie, " Cahieres d'Alexandrie, Serie IV Fasc.I., Alexandrie 1966 pp. 2 – 12 .

REGINALD, R.P. de Sà O.P , "L'Oeuvre de Pantène," Cahiers d'Alexandrie. Serie IV, Fasc. 1, Alexandrie. 1966, pp 13 – 25,

ROSE, H.J. Ancient Greek Religion, London, 1946 .

ROSE, H.J., Ancient Roman Religion. London, 1948

RUNCIMAN, S., Byzantine Civilisation. London, 1948.

STANLEY, A P., Lectures on the History of the Eastern Church. London, 1924

TOLLINGTON, R.B., Clement of Alexandria, v l. I. London, 1914.

WORRELL, W., A Short Account of the Copts, Michiagn, 1945,

القسم الثانى

سيناء

كنوزها ، وآثارها ، ووثائقها ، ومخطوطاتها العربية

البحث الأول

سيناء

كنوزها وآثارها التاريخية فى العصور الوسطى

نشر هذا البحث فى مجلة « المؤرخ العربى » ـ العدد الرابع ـ بغداد (العراق)
١٩٧٧ ـ ص ٩٨ ـ ١٢٢ .

نظرة سريعة الى منطقة سيناء وتاريخها

إذا أردنا أن نكون فكرة سريعة وواضحة عن تاريخ شبه جزيرة سيناء ، نجد فى كتب المسالك والممالك ومؤلفات الرحالة والجغرافيين العرب معلومات قيمة ومادة من الطراز الأول . فهى تقع فى صحراء التيه بين القلزم وأيلة . وهى تعرف أيضا باسم جبل حوريب ، وتتميز بقممها وجبالها المرتفعة الشاهقة . وإذا ألقينا نظرة إلى خريطة سيناء ، نجد أن الطريق الذى يربط فلسطين بمصر يخترق الجزء الشمالى منها . أما الجزء الجنوبى فقد اشتهر بثرواته المعدنية ، وعلى وجه الخصوص الذهب والنحاس والفيروز (١) .

وسيناء أقليم مجدب جبلى ، لا سيما فى الجنوب حيث توجد الجبال الشاهقة الارتفاع ، ومن أهمها جبل القديسة كاترينة وارتفاعه ٢٥٩٧ مترا ، وجبل موسى وارتفاعه ٢٢٤٢ مترا ، وقمم سربال وارتفاعها ٢٠٥٧ مترا وتعتبر هذه المنطقة الأخيرة من أشد البقاع وعورة .

وجبل القديسة كاترينة هو أكثر الجبال إرتفاعا فى شبه الجزيرة . ويقال أنه هو الذى حملت اليه الملائكة جثمان الشهيدة القديسة كاترينة السكندرية ، الذى نسب دير سيناء اليها ، فعرف باسم دير القديسة كاترينة . وقد دفن رفاتها فى كنيسة الدير الكبرى (٢) .

---

(١) أنظر إبن الفقيه الهمذانى : مختصر كتاب البلدان - ليدن ١٣٠٢ هـ - ص ٦٩ ، ياقوت : معجم البلدان - المجلد الثالث - ليبزج ١٨٦٨ م - مادة « طورسينا » ص ٥٥٨ .

(٢) عاشت القديسة كاترينة السكندرية فى فجر المسيحية ، وكانت تدين بالوثنية ولكنها تركت عبادة الاوثان واعتنقت المسيحية وأخذت تدعو لها ، =

وفى المنطقة العديد من المعابد التى ترجع إلى التاريخ القديم، مثل معابد وادى مغارة وسيرابيت Se'apit . وجبالها عامرة بالكتابات القديمة ، ووديانها اليانعة تكاد تكون موجودة فى كل مكان ، مثل وادى فيران ووادى الأربعين ووادى ليان .

منطقة سيناء تكتسب شهرتها الحقيقية فى العصر الوسيط

والمعروف أن شبه جزيرة سيناء التى امتازت بالعزلة والوحشة فى الماضى ، قد اكتسبت شهرتها الحقيقية فى الحقبة الوسيطة من التاريخ . ويرجع ذلك إلى النساك والمتعبدين المسيحيين الذين لجأوا اليها هربا من اضطهاد الحكام الرومان لهم فى القرون الأولى من المسيحية ، فى وقت اشتد فيه الصراع بين الأباطرة الرومان والديانة الجديدة التى وجدوا فيها منافسا خطيرا لهم وتهديدا مباشرا لسلطانهم ولوحدة الامبراطورية الرومانية التى كان يرمز لها بكلمة « السلام الرومانى » Pax Romana . وقد أقام أولئك النساك والمتعبدون فى جبالى شبه الجزيرة الجنوبية ، حيث كانت الوديان الخصيبة وعيون الماء ومجاريها .

= فانزعج الوثنيون وضايقوها إلى أن انتهى الأمر باستشهادها . فلما اقيم الدير المذكور بأمر الامبراطور جستنيان فى حوالى منتصف القرن السادس الميلادى . نقلوا اليه رفاتها ، ومن ثم سمى باسمها ، وكان ذلك فى القرن الثامن ، أى بعد وفاة هذه القديسة بمئات من السنين . وللمزيد من التفاصيل . أنظر جوزيف نسيم يوسف : « دراسات فى المخطوطات العربية بدير القديسة كاترينه فى سيناء » . مقاله بمجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية المجلد ٢٢ - الاسكندرية ١٩٦٩ - [illegible]

وسهل ذلك عليهم زراعة الحبوب والخضر وأشجار الفاكهة على وجه الخصوص .

وكان أول ناسك يلجأ إلى هذه المنطقة أشارت إليه المصادر القديمة ، قديس يدعى اونوفريوس Onophrius . وقد التجأ إلى مغارة فى وادى ليان الى الجنوب من جبل موسى . وكان ذلك فى بداية القرن الرابع الميلادى ، فى وقت كان فيه التاريخ القديم يطوى صفحته بانهيار الامبراطورية الرومانية بمثلها ومفاهيمها وفلسفتها ، وفى وقت بدأ فيه عصر جديد فى تاريخ البشرية بأوضاع ومفاهيم جديدة مغايرة ، ونعنى بذلك العصر الوسيط الذى اقتطع من عمر التاريخ حوالى عشرة قرون من الزمان . وبعد القديس اونوفريوس تتابع النساك فى شبه الجزيرة يتعبدون ويتأملون فى ذات الله العلية ، وقد خلفوا آثارا فى كل مكان . واستتبع ذلك تكوين مراكز فى كل منها برج يلجأ اليه النساك عندما تداهمهم المخاطر . ومن هذه الابراج برج مهدم فى وادى الاربعين ، وبرج آخر فى موضع يعرف باسم « العليقة المتوقدة » Buisson Ardent (١) الذى يقال ان هيلانه Helena

(١) اصل هذه التسمية ظهور الله عز وجل لموسى وسط نبات من الشوك المتوقد والنبات لا يحترق . وتقع هذه العليقة المشتعلة على مقربة من المكان الذى فيه دير القديسة كاترينة . وقد ورد ذكرها فى القرآن الكريم فى سورة طه ، الآيات ٩ - ١٢ ، «وهل اتاك حديث موسى. اذ راى نارا فقال لأهله امكثوا انى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى . فلما آتاها نودى ياموسى. انى أنا ربك فاخلع نعليك انك بالوادى المقدس طوى » . ووردت الاشارة اليها ايضا فى سورة القصص ، الآيتان ٢٩ - ٣٠ ، « فلما قضى موسى الاجل وسار باهله آنس من جانب الطور نارا قال لاهله امكثوا إنى آنست نارا لعلى أتيكم منها بخبر او جذوة من النار لعلكم تصطلون . فلما اتاها =

أم امبراطور قسطنطين الكبير (٣٠٥ — ٣٣٧م) قد بنته فى القرن الرابع .وهذا البرج الأخير يقع على مقربة من دير القديسة كاترينة .

قصة دير سيناء وتاريخ بنائه ، وانتقال حوزة المنطقة الى السيادة العربية

هكذا كانت سيناء منذ بواكير العصور الوسطى ، غنية فى تاريخ القديسين والشهداء ، فى وقت اشتهرت فيه هذه العصور باسم « عصور الايمان » . وكان أولئك المتعبدون المشتتون على جبال طور سيناء يتعرضون لغارات المغيرين بين وقت وآخر . فتوسلوا الى امبراطور دولة الروم وقتها ، وكان يدعى جستنيان الاول (٥١٧ — ٥٦٥ م) ، ان يبنى لهم ديرا يؤدون فيه فروض العبادة ويحتمون بداخله ، وكانت سيناء وقتذاك داخلة فى نطاق دولة الروم . فاجابهم الامبراطور الى طلبهم ، وأمر ببناء دير محصن على قمة الجبل الذى يوجد فى سفحه المكان المعروف باسم « العليقة المشتعلة » . ولكن مندوب الامبراطور الذى أوفده للقيام بهذه المهمة أمر ببناء الدير عند سفح الجبل ، مراعيا فى ذلك رداءة الجو وضيق المساحة وانعدام الماء باعلا الجبل . ويقال ان جستنيان قتل مندوبه لمخالفته أوامره . وقد تم بناء الدير فى هذا المكان باعتباره من الاماكن المقدسة، فضلا عن وجود الماء فيه (١) . وكان ذلك فى أواسط القرن السادس الميلادى. وفى نفس الوقت تذكر الرواية أن امبراطور الروم أرسل الى طور سيناء

= نودى من شاطىء الواد الايمن فى البقعة المباركة من الشجرة ان ياموسى إنى أنا الله رب العالمين » . وورد ذكرها ايضا فى الاصحاح الثالث من سفر الخروج. وجاء فى معجم البلدان لياقوت (مجلد ٣ — ص ٥٥٧) « . . . وبالقرب من مصر عند موقع يسمى مدين جبل يسمى الطور ولا يخلو من الصالحين ، وحجارته كيف كسرت خرج منها صورة شجرة العليق . » .

(١) أنظر عن ذلك المراجع التالية :

=

حوالى مائتين من أسر العبيد مع نسائهم وأولادهم من منطقةالبحر الأسود ومن مصر للقيام بحماية الدير ورهبانه . ولا يزال خلف أولئك القوم بسيناء حتى اليوم ، يقـوم الرهبان باطعامهم من خيرات الوديان المبعثرة هنا وهناك ، بينما يتولون هم حمايتهم (١) .

على أى حال ، ظلت سيناء وديرها فى حوزة دولة الروم حتى بدايات القرن السابع الميلادى . وفى العقود الأولى من هذا القرن ظهر الاسلام فى شبه الجزيرة العربية يدعو الناس بصفة عامة الى عبادة الله وحده ونبذ الأصنام ، والعرب بخاصة الى الاتحاد والتآلف والمحبة ونبذ الفرقة والخلاف ، واستجابت القبائل العربية لهذه الدعوة الجديدة التى أصبحت ترى فيها رمز وحدتها وشعار مجدها وأمل مستقبلها . وعلى هذا الأساس قامت الدولة العربية فتية ناهضة ، وخرجت من جزعتها الصغيرة للفتح دفاعا عن كيانها ونشرا لدعوتها وتأمينا لها من مناوشات جيرانها ومضايقاتهم المستمرة على الحدود . وكان من الطبيعى أن يبدأ الصراع بينها وبين دولة الروم الذى انتهى فى سنوات قليلة باستيلاء العرب على الولايات الشرقية التابعة لهذه الدولة ، وهى بلاد الشام وفلسطين ومصر . ولم ينتـه القرن السابع حتى غدت منطقة شبه جزيرة سيناء منطقة عربية ، وأصبح

Rábino, M. H L., Monastere de Sainte Cathérine du Mont Sinoi' Le Caire' 1938, I lff.; Bassili. W F.' Sinai and St. Catherine, Cairo, 1957, 77; Forsyth. C. H., "Islandof Faith inthe Sinai Wilderness," National Geogravhic Magazine' January, z954. 84 ff.

(١) أنظر الوثيقة رقم ٦٩٢ سيناء ــ عربى ، مكتوبة على ورق مقاس ٣٢ X ١٩ سم ، موضوعها ، حجة ، .

ديرها ورهبانها يتمتعون بحماية السلطات العربية ورعايتها لهم (١) .

اهتمام سلاطين مصر فى العصر الوسيط بمنطقة سيناء :

وكانت منطقة سيناء ، لاهميتهـــا الجغرافية والاستراتيجية ، موضع عناية سلاطين مصر وحكامها فى العصر الوسيط . وبدأ هذا الاهتمام واضحا فى عصر مؤسس الاسرة الايوبية بمصر فى أواخر القرن الثانى عشر الميلادى (أواخر القرن السادس الهجرى) . وكانت هناك وقتذاك حركة افاقة عربية فى منطقة الشرق الادنى ، تستهدف تكتيل القوى العربيه فى المنطقة لتطويق الصليبيين الدخلاء فى الأراضى المقدسة والعمل على اجلائهم عنها . ولهذا أقام مؤسس الاسرة الايوبية فى سيناء عدة مراكز حصينة على طول المنطقة الفاصلة بين مصر والكيان الصليبى فى البيت المقدس . وأهم هذه القلاع تلك التى تعرف باسم قلعة الجندى فى قلب سيناء فى طريق أيلة ، ولا تزال آثارهـــا باقية حتى اليوم . وكذلك قلعـة أيلة بجزيرة فرعون (٢) .

واستمر اهتمام حكام مصر بسيناء مع العمل على تحصينها وتعزيزها بالقلاع والاستحكامات ، طوال العصر الايوبى وفى عهـد المماليك ، فى وقت كانت فيـه شعوب الشرق الادنى العربى تجاهد ضد الصليبيين الدخلاء الذين طرقوا أبوابهم . وكانت سينـاء خلال تلك الفترة من الزمن ، وعلى وجـه التحديد خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر للميلاد ، صخرة تحطمت فوقها كثير من هجمات أولئك الغزاة الوافدين من الغرب .

---

(١) Ostrogorsky , G., History of the Byzantine State, trans. by J. Hussey, Oxford, 1956, 98 ff.; Baynes, N.H & Moss. H. St. L.B. (eds.), Byzantium Oxford, 1953, 308 ff.; Sullivan, R.E. Heirs of the Roman Empire, New york 1960, 26 ff; Diehl, Ch., Histoire de l'Empire Byzantin, 1920, 52 ff.

(٢) أيلة هى حصن من حصون الكرك الهامة ، تقع على خليج العقبة فى أول =

رهبان دير سيناء ونظامهم وحياتهم

وما دمنا نتحدث عن شبه جزيرة سيناء وأهميتها فى الحقبة الوسيطة من التاريخ، باعتبارها المكان الذى كان الناس يلجأون اليه للتعبد والتقشف والصلاة بعيداً عن الحياة الدنيا وملذاتها ، فى وقت كانت فيه الظروف مهيأة لذلك ـ يحسن أن نشير الى سكان تلك المنطقة النائية من العباد والنساك ، والى نظمهم وحياتهم ومعيشتهم وأحوالهم .

لقد اختلف عدد رهبان سيناء ، سواء المقيمون منهم بالدير أو الموزعون على الكنائس الصغيرة المبعثرة فوق قمم الجبال ، اختلافا كبيرا باختلاف الأزمنة. ففى بداية القرن الحادى عشر الميلادى (أوائل القرن الخامس الهجرى) كان عددهم حوالى ثلاثمائة ، وفى بدايات القرن الرابع عشر (أوائل القرن الثامن الهجرى) بلغ عددهم أكثر من أربعمائة ، وفى أواخر القرن الرابع عشر (أواخر القرن الثامن الهجرى) وصل عددهم الى مائتين من الرهبان . وظل هذا العدد هو العدد التقريبى للرهبان بالمنطقة حتى أواخر العصر الوسيط . ولكن عددهم تضاءل فى فى العصر الحديث بسبب تأسيس العديد من الأديرة فى المراكز المسيحية المعروفة، مثل قبرص وكريت وأثينا ، مما كان له أكبر الأثر فى اجتذاب أعداد من رهبان سيناء . يضاف الى ذلك أن الحماس الذى صاحب حركة الرهبنة والديرية فى بدايتها ـ كما هو معروف فى التاريخ الأوروبى الوسيط ـ بدأ يخبو ويفتر ويتقلص مع الزمن .

= الشام . وللمزيد من المعلومات عن قلاع سيناء ، أنظر عبد الرحمن زكى : قلعة صلاح الدين وقلاع اسلامية معاصرة ـ القاهرة ١٩٦٠ ـ ص ١٦٧ وما بعدها ،

وأما هيئة رجال الدين بدير سيناء فتتألف من المطران (١) وخمسة قسوس وشماس واحد وعدد من الرهبان الجدد يتراوح بين أربعة وثمانية، خلاف الخدم من غير المترهبين. ويقيم المطران بالدير، وهو الذى يتولى ادارته، يساعده فى ذلك مجمعا يتكون من نائب وأمين صندوق وامين مخازن. وفى حالة غياب المطران، كان تضطره الظروف الى التواجد بالقاهرة لأعمـــال تتعلق بطائفته، يحل محله النائب. وللرهبان جميعا، فيما عدا المبتدئين، حق انتخـــاب الرئيس. ويجرى الانتخاب بدير سيناء نفسه. ومن اختصاص المطران والمجمع نقل الرهبان من وظيفة الى أخرى ومن دير الى آخر.

ويتبع رهبان سيناء القواعد التى وضعها لهم قديس يونانى يدعى بازيل (٢)

(١) تطلق الوثائق العربية المحفوظة بدير سينـــاء على رئيس الدير لقب «اسقف». أنظر الوثيقة رقم ١٠ سيناء — عربى، مقاس ٤٨٨ × ٢١ سم، تاريخ ربيع ثانى ٥٥١ هـ (مايو - يونيو ١١٥٦ م)، سطر ٢١ - ٢٢. راجع أيضا جوزيف نسيم يوسف: «دراسة فى وثائق العصرين الفاطمى والايوبى». مقال بمجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية — العدد ١٨ — الاسكندرية ١٩٦٥، ص ١٩٠ — ١٩٢.

(٢) المعروف أنه على يد القديس بازيل بدأت الحيـاة الديرية تأخذ شكلها النظامى فى شرق أوروبا. وكان بازيل قد ترك الحياة الدنيا وقام بزيارة الاماكن التى ظهرت وترعرعت فيها الحياة الرهبانية، وبخاصة مصر وفلسطين وبلاد الشام. ثم عاد الى بلاده ولديه فكرة واضحة عن الرهبنة والديرية اكتسبها من رحلاته، وقد افادته عندما قام بنشر نظامه الديرى. أنظر Bay es & Moss, Byzantium 141 ll. هذا، ويوجد بمكتبة دير سيناء العديد من المخطوطات عن بازيل وقوانينه باللغتين اليونانية القديمة والعربية. أنظر، مثلا، مخطوطة رقم ٥٩٨ سيناء - عربى باسم «مختصر من القوانين، قوانين باسيليوس ويوحنا الناسك والجامع والرسل»: ورقة ٤٦ ب ١٥٢.

St. Basil عاش في دولة الروم في القرن الرابع الميلادى وكان هذا الرجل قد زار مصر وبلاد الشام وفلسطين . واكتسب من رحلاته خبرة واسعة فيما يتعلق بالحياة الديرية . وكان الرهبان داخل دير سيناء يحيون حياة الزهد والتقشف . ولا يأكلون اللحم الا نادرا . ومن عاداتهم أيضا الا يتناولونه فى غرفة الطعام حتى ولو كان اليوم عيدا ، فانهم يأكلون سمكا ، ثم يخرجون فى المساء الى حديقة الدير ، وهناك فقط يأكلون اللحم ، وربما يكون ذلك تحايلا أو امعانا فى التقشف والتقرب الى الله .

والمعروف أيضا أن نظام الحياة اليومية لدى اولئك الرهبان يتلخص فى أنهم يستيقظون جميعا فى الثانية والنصف صباحا ، ويؤدون صلاة السحر فى الرابعة . وفى الأعياد الكبيرة يقام قداس فى الكاتدرائية الكبرى بالدير . أما فى الأعياد الصغرى وأيام الآحاد فيقام القداس فى الكنائس الصغرى التى يشتمل عليها الدير . وأما فى اليوم المعروف عندهم بيوم الأموات ، وكذلك فى أيام السبت الخاصة بالصيام الكبير ، يقوم قسيس باداء القداس فى المقبرة الملحقة بالدير والتى تعرف ايضا باسم « بيت الجماجم » . ومن الطريف أن هناك أماكن شرف فى تلك المقبرة لرؤساء الدير ، حيث توجد جماجمهم وعظامهم فى أرفف مستقلة مرتبة بعناية فوق قطع من القماش الفاخر ، بينما تكدست جماجم وعظام بقية الرهبان فوق بعضها فى غرفة واحدة (١) . ومن عادة الرهبان أيضا أنهم بعد انتهاء القداس يتناولون فنجانا من القهوة التركية ، ثم يتوجهون الى أعمالهم وفى العاشرة والنصف يدعون جميعا الى الفطور معا . وفى الثالثة بعد الظهر يؤدون صلاة المغرب ،

---

(١) أنظر عزيز سوريال عطية : الفهارس التحليلية لمخطوطات طور سيناء العربية ـ ترجمة جوزيف نسيم يوسف ـ ج ١ ـ الاسكندرية ١٩٧٠ ـ لوحة رقم ٥ ص ٥٢ ولوحة رقم ٩ ص ١٢٧ .

وبعدها يحين موعد تناول العشاء الذى يتناوله الرهبان فى خلوتهم . والمعروف أن حساب الزمن عند أولئك الرهبان يبدأ من غروب الشمس ( ) .

زوار سيناء فى العصر الوسيط :

هذا ، وقد توافد على منطقة سيناء وديرها طوال العصر الوسيط العديد من كبار الزوار من الشرق والغرب على السواء ، وبصفة خاصة أثنــاء العدوان الصليبى الذى تعرض له المشرق العربى خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر للميــلاد (القرنان السادس والسابع من الهجرة) ، ذلك العدوان الذى كان يستهدف الاستيلاء على الأراضى المقدسة لتكون نقطة ارتكاز يتوسع منها على حساب البلدان العربية المجــاورة ، تحقيقا لأطماعه واتجاهاته التوسعية . وكان المحاربون الصليبيون يقومون عادة بزيارة هذه المنطقة المقدسة وديرها وهم فى طريقهم الى الشرق تيمنا وتبركا . ولا تزال آثارهم من رمــوز وشعارات منقوشة على جدران الدير يمكن للزائر مشاهدتها حتى يومنا هذا . كذلك كان الحجاج المسيحيون من كل بقاع العالم يتوافدون على دير سيناء وهم فى طريقهم الى كنيسة القيامة فى بيت المقدس رغبة فى الحصــول على الغفران . وكانوا يقومون بحجهم الى الدير وهم آمنين مطمئنين فى ظل سياسة التسامح الاسلامى التى سارت عليها السلطات الاسلامية فى المنطقة حيال الحجاج المسيحيين (٢) .

---

(١) أنظر

Meistermann B , Guide du Nil an Jourdian I ar le Sinai to Pctra, Pa is. 1909. 137.

(٢) أنظر عن ذلك جوزيف نسيم يوسف : « دراسة فى وثائق العصرين الفاطمى والايوبى » ، ص ١٨٤ وما بعدها ، حسن حبشى : « التسامح الاسلامى تجاه دير سانت كاترين » ـ مقال بمجلة السياحة المصرية ـ العدد ١١٦ ـ القاهرة =

ومن بين كبار زوار الدير من رجال الفكر والقلم والسياسة فى العصر الوسيط شخص يدعى بيتر رودلف Peter-Rudolf وفريسكو بالدى Frescobaldi ، ونيقولا دى مارتونى Nicolas de Martoni وبيرو طافور Pēro Tafur ، وفيلكس فابرى Felix Fabri . وقد سجل بعضهم مشاهداته وملاحظاته فى كتب ومؤلفات لا تزال باقية الى اليوم . وهى تشهد بعظمة سيناء من ناحية ، وسعة صدر السلطات العربية وحسن معاملتهم لأولئك الحجاج والزوار من ناحية أخرى ( ) .

الآثار الاسلامية فى سيناء :

رأينا فيما سبق كيف أن شبه جزيرة طور سيناء كانت تتمتع بأهمية كبيرة فى تاريخ العالم الدينى منذ أقدم العصور ، وكيف أصبحت فى العصر الوسيط ملجأ للزهاد والعباد والمتنسكين . وقد وردت كلمة طور سيناء فى القرآن الكريم باسم « طور سينين » . جاء فى صورة التين « والتين والزيتون وطور سينين . وهذا البلد الأمين » (١) . كما وردت الاشارة اليها فى قوله تعالى فى سورة المؤمنون «وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين » (١) . والطور فى اللغة

سنة ١٢٦٦ ، ص ١٧ وما بعدها ؛ جمال الدين الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ـ ط . ثانية ـ الاسكندرية ١٩٦٥ ، ص ١١ وما بعدها . وسنتحدث عن هذه الناحية فى شىء من التفصيل عند استعراض مجموعة وثائق الخطية العربية المحفوظة بدير سيناء فى آخر البحث .

(١) مما يذكر أنه بدير سيناء دفاتر زيارات يرجع تاريخها الى هذا العهد السحيق . وقد وقع كل زائر فى الدفتر مع اثبات تاريخ الزيارة وملاحظاته . ولهذه الدفاتر أهمية كبيرة تمكن للدارس ان يستخلص منها معلومات قيمة .

(٢) القرآن الكريم ـ سورة التين الآيات ٢ و ٣ .

(٣) القرآن الكريم سورة المؤمنين الآية ٢٠ .

يعنى الجبل الذى يكسوه الشجر ، ولا يقال للجبل الأجرد طـــور ، أما سينين فمعناه الشجر . وعلى هذا فطور سيناء معناها منطقة الجبال التى تكسوها الأشجار والنباتات (١) .

فى هذه المنطقة الجبلية التى تكسوها الأشجار والنباتات ، تتجلى وحدة الدين فى أبهى صورها وأروعها ، فعند سفح أحد جبالها ، على مقربة من الموضع الذى يقال له « العليقة المشتعلة » ، يتعانق الهلال والصليب فى وحدة متينة راسخة ، حيث يوجد دير القديسة كاترينة ، والى جانبه مسجد يرجع تاريخه الى بداية القرن الثانى عشر الميلادى (أوائل القرن السادس الهجرى) .

والمعروف أن هذا المسجد أقيم حوالى سنة ٥٠٠ هـ ، وهى توافق سنة ١١٠٦م ، فى عهد الخليفة الآمر بأحكام الله الفاطمى (٤٩٦ - ٥٢٤ هـ) . وقد بنى هذا المسجد ليصلى فيه المسلمون الذين يسكنون فى ضواحى الدير ويقومون بحماية رهبانه . وبناؤه يرتفع ما يقرب من سبعة أمتار عن الجدار الشمالى الغربى من السور الدائر بالدير ، ويبعد ما يقرب من ستة أمتار عن واجهة الكنيسة الكبرى بالدير . ويبلغ طوله حوالى عشرة أمتار ، وعرضه سبعة أمتار وأرضيته من لوحات حجرية متراصة ، وتكسو جدرانه طبقة من الجير الأبيض . ومن كنوز المسجد وآثاره التاريخية القيمة ، أعمدته ، والمحراب ، والمنبر ، والمئذنة ، والكرسى وهو على شكل هرمى متكامل من أعلا . هذا ، بالاضافة الى

---

(١) جاء فى ياقوت : معجم البلدان - مجلد ٣ - ص ٥٦ « الطور فى كلام العرب الجبل . وقال بعض أهل اللغة لا يسمى طورا حتى يكون ذا شجر ، ولا يقال للاجرد طور . . . » وجاء فى نفس المصدر - ص ٥٥٨ ، ان سينين معناها شجر ومفردها سينية .

زخارف المسجد من التوريقات النباتية ، والنقوش الكتابية التى يبدو فيها جمال الخط العربى من كوفى ونسخى وثلث .

ويمتاز منبر الجامع بلوحته الخشبية التى تسجل بالخط الكوفى تاريخ إنشائه سنة ٥٠٠ هـ ، أيام الخليفة الآمر بأحكام الله الفاطمى . ونص النقش الكتابى هو :

بسم الله الرحمن الرحيم . لا إله الا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحى ويميت بيده الخير ، وهو على كل شىء قدير . نصر من الله وفتح قريب . لعبد الله ووليه ابى على المنصور الامام الآمر بأحكام الله أمير المؤمنين ، صلوات الله عليه ، وعلى آبائه الطاهرين ، وأبنائه المنتظرين . أمر بإنشاء هذا المنبر السيد الأجل الافضل أمير الجيوش ، سيف الاسلام ، ناصر الامام ، كافل قضاة المسلمين ، وهادى دعاة المؤمنين ، ابو القاسم شاهنشاه ، عضد الله به الدين ، وأمتع بطول بقائه أمير المسلمين ، وأدام قدرته ، وأعلا كلمته ، وذلك فى شهر ربيع الاول سنة خمس مائة ، (١) .

وإلى جانب هذا المسجد ، الذى لا يزال باقيا إلى اليوم ، وجد عدد من المساجد الصغيرة بمنطقة سيناء ، مثل المسجد المقام بجبل موسى ، وآخر بجبل وادى فيران ، وثالث عند حصن الساحل بأيلة . ويكاد يوجد مسجد صغير فوق قمة كل جبل من جبال سيناء ، وإلى جانب كل مسجد توجد كنيسة صغيرة ، معبرة عن وحدة الدين وروح التسامح الاسلامى .

---

(١) للمزيد من التفاصيل عن مجد سيناء ، أنظر السيد عبد العزيز سالم : والآثار الاسلامية فى دير سانت كاترين بطور سيناء ، مقال بمجلة العلوم ببيروت العدد الاول يناير ١٩٦٥ ، ص ٣ وما بعدها .

الآثار المسيحية في سيناء :

وإذ كنا قد تحدثنا عن مسجد سيناء باعتباره من أهم آثار الإسلامية فى شبه الجزيرة ، ان لم يكن أهمها على الإطلاق ، فلا شك أن أهم آثار المسيحية فى المنطقة هو دير القديسة كاترينة ، الذى أمر امبراطور الروم جستنيان الأول بتأسيسه فى أواسط القرن السادس الميلادى ، لحماية الرهبان المنقطعين هناك من غارات المغيرين . وقد سبق الاشارة الى تاريخ الدير وقصته والى رهبانه ونواحى حياتهم وعاداتهم ومعيشتهم . ونضيف أن هذا الدير يعتبر من روائع سيناء ، وهو يقع على ارتفاع ١٥٦٠ مترا من سطح البحر ، وتحيط به أكثر جبال المنطقة ارتفاعا وكأنها تحتضنه : وداخل هذا الدير وبين جدرانه يعيش الرهبان المسيحيون الذين يتبعون طائفة الروم الأرثوذكس ، منقطعين للصلاة والعبادة والتأمل فى ذات الله العلية . يعيشون لربهم وهم يتمتعون بعطف وحماية السلطات العربية لهم منذ الفتح العربى وحتى اليوم مما يكشف عن تسامح الاسلام ورعايته الصادقة للأديان السماوية (١) .

ويعتبر هذا الدير من أقدم الأديرة فى العالم وأكثرها شهرة حتى أصبح مكانا يقصده الحجاج والسياح من كل مكان على مر العصور . ويحيط سياج الدير ، أى سوره ، بشكل مستطيل غير منتظم الأضلاع . وقد أصيب هذا السور بأضرار جسيمة بسبب الزلزال الذى وقع سنة ١٣١٢م (أى بدايات القرن الثامن الهجرى) . وكانت السلطات العربية فى مصر تبعث من يقوم بأعمال الترميم والاصلاح كلما تهدم قسم منه .

---

(١) أنظر جوزيف نسيم يوسف : دراسات فى المخطوطات العربية ، ص ٩٥ - ٩٦ .

ويضم الدير عدداً كبيرا من الأبنية والمنشئات . منها الكاتدرائية أو الكنيسة الكبرى التي تشغل وسط الدير ، ثم المقبرة الملحقة بها ، وعددا من الكنائس الصغرى ، الى جانب مخازن الغلال ، والمطاحن ، والمعاصر ، والمطابخ ، وغرف النزلاء ، وغرف الرهبان ، وبعض القاعات ، والمكتبة التي تحوى كنوزا لا تقدر بمال من الوثائق والمخطوطات بمختلف اللغات لم تر النور بعد .

ولا يزال هذا الدير شاخصا حتى اليوم يروى قصة قرون عديدة خلت . وهو يعتبر آية من آيات الفن والمعمار في العصر الوسيط ، من حيث ما احتواه من القباب والمباني الرائعة ، والصور الجميلة ، والفسيفساء ذات الألوان الزاهية ، التي لا زالت تحتفظ بجمالها وألوانها حتى يومنا هذا . فضلا عما يحويه من الكئوس والأواني والآثار المقدسة من ذهبية وفضية (١) . ومن أروع آثاره ذلك التابوت الفضي الذي بعثت به روسيا الى الدير لحفظ رفات القديسة كاترينة بداخله وعليه شكل يمثل القديسة وقد طعم بالذهب والأحجار الكريمة (٢) . ومع ما للدير من أهمية ، فانها لا تقاس بجانب مجموعة الصور الدينية التي توجد به ، والتي لا مثيل لها في العالم ، خاصة اذا عرفنا أن حركة محطمي الصور والتماثيل في دولة الروم في القرن الثامن الميلادى (القرن الثاني الهجرى) ، والتي لم تسلم منها كنيسة أو دير في العالم المسيحي وقتها ، لم تمتد إلى دير القديسة كاترينة ، فحفظ تراثنا يتميز بأهميته (٣) .

---

(١) أنظر جوزيف نسيم يوسف : نفس البحث السابق ، ص ٩٦ .

(٢) أنظر عزيز سوريال عطيه : الفهارس التحليلية لمخطوطات طور سيناء العربية جـ ١ - لوحة رقم ٤ ص ٣٣ .

(٣) أنظر جوزيف نسيم يوسف : دراسات في المخطوطات العربية ، ص ٩٦ .

ومما يستحق الذكر هنا ، أن دير سيناء يضم بعض العناصر الفنية ذات التأثيرات الاسلامية الواضحة تتمثل بصفة خاصة فى الأبواب الخشبية للكنيسة الكبرى ، وفى التكوينات الهندسية والزخارف النباتية والنقوش العربية الجميلة التى تزدان بها الكنيسة . وكل هذا يكشف عن مدى تأثر دير سيناء ومبانيه بالفن الاسلامى عقب حركة الفتح (١) .

واذا كنا قد تحدثنا عن أهم الآثار الاسلامية والمسيحية فى سيناء التى تتمثل فى كل من المسجد والكنيسة ، نقول ان اقامة الجامع إلى جانب الكنيسة يعكس وحدة أزلية رائعة يتعانق فيها الهلال مع الصليب . فبينما المسلمون يؤدون فروض الصلاة فى المسجد أيام الجمع والأعياد ، يؤدون المسيحيون شعائر العبادة فى كنيسة الدير فى أيام الآحاد والمناسبات الدينية المقررة . وكان كل منهما يكن للآخر حبا ومودة واحتراما على مدى الأجيال والقرون . هذا ، بينما أسبغت السلطات العربية حمايتها على الدير ورعايتها لرهبانه الذين يقومون بايواء العرب المقيمين فى ضواحيه ، ويتولى أولئك العرب بدورهم حماية الرهبان من الاغارات التى كانوا يتعرضون لها بين وقت وآخر (٢) .

---

(١) حول أهم التأثيرات الاسلامية فى دير سيناء ، أنظر السيد عبد العزيز : الاثار الاسلامية فى دير سانت كاترين ، ص ٦ - ٨ .

(٢) تلقى الوثائق العربية التى ترجع إلى العصور الفاطمى والايوبى والمملوكى ، والمحفوظة بمكتبة دير سيناء ، أضواء ساطعة على هذا التماسك المتين بين المسلمين والمسيحيين فى المنطقة ، وعلى سياسة التسامح التى عاش فى ظلها رهبان الدير . أنظر جوزيف نسيم يوسف : دراسة فى وثائق العصرين الفاطمى والايوبى ، ص ١٨٤ وما بعدها و ١٨٧ وما بعدها .

المخطوطات العربية فى سيناء وأهميتها :

بعد أن أشرنا إلى أهم الاثار الاسلامية والمسيحية التى توجد فى شبه جزيرة سيناء ، والتى ترجع إلى الفترة الوسيطة من التاريخ ، نلقى بعض الأضواء على المجموعة الخطية العربية المحفوظة بمكتبة الدير ، والتى تمتاز بقيمتها التى يصعب تقديرها .

تحتوى المكتبة على مجموعة نادرة من المخطوطات التى دونت فيما بين القرنين الثامن والتاسع عشر للميلاد . ويبلغ عددها حوالى ٤٥٠٠ مخطوطة مكتوبة باثنتى عشرة لغة هى : العربية ، واليونانية القديمة ، والسريانية ، والقبطية ، والجورجيانية ، والحبشية القديمة ، والتركية ، والفارسية ، والأرمينية ، واللاتينية ، والسلافونية ، والبولونية (١) . وتحتل مجموعة المخطوطات العربية التى يبلغ عددها ٦٠٠ مخطوطة مكانه بارزة من بين هذه المخطوطات (٢) . اذ تتناول دراسات تمتاز بقيمتها البالغة فى النواحى العلمية والتاريخية والفلسفية والفكرية والثقافية . وهى تضم كتبا عديدة فريدة فى نوعها تزود الدارس

---

(١) يدل تعدد لغات المجموعة الخطية المحفوظة بمكتبة سيناء على تعدد الأجناس التى عاشت فى الدير فى مختلف العصور . أنظر احمد محمد عيسى : مخطوطات ووثائق دير سانت كاترين بسيناء ، مقال بالمجلة التاريخية المصرية ـ المجلد الخامس (١٩٥٦) ـ القاهرة : ١٩٥٦ ، ص ١١٩ .

(٢) عدد مخطوطات المجموعة العربية أصلا ٦٩٧ مخطوطة ، منها ٣٦ فاقد و٥٩ كتابا مطبوعا ادرج ضمن المخطوطات ، ومخطوطات قبطية وأخرى فارسية ادرجت أيضا خطأ ضمن المجموعة العربية . وعلى هذا يكون مجموع المخطوطات العربية المتبقية بالدير ٦٠٠ مخطوطة فقط . أنظر جوزيف نسيم يوسف : دراسات فى المخطوطات العربية ، ص ٩٩ .

المتخصص بقدر كبير من المعلومات فى شتى أفرع الحضارة الانسانية ، كما تزوده بالعديد من الموضوعات فى ميادين متشعبة من الدراسات الانسانية مثل التاريخ والقانون والفلسفة ، إلى جانب الطب والعلوم والفلك والموسيقى وغيرها .

وقد دون غالبية هذه المخطوطات فى الفترة الوسيطة من التاريخ ، وهى تشتمل على كتب مدونة بأنواع عديدة من الخطوط العربية ، تمدنا بقدر كبير من المعلومات المتعلقة بالخطوط العربية ، وتزودنا بمادة قيمة عن نمو هذه الخطوط وتطورها والأشكال المختلفة التى كانت تكتب بها ، من كوفى ونسخى ورقعة ونستعليق وثلث وتعليق . كذلك تتميز أغلفة بعض هذه المخطوطات بزخارفها ونقوشها وحلياتها التى يبدو فيها الأثر العربى واضحـــا . وتنتهى معظم هذه المخطوطات أيضا بخواتيم ، أى نهايات ، تلقى الضـــوء على قصة الدير وتنظيمه الادارى على مر العصور ، وتمدنا بسجل حى متحرك الكثير من التفاصيل الهامة المتعلقة بالحوادث العامة أو المحلية فى فترات عديدة من التاريخ ، أغفلتها المصادر التاريخية أو مرت عليها مر الكرام . كما أنها تعرفنا أحيانا بأسماء كتاب هـذه المخطوطات أو مترجمها أو ناسخيها أو ناقليها ، وماإلى ذلك من بيانات ومعلومات هامة قيمة مثل مصادر المخطوطات ، وهل هى أصلية أو منسوخة . ثم أن هذه الخواتيم الوارده فى كثيرة من المخطوطات العربية ،تعدد مختلف التقاويم أو التواريخ المعروفة حسب تسلسلها زمنيا وهى : تاريخ العـــالم المعروف بتاريخ آدم أو الخليقة ، وتاريخ الاسكندر اليونانى ، والتقويم الميلادى اللاتينى ، والتاريخ القبطى المعروف بتقويم الشهداء ، والتقويم الهجرى . وهذه التقاويم تشكل عناصر هامة لدراسات خصبة لموضوعات نادرة .

ولا تقتصر أهمية المجموعة الخطية العربية على ما ذكرنا فحسب ، فجانب كبير من مخطوطاتها ملىء بالتعليقات الاضافية الهامة المحشورة بين السطور أو المدونة

بالهوامش الجانبية .وهى تمتاز بقيمتها الفائقة ، إذ تتناول معلومات عامة من أخبار وحوادث ، ومواليد ووفيات ، وسير وتراجم ، ووقائع تاريخية ، ووصفات طبية ، ونبذ فى الفلسفة والموسيقى والفلك والعلوم ، وما إلى ذلك من نواحى المعرفة .

ويلاحظ أن معظم هذه المخطوطات مدون على ورق ، ولكن عددا قليلا منها مكتوب على رق غزال . ويوجد فى المجموعة العربية عدد من هذه المخطوطات العتيقة المكتوبة على الرق ، وقد غسلت صحائفها من الحبر القديم لتكون معدة للكتابة عليها من جديد . وقد تصل طبقات الكتابة فى عديد منها إلى ست طبقات فوق بعضها يمكن التعرف على مضمونها . ونجد آثار المحو والازالة لا تزال باقية فى عدد من هذه المخطوطات التى تعرف اصطلاحا باسم « المخطوطات المغسولة » . وهذه الظاهرة الهامة لا تزال بحاجة الى المزيد من الدراسة والبحث (١) .

ولعل أهم ما يلفت النظر فى معظم المخطوطات العربية ذات الطابع المسيحى ، هو وجود التأثيرات العربية الاسلامية فيها . وتبدو هذه التأثيرات واضحة بعد أن أصبحت شبه جزيرة سيناء بديرها وآثارها تابعة للسيادة العربية . فكان كثير من المخطوطات العربية المسيحية العتيقة تستهل بالبسملة وتختتم بالحمدلة وتؤرخ بالتقويم الهجرى . والامثلة على ذلك كثيرة . إذ تبدأ أسفار الكتاب المقدس عند المسيحيين فى كثير من هذه المخطوطات كالآتى : « بسم الله الرحمن الرحيم نبتدى

---

(١) تناولت هذه النقاط فى شىء من التفصيل والتحليل فى بحث لى بعنوان « دراسات فى المخطوطات العربية بدير القديسة كاترينة فى سيناء » ص ٩٨ - ١٢٦ . انظر ايضا عزيز سوريال عطية : الفهارس التحليلية لمخطوطات طور سيناء العربية - جـ ١ ، ص ٣٠ وما بعدها .

بعون الله ونكتب أول سفر . . إن أول ماخلق الله السماء والأرض... الخ»(١).
كما أطلق على كثير من الرسل والقديسين المسيحيين اسم «المصطفى» بدلا من
كلمة «البشير» أو «الانجيلى» (٢) . كذلك ازدانت كثير من تلك المخطوطات
وأغلفتها بنقوش ورسوم وزخارف ملونة ، على هيئة طيور وورود وأزهار
وتوريقات نباتية أو اطارات وأفاريز على النسق العربي (٣) . والخلاصة أن اللغة
العربية بحصيلتها اللغوية الخصبة وأسلوبها الجزل وتعبيراتها السلسة المتدفقة ،
ومفرداتها الفنية ، قد طعمت المخطوطات العربية ذات الطابع المسيحى، فاكسبتها
رونقا وبهاء وتعبيرا سليما قويا كانت تفتقر اليه من قبل .

هذه أضواء جديدة تسلط لأول مرة على مخطوطات طور سيناء العربية ، يصح
أن تكون مجالا لدراسات مستفيضة قائمة بذاتها ، تخدم ناحية من نواحى البحث

---

(١) انظر مخطوط رقم ٢ سيناء - عربى، موضوعه «سفر التكوين» ، تاريخه سنة ٣٢٨هـ/٩٣٠م . كاتبه مجهول ، ورقة ٢ ا ، وكذلك مخطوط رقم ٣٠ سيناء - عربى، موضوعه «مزامير وتسابيح» ، تاريخه ٣٦٧هـ/٩٧٧م . كاتبه مجهول ، ورقة ٢ ب .

(٢) أنظر جوزيف نسيم يوسف : «بستان الرهبان : عرض وتحليل النسخة الخطية العربية غير المنشورة المحفوظة بمكتبة دير سيناء» - مقال بمجلة كلية الاداب بجامعة الاسكندرية - العدد ٢٣ - الاسكندرية ١٩٦١ ، ص ٥٩ ح ١ .

(٣) أنظر ، على سبيل المثال ، المخطوطات العربية بسيناء التى تحمل ارقام ٦١، ٦٨، ٧٦، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨٤، ٨٧، ٩٠، ٩٢، ٩٥ .... الخ .
والتى يبدو فيها الطابع العربى جليا واضحا . راجع مقالى «دراسات فى المخطوطات العربية» ، ص ١٠٠ ، ١١٢ وما بعدها .

العلمى ، وتضيف الكثير الى العلم والتاريخ ( ) .

وثائق سيناء العربية وقيمتها التاريخية :

وإذا كنا قد تحدثنا عن المجموعة الخطية العربية بسيناء وأهميتها التى تتمتع بها ، فهناك مجموعة أخرى لا تقل عنها أهمية هى الوثائق التى يحتفظ بها مكتبة الدير ، والتى تتميز بجدتها وأصالتها ، فضلا عن أن الجانب الأكبر منها لم ينشر بعد . ويبلغ عددها ١٧٤٢ وثيقة ، منها ١٠٧٢ وثيقة باللغة العربية و٦٧٠ وثيقة باللغة التركية . وهى تشتمل على عهود ومراسيم وصكوك ومنشورات وفرمانات ومعاهدات وفتاوى وحجج ومحاضر وأوامر إدارية ومتنوعات (٢) . وتحتفظ كلية الاداب بجامعة الاسكندرية بصور ميكروفيلم لها يمكن للباحث المتخصص الرجوع اليها والافادة منها (٣) .

وأهم الوثائق العربية هى تلك الصادرة من ديوان الانشاء بمصر فى عهود الفاطميين والأيوبيين والمماليك والعثمانيين الى الدير ورئيسه ورهبانه . وهى تلقى الضوء على طبيعة العلاقات بين رهبان الدير وبعضهم البعض ، وبينهم وبين العرب المحيطين بالدير ، وبين هذه الاطراف والسلطات المسئولة فى مصر . ثم أنها تكشف عن الوضع الاقتصادى لمنطقة سيناء فى العصر الاسلامى الوسيط . وهى فوق هذا وذاك ، تكشف عن سيسة التسامح التى سارت عليها السلطات العربية حيال أهل الذمة . لقد أوضحت بجلاء أن رهبان طور سيناء كانوا يعيشون فى

(١) حول الجديد فى المجموعة الخطية العربية بطور سيناء ، انظر مقالى « دراسات فى المخطوطات العربية » ، ص ١٠٣ وما بعدها و ١٣٦ .

(٢) أنظر مراد كامل : فهرست دير سانت كاترين بطور سيناء ـ الجزء الاول ـ القاهرة ١٩٥١ ، ١٢٩ - ٢٣٣ .

(٣) جوزيف نسيم يوسف : «دراسة فى وثائق العصرين الفاطمى والايوبى» ، ص ١٨١ ، و « دراسات فى المخطوطات العربية » ، ص ٩٧ .

ديرهم الذاتي ، وهم هادئين آمنين مطمئنين ، دون أن يلحقهم أذى أو يصيبهم مكروه مع تأمين طريق الحجاج الذين كانوا يقدمون بحجهم إلى هذا المكان المقدس . لقد اشتهر المسلمون بسعة صدرهم وتسامحهم الصادق في أمور الدين وفي الحريات الشخصية . وذلك يرجع لما انطوى عليه الدين الاسلامي من روح التسامح والمحبة لا سيما مع أهل الذمة . ويبدو هذا بجلاء في جميع الوثائق العربية المشار اليها .

ففي منشور يرجع إلى أواسط القرن السادس الهجري (أواسط القرن الثاني عشر الميلادي) ، صادر من ديوان الخليفة الفاطمي الفائز بنصر الله (٥٤٩ - ٥٥٥هـ) إلى أسقف طور سيناء ورهبانه ، جاء ما يلي :

« . . . أنه لما كان من شيمنا إزالة المحرمات وتعقبة آثارها ، والمنع من الاستمرار عليها ، وتأكيد انكارها ، ورعاية من يحتوي عليه نطاق مملكتنا من أهل الذمة ، واعتمادهم بما يسبغ عليهم ملابس الحنو والرحمة . تساوى في عدلنا الصغير والكبير ، وشملهم من حسن نظرنا ما يسهل عليهم من المطالب كل مستصعب عسير . . . » (١) .

وفي منشور آخر صادر بتاريخ ٥٩٢هـ / ١١٩٥م من ديوان الملك العادل أبي بكر بن أيوب إلى رهبان طور سيناء ، جاء بعد البسملة والافتتاحة : « . . . انا لم نزل ولله الحمد نذب عن الرعايا الذين فوض الله تعالى أمرهم الينا ، واحالت الشريعة الطاهرة في حياطتهم علينا فنكف كف الأذى عنهم ، ونجازي على الاحسان من سلك طريقه منهم فنقيل عثرتهم ، ونكشف كربتهم وغمتهم ، ونضاعف ذلك لبطاركتهم ورهبانهم ومسيحيهم . وساكني الصوامع من

---

(١) أنظر الوثيقة رقم ١٠ سيناء - عربي ، مقاس ٤٨٨ × ٢١ سم ، تاريخ ربيع الثاني ٥٥١هـ (مايو - يونيو ١١٥٦م) ، الاسطر ١٢ - ٢٠ .

زهادهم ، والمنقطعين بالأديرة من عبادهم .... (١) .

دور جامعة الاسكندرية فى الكشف عن آثار سيناء وكنوزها :

لقد اجتذبت الكنوز والآثار الاسلامية والمسيحية فى سيناء أنظار الدارسين والباحثين من مختلف أنحاء العالم الذين يفدون إلى المنطقة بقصد الدراسة والبحث . وللجامعة الاسكندرية بجمهورية مصر العربية دور كبير فى تسليط الاضواء على تلك النفائس من النواحى التاريخية والاثرية والفنية . اذ اسهمت فى منتصف هذا القرن بدور بارز فى هذا المضمار . ففى سنة ١٩٥٠م قامت بعثة علمية من كلية الاداب بالاسكندرية بتصوير أهم مخطوطات الدير ووثائقه . وكان على رأسها المرحوم الاستاذ عبد الحميد العبادى أول عميد لاداب اسكندرية . وقامت البعثة بالفعل بعمل صور ميكروفيلم لاهم هذه الوثائق والمخطوطات .

و توالت بعد ذلك الزيارات العلمية التى قامت بها جامعة الاسكندرية بالاشتراك مع بعض الهيئات العلمية بالخارج ، لاستكمال العمل الذى بدأته بعثة سنة ١٩٥٠م وكانت آخرها بعثة سنة ١٩٦٣م التى قامت بها كلية الاداب ، وكان على رأسها المرحوم الدكتور احمد فكرى استاذ التاريخ والحضـــارة الاسلامية بآداب الاسكندرية سابقا . وكان من حسن حظى أن أتيحت لى فرصة الاشتراك فى هذه البعثة الأخيرة ، حيث قمت بزيارة منطقة سيناء وآثارها مرتين فى أواخر سنة ١٩٦٣م . وتهيأت لى فرصة مشاهدة معالم المنطقة ، والاطلاع على عدد غير قليل من الوثائق والمخطوطات التى تحتفظ بها مكتبة الدير (٢) .

---

(١) أنظر الوثيقة رقم ١١ سيناء - عربى ، مقاس ٥٤٢×١٩٫٥ سم ، تاريخ ١٦ محرم ٥٩٢هـ (٢١ ديسمبر ١١٩٥م) ، الاسطر ١٤ - ٢١ .

(٢) للمزيد من المعلومات عن هـــذه البعثات العلمية وتواريخهـــا وما حققته من انجازات ، أنظر مقالى « دراسة فى وثائق العصرين الفاطمى =

بحوث ودراسات جادة قيمة عن سيناء وآثارها وكنوزها :

ولقد أثمرت تلك الزيارات العلمية التى قامت بها جامعة الاسكندرية إلى منطقة سيناء ، إعتبارا من سنة ١٩٥٠م وحتى أواخر سنة ١٩٦٣م ، بظهور العديد من البحوث والدراسات الجادة القيمة ، عن سيناء وآثارها ووثائقها ومخطوطاتها . ونشرت هذه البحوث فى المجلات والدوريات العلمية . وزودت المكتبة العربية بمادة قيمة من الطراز الأول ، عن المنطقة وجغرافيتها وتاريخها وآثارها . كذلك ظهرت مقالات عديدة باللغات الأجنبية فى الخارج ، بقلم علماء زاروا المنطقة وقاموا بدراسات أثرية وفنية وتاريخية فيها ، وهى تكشف عن عظمة تراثنا القومى العربى فى هذه المنطقة الهامة من الوطن العربى (١) .

وأخيرا ظهر فى المكتبة العربية الجزء الأول من الفهارس التحليلية لمخطوطات طور سيناء العربية . وهو يتضمن فهارس كاملة مع دراسة وصفية تحليلية دقيقة لثلاثمائة مخطوطة تشكل نصف عدد المجموعة الخطية العربية . وقد قمنا باعداده

= والأيوبى » ، ص ١٧٩ ح ٢ و ١٨٠ ح ٢ .

(١) من الصعب عمل حصر شامل للعلماء الذين زاروا المنطقة وأثروا المكتبة العربية بدراساتهم الجادة عن خصوص سيناء ووثائقها وكنوزها وآثارها الفنية والمعمارية . ولكن نذكر من بين هؤلاء الاستاذ كورت فايتزمان Kurt Weitzmann ، والاستاذ جورج فورسايث George Forsyth ، والاستاذ عزيز سوريال عطية . كما ظهرت بمجلة كلية الاداب بجامعة الاسكندرية فى اعدادها المتعاقبة عدة بحوث لاساتذة متخصصين فى الميادين التاريخية والاثرية والفنية ، من بينها اكثر من دراسة لكاتب هذا البحث .

وتزويده بكشاف علمى مصنف يسهل للباحثين عملية البحث فيه (١) . وسوف يصدر الجزء الثانى والأخير متضمنا فهارس باقى المجموعة فى القريب باذن الله.

وتمثل هذه الفهارس الجامعة المانعة التى ترى النور المرة الأولى لتحتل المكانة اللائقة بها بين المجموعات الببليوجرافية المعاصرة ، تمثل أول دراسة تفصيلية نقدية كاملة لمحتويات المجموعة الخطية العربية بسيناء التى تتميز بشهرتها العالمية الفائقة . فضلا عن أنها تسجيل علمى دقيق لهذا التراث الانسانى القيم وحفاظا له من العبث أو الضياع . وسوف تضع هذه الفهارس فى متناول الباحثين والمستشرقين ، والمعنيين بالدراسات العربية والتاريخية والفلسفية واللاهوتية ، فى شتى أنحاء العالم ، أتم وأدق معلومات تتعلق بهذا التراث الدائم العظيم. وسوف تتيح لكل منهم امكانيات خصبة واسعة فى مختلف مجالات البحث العلمى .

---

(١) أنظر عزيز سوريال عطية : الفهارس التحليلية لمخطوطات طور سيناء العربية : فهارس كاملة مع دراسة تحليلية للمخطوطات العربية بدير القديسة كاترينة بطور سيناء - ترجمة وتقديم وتعليق د جوزيف نسيم يوسف : الجزء الأول - الاسكندرية ١٩٧٠ . وقد ظهر عرض وتقريظ لهذا المجلد فى احدى الدوريات العلمية التى تصدر فى ألمانيا واسمها « الاسلام » . أنظر :

Der Islam Zeitschrift fur Geschichte und Kultur des islamischen Orients Band 49. Heft 1, Berlin, Juni 1972, P. 140.

البحث الثاني

دراسات فى المخطوطات العربية

بدير القديسة كاترينة فى سيناء

بحث نشر بمجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية ـ العدد ٢٢ ـ الاسكندرية

(مصر) ١٩٦٩ ـ ص ٩٥ - ١٣٦ .

مقدمة :

يعتبر دير القديسة كاترينة الرابض فى أحضان جبل موسى فى قلب جزيرة سيناء ، على إرتفاع ١٥٦٠ متراً من مستوى سطح البحر ، من الآثار الخالدة للامبراطور البيزنطى جستنيان وزوجه الامبراطورة تيودورا . وقد نسب الدير متأخراً إلى القديسة كاترينة السكندرية التى كانت قد تركت عبادة الأوثان ، واعتنقت المسيحية وأخذت تدعو لها ، فانزعج الوثنيون وضايقوها إلى أن انتهى الأمر باستشهادها . فلما أقيم الدير بأمر جستنيان فى حوالى منتصف القرن السادس الميلادى ، نقلوا إليه رفاتها ، ومن ثم سمى باسمها ، وكان ذلك فى القرن الثامن ، أى بعد وفاة هذه القديسة بمئات من السنين . وداخل هذا الدير وبين جدرانه يعيش بعض الرهبان ، منقطعين للصلاة والعبادة والتأمل فى ذات الله العلية (١) . يعيشون لربهم وهم يتمتعون بعطف وحماية الحكام المسلمين فى مصر فى العصور

---

(١) حول الدير وتاريخه والقديسة كاترينه ، أنظر المراجع التالية : حسن مظهر : تاريخ دير القديسة كاترين - مقال بمجلة السياحة المصرية - العدد ١١٦ (١٩٦٦) ص ١٩ - ٢٦ . راجع أيضا مؤلفات رابينو وباسيلى وفورسايث التالية Rabino' M. H. L., Le : Monastére de Sainte Catherine du Mont - Sinai, Le Caire, 1938, 11 ff.; Bassili, W. F., Sinai and St. Catherine Monastery, Cairo, 1957, 77 ; Forsyth, G. H., Island of Faith in the Sinai Wilderness, National Geographic Magazine, January 1964, 84 ff.

وتزودنا كتب الرحالة والجغرافيين العرب والأجانب الذين زاروا سيناء ومنطقة الدير على مر العصور ، وكذلك كتب المسالك والممالك والخطط العربية بمادة غزيرة قيمة بهذا الخصوص . وقد وردت الإشارة إلى سيناء فى كتاب الله =

التاريخية المختلفة ، مما يكشف عن تسامح الاسلام ورعايته الصادقة للأديان السماوية (١) .

ولا يزال دير القديسة كاترينة شاخصاً حتى اليوم يروى قصة قرون عديدة خلت . فهو آية من آيات الفن والمعمار البيزنطى ، من حيث جماله وما احتواه من المبانى والقباب الرائعة، والصور واللوحات النادرة، والفسيفساء ذات الألوان الخلابة الزاهية ، التى لا زالت تحتفظ برونقها وبهائها حتى يومنا هذا . فضلا عما يحويه من الكئوس والأوانى والذخائر المقدسة من ذهبية وفضية . ومع ما للدير من أهمية فائقة ، فانها لا تقاس بجانب مجموعة الأيقونات التى توجد به ، والتى لا يوجد مثيل لها فى العالم ، خاصة إذا عرفنا أن حركة محطمى الأصنام فى القرن الثامن الميلادى ، التى بدأها الامبراطور البيزنطى ليو الثالث الأيسورى (٧١٧-٧٤٠) ، ولم تسلم منها كنيسة أو دير فى العالم المسيحى المعروف وقتذاك، لم تمتد إلى دير القديسة كاترينه لبعده وانعزاله ، فحفظت لنا تراثاً له قيمته الأثرية والتاريخيه والفنيه التى يصعب تقديرها .

= « والتين والزيتون . وطور سينين . وهذا البلد الأمين » . أنظر القرآن الكريم سورة التين - الآيات ١ - ٣ .

(١) أنظر عن ذلك مقالى المعنون « دراسة فى وثائق المصريين الفاطمى والأيوبى المحفوظه بمكتبة دير سانت كاترين فى سيناء » - مجلة كلية الآداب - جامعة الاسكندرية - العدد ١٨ (١٩٦٤) الاسكندريه ١٩٦٥ - ص ١٨٤ وما بعدها، ١٨٩ - ١٩٠ . راجع أيضا حسن حبشى : التسامح الاسلامى تجاه دير سانت كاترين - مقال بمجلة السياحه المصريه - العدد ١١٦ (١٩٦٦) - ص ١٧ - ١٨ ؛ جمال الدين الشيال : مجموعه الوثائق الفاطميه - المجلد الاول - ط . ثانيه - الاسكندريه ١٩٦٥ - ص ١١ - ١٢ .

وإلى جانب هذه المجموعة من المخلفات والذخائر المقدسة ، توجد مجموعة أخرى لاتقل عنها فى أهميتها ، وهى المخطوطات والوثائق التى يحتفظ بها الدير. إذ تتمتع مكتبته بصيت ذائع فى كافه الاوساط العلميه ، حتى أنها اجتذبت اليها أنظار الدارسين من مختلف أنحاء العالم .فهى تحتوى على وثائق ومخطوطات نادرة ظلت قابعه بالدير لأجيال طويلة ، لقيت فيها الكثير من الاهمال . ولكنها نقلت أخيراً إلى مخزن جديد تتوفر فيه وسائل الاضاءة والنظافة والتهوية وأصبحت موضع اهتمام المسئولين بالدير وعنايتهم .

وتضم هذه المكتبه مجموعه نادرة من المخطوطات التى دونت فيما بين القرنين السادس والتاسع عشر ، يبلغ عددها قرابه ٤٠٠٠ مخطوطة، مكتوبه باثنتى عشرة لغة هى : العربية ، واليونانيه القديمة ، والسريانية ، والقبطية ، والجورجيانية ، والحبشيه القديمة ، والتركية ، والفارسية، والارمينية، واللاتينيه، والسلافونية ، والبولونية (١) . وقد تجمعت هذه المخطوطات فى الدير منذ انشائه، وأخذ عددها يزداد على مر العصور ، بفضل الرهبان الذين كانوا يفدون اليه من كل مكان . كذلك يحتفظ الدير بمجموعه هائلة من الوثائق التى تتميز بجدتها وأصالتها، والتى يبلغ عددها ١٧٤٢ وثيقة ، منها ١٠٧٢ وثيقة باللغه العربية و٦٧٠ وثيقه باللغة التركية (٢) ، وهى تحتوى على عهود وصكوك ومراسيم ومنشورات وفرامانات ومعاهدات وفتاوى وحجج ومحاضر وأوامر إدارية .

---

(١) يدل تعدد لغات المجموعة الخطية على تعدد القوميات التى عاشت بالدير فى مختلف العصور على امتداد أربعه عشر قرنا أو يزيد . أنظر احمد محمد عيسى : مخطوطات ووثائق دير سانت كاترين بسيناء ـ مقال بالمجلة التاريخيه المصرية ـ المجلد الخامس (١٩٥٦) ـ القاهرة ١٩٥٦ ـ ص ١١٩ .

(٢) ذكر الدكتور مراد كامل فى مقال بمجلة السياحة المصرية أن عدد =

بعثتا جامعة الاسكندرية والهيئات العلمية الامريكية إلى الدير :

ظلت هذه النفائس منمورة فى الدير قروناً طويلة، لا يكاد يحس بها أحد حتى أوائل القرن العشرين حينما بدأت أنظار العلماء تتجه إليها، ويحاول الكشف عنها وتسليط الاضواء عليها . وقد أسهمت جامعة الإسكندرية فى أواسط هذا القرن بدور بارز فى هذا المضمار . ففى سنة ١٩٥٠ قامت بعثة مشتركة من جامعة الاسكندرية ومكتبة الكونجرس الامريكية لتصوير أهم مخطوطـــات الدير بالميكروفيلم، وكان على رأسها المرحوم الاستاذ عبد الحميد العبادى أول عميد لآداب الاسكندرية، والدكتور عزيز سوريال عطيه أستاذ تاريخ العصور الوسطى السابق بها، وكبير أساتذة التاريخ بجامعة يوتا الامريكيه حالياً. وقامت البعثة بالفعل بعمل صور ميكروفيلم لأهم هذه المخطوطات . وكانت النتائج التى حققتها تفوق حد التصور . إذ تم تصوير مليون ورقة مأخوذة من خمسة آلاف مخطوطه ووثيقة مكتوبة باثنتى عشرة لغة . وقد احتفظت كل من كلية الآداب بجامعة الاسكندرية ومكتبة الكونجرس بواشنطون بنسخ من صور الميكروفيلم الخاصة بهذه المخطوطات، حتى تكون فى متناول الدارسين والباحثين ينهلون من فيضها .

وفى عام ١٩٦٣ قامت بعثة أخرى اشتركت فيها كل من جامعة الاسكندرية

= الوثائق العربية ١٠٦٧ وثيقه فى حين أنها ١٠٧٢، وأن الوثائق التركية عددها ٥٤٩ والواقع أن عددها ٦٧٠ وثيقة . أنظر مراد كامل : الكنوز الخطية بدير سانت كاترين بطور سيناء - مقال بمجلة السياحة المصريه - العدد ١١٦ (١٩٦٦)- ص ٢٩ . ويلاحظ أن سيادته ذكر الرقم الصحيح لهذه الوثائق فى الفهرست . أنظر مراد كامل : فهرست مكتبة دير سانت كاترين بطور سيناء - جـ١ (القاهرة ١٩٥١) ص ١٣١ و ص ١٩٧ .

وجامعتى متشيجان وبرنستون بأمريكا لمواصلة العمل الذى بدأته بعثة ١٩٥٠ ، والقيام ببعض الدراسات الفنية والأثرية والتاريخية فى الدير ومخطوطاته وأيقوناته . وكان على رأس هذه البعثة الدكتور أحمد فكرى رئيس قسم التاريخ بآداب الاسكندرية سابقاً وأستاذ التاريخ والحضارة الاسلامية السابق بها . وكان من حسن حظى أن أتيحت لى فرصة الاشتراك فى هذه البعثة الثانية ، حيث قمت بزيارة الدير المذكور مرتين فى أخريات عام ١٩٦٢ (١) .

مجموعة مخطوطات سيناء العربية ومحتوياتها :

امضيت الشطر الاكبر من هاتين الزيارتين بين جدران مكتبة الدير ، حيث عكفت على مراجعة وثائقه ومخطوطاته العربية . وأعانى عملى الفنى بمكتبات جامعة الاسكندرية ومكتبتها العامة قبل التحاقى بهيئة التدريس بآداب الاسكندرية على التعرف على تلك الوثائق والمخطوطات عن قرب ، وإدراك ما تتمتع به من قيمة تاريخية نادرة ، جعلت طلاب العلم من مختلف بقاع العالم يتهافتون عليها وينقبون فيها ، ثم يخرجون علينا بكتب وبحوث ودراسات ، تلقى المزيد من الضوء على أحداث ووقائع هامه أغفلتها المصادر التاريخية التى بين أيدينا ، أو مرت عليها مر الكرام (٢) .

---

(١) كانت الزيارة الاولى فى الفترة من ٣ إلى ١٤ أكتوبر ، والثانية فى الفترة من ٢١ إلى ٢٥ أكتوبر ١٩٦٣ . هذا ، وفيما بين بعثتى ١٩٥٠ و ١٩٦٣ قامت فى عام ١٩٥٧ بعثة علمية اشتركت فيها جامعات الاسكندرية ومتشيجان وبرنستون .

(٢) أذكر على سبيل المثال ، مقالين للدكتور عزيز سوريال عطية عن بعض مخطوطات الدير العربية ، الاول عن القديس يوحنا الدمشقى والتراجم العربيه غير المنشورة لأعماله المحفوظة فى سيناء والثانى عن المصحف الذى يحمل رقم ٥١٤ =

وقد بلغت المجموعة العربية ٦٩٧ مخطوطة ، منها ٣٦ فاقد ، و ٥٩ كتاباً مطبوعاً ، ومخطوطة قبطية تحمل رقم ٣/٩ - عربي ، وأخرى فارسية تحمل رقم ٦٩٣ عربي . وعلى هذا يكون مجموع المخطوطات العربية المتبقية بالدير — بعد استبعاد الفاقد والمطبوع والمخطوطتين القبطية والفارسية — هو ٦٠٠ مخطوطة ، قامت بعثة ١٩٥٠ بتصوير ٣٠٥ منها تم اختيارها بعناية فائقة .

ومن هذه المخطوطات السمائة ٢٨ مخطوطة على رق ، واثنتان على رق وورق والباقي على ورق . ومن بينها أيضاً مخطوطات بها عدة نصوص إضـــافية بغير العربية إلى جانب النصوص العربية الأصلية . فهناك ثمان مخطوطات بها نصوص عربية ويونانية ، ومخطوطة واحدة بها نصوص سريانية ، واثنتان بهما نصوص

= سيناء - عربي وقد اكتشفه الدكتور سوريال أثناء بعثة ١٩٥٠ ، كما أشار سيادته اليه في محاضرة عامة ألقاها بمكتبة الكونجرس عام ١٩٥١ عن البعثة والدير ومخطوطاته . أنظر Atiya A,S,. 'St, John Damascene: Survey of the Unpublished Arabic Versions of his Works in Sinai," reprinted from Arabic and Islamic Studies in Honor of Hamilton A. R. Cibb, London, 1965, 73 - 83; idem, "The Codex Arabicus of Mt Sinai," reprinted from the Indian Archives, Vol, VII, No, 1 — January - June, 1953, 1 — 2 & plates,

وسنعرض لذلك بالتفصيل في ختام هذا البحث .

وإلى جانب هذه الدراسات في المجموعة الخطية العربية ، هناك أيضا عشرات البحوث والمقالات التي تناولت الدير وتاريخه وتحفه وأيقوناته ومخطوطاته الشرقية والأجنبية ووثائقه لزملاء لهم مكانتهم في هذه المجالات ، نذكر من بينهم العالم الالماني كورت فايتزمان Kurt Weitzmann ، والزملاء الدكتور السيد عبد العزيز سالم والدكتور محمد محمود السروجي والدكتور حسن صبحي والدكتور لطفي عبد الوهاب يحيي والدكتور داود عبده والدكتور سامي شوده ، وغيرهم .

تركية ، إلى جانب النص العربى (١) .

وترجع أهمية هذه المخطوطات أنها أقدم ما عرف من مخطوطات عربية مسيحية تمتاز نصوصها بقيمتها الفائقة فى النواحى العلمية والدينية والتاريخية والفلسفية واللاهوتية . وهى تضم مصاحف عديدة فريدة فى نوعها تتناول كل مراحل الثقافة المسيحية فى الحقبة الوسيطة من التاريخ بصفة خاصة . ويمكن تقسيمها موضوعياً إلى الأقسام الستة التالية :

١ ـ أجزاء الكتاب المقدس ،وتتضمن بعض أسفار العهدين القديم والجديد.

٢ ـ كتب كنيسة ، وتتضمن قراءات من النبوات والأناجيل وصلوات وقداسات .

٣ ـ كتب لاهوتية ، وتتضمن عظات وميامر وتعاليم وأقوال الآباء والرسل والقديسين .

٤ ـ كتب تاريخية ، وتتناول سير وتراجم القديسين ، فضلا عن العديد من كتب التاريخ العام .

٥ ـ قوانين المجامع الكنسية الكبيرة والصغيرة .

٦ ـ متفرقات ومواضيع مختلفة فى نواحى متشعبة متعددة (٢) .

واضح من هذا التصنيف أن غالبية مخطوطات المجموعة العربية مسيحيه الطابع والموضوع . فهى ، فى الواقع ، تتحدث عن قصة المسيحية فى العصور الوسطى .

---

(١) أنظر عن ذلك أحمد محمد عيسى : مخطوطات ووثائق دير سانت كاترين بسيناء ــ ص ١٠٦ - ١٠٧ .

(٢) أنظر مراد كامل : الفهرست - جـ ١ - ص ١٠ .

وتمدنا بمعلومات قيمة من الطراز الأول عن نشأة الرهبنة فى مصر على هيئة حركة توحدية انفرادية قام بها كثير من النساك المتوحدين الذين عاشوا فى الصحراء الشرقية، مثل القديس بولا (بولس) المتوفى حوالى سنة ٢٧٠ م والقديس انطونيوس المتوفى سنة ٣٥٦ م. كما نستشف من سير وتراجم وأعمال عدد من آباء الكنيسة الأول، مثل القديس باخوميوس (٢٩٩ - ٣٤٨م)، كيف تطور نظام الرهبنة إلى ما عرف بحركة الحياة أو الشركة الاجتماعية للرهبان. وتلقى أقوال وتعاليم هؤلاء الرواد الأوائل الضوء على نظم الرهبنة وقوانينها وتعاليمها ومعيشة الرهبان وحياتهم داخل قلاياتهم وأديرتهم، وملبسهم ومأكلهم، وأوقات الصلاة والخدمة والعبادة، وما إلى ذلك مما حفلت به تلك المجموعة الخطية.

وفضلا عن ذلك، فهى تروى كيف انتقلت الرهبانية من مصر إلى أوروبا على يد القديس أثناسيوس السكندرى الذى كان بطريقاً على الاسكندرية، ثم نفى من كرسيه ورحل إلى روما سنة ٣٤٠م ومعه أفكار واضحة عن الرهبنة المصرية. وقد ساعدت على انتشارها فى أوروبا كتابات عدد من القديسين، من أمثال القديس جيروم الذى ترجم حياة الرهبان المصريين وأنظمتهم إلى لاتينية العصور الوسطى، وكتاب بالاديوس المعروف باسم «بستان الرهبان» أو «بستان الآباء» عن حياة رهبان مصر وسيرهم وأقوالهم.

كذلك نجد فى مصاحف المجموعة العربية بسيناء الشىء الكثير الذى يلقى أضواءجديدة على انتقال الرهبنة من مصر إلى شرق اوروبا، ونعنى بذلك الدولة البيزنطية، وكيف بدأت الحركة الديرية هناك على يد القديس بازيل اليونانى فى القرن الرابع الميلادى والذى تعتبر تعاليمه بداية للحياة الديرية المنظمة (١).

---

(١) مكتبة الدير حافلة بعشرات المخطوطات العربيه العتيقة الخاصة بسير وتراجم وأقوال وتعاليم اولئك الآباء الأول، وبخاصة أنطونيوس وباخوميوس =

وإذا كانت الرهبنة والديرية ، وسير الآباء والقديسين وأعمالهم ، وتراجم كبار رجال الكنيسة وأخبارهم ، قد حظيت بنصيب وافر فى مخطوطات المجموعة العربية بسيناء ، فهناك جانب آخر لا يقل عن ذلك أهمية . ونعنى به موضوع الخلافات المذهبية والانقسامات الدينية التى قامت بين المسيحيين فى القرون الأولى من العصر الوسيط ، بعد فترة من الزمان قضاها العالم المسيحى متحداً لا يعكر صفوه شىء . وقد أدت هذه الانقسامات إلى التباعد بين شقى العالم المسيحى ، وإلى ظهور المذاهب الدينية المتعددة . كما أثارت الكثير من الجدل والنقاش . وجاهد أباطرة الدولة البيزنطية — بحق وجودهم فى القسطنطينية كراعية للكنائس المسيحية الأخرى . جاهدوا فى سبيل القضاء على هذه الانقسامات ، والعمل على توحيد تلك المذاهب ، عن طريق عقد مجامع دينية كنسية عرفت فى التاريخ باسم « المجامع المسكونية » التى ضمت كل اساقفة العالم المسيحى وكبار رجال الدين فيه ، بقصد التشاور والنقاش فى المسائل المذهبية والخلافات الدينية ، أو لاعلان رأيهم فى هرطقة أو بدعة ما كالاريوسية والنسطورية . وكان لقرارات هذه المجامع المسكونية ، التى عقدت فيما بين عامى ٣٢٥ ، ٧٨٧ م ، أهمية كبرى فى تلك

= وبازيل ويوحنا فم الذهب . كذلك توجد بالدير حوالى أربعون مخطوطة من كتاب « بستان الرهبان » المتضمن أقوال وسير وتعاليم أولئك الآباء . وقد قمت بحصر أهم المخطوطات العربية بسيناء الخاصة بعدد من القديسين أمثال أنطونيوس وباخوميوس وبازيل ويوحنا فم الذهب فى كتاب كولتون (ج . ج) : عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة - ترجمة وتعليق د. جوزيف نسيم يوسف - ط . ثانية - الاسكندرية ١٩٦٧ - ص ١٦٨ ح ٢ وص ١٧٠ ح ١ وص ٢٨٩ ح ١ . هذا ، وأقوم حاليا باعداد دراسة مستقلة عن مخطوطات « بستان الرهبان » المحفوظة بدير سيناء .

الازمنة البعيدة . إذ اعتبرت الاساس الذى بنيت عليه العقيدة المسيحية. ويتضح مما جاء فى المخطوطات العربية بسيناء الخاصة بتلك المجامع ، أن مهمتها كانت وضع القواعد الاصلية للديانة المسيحية على أساس الكتب المقدسة وتعاليم القديسين (١) .

وهكذا ترسم لنا تلك المصاحف العربية صورة حية دقيقة نابضة للمسيحية وتاريخها وكنيستها ورجالها فى العصور الوسطى التى اقتطعت من تاريخ البشرية زهاء عشرة قرون من الزمان . وهكذا تمضى بنا مصاحف تلك المجموعة لتذكر فى كثير من التفصيل والتحليل والتدقيق كل مايتعلق بالمسيحية وأفكارها وفلسفتها وخلافاتها وانقساماتها ، والاثار التى طبعتها على العقل والفكر الوسيط وعلى نظمه وحضارته ، بل وعلى حياة الفرد الخاصة والعامة وقتذاك . كما تكشف عن الدور الخطير الذى قام به الجهاز الكنسى ابان الحقبة الوسيطة من التاريخ ، وكيف طبع الحياة خلال ألف عام أو يزيد بطابع خاص ، وأعطى المجتمع المسيحى ملامح وسمات مميزة ، وشخصية لها كيانها وخصائصها ومقوماتها الخاصة بها .

ويلاحظ أنه إلى جانب الأهمية التاريخية للمادة التى تحتوى عليها مصاحف المجموعة العربية ، فانها تزود المتخصص بقدر كبير من المعلومات المتعلقة بالخطوط العربية ، إذ تعينه على دراسة تطور الكتابة والاملاء والخط العربى عبر القرون المتعاقبة . ويلاحظ أيضا أن هذه المصاحف لا تقتصر على الدراسات المسيحية البحتة أو تلك التى تتعلق بالكتاب المقدس ، انما تضم إلى جانب ذلك العديد من

---

(١) فيما يتعلق بهذه المجامع ، أنظر مخطوطات سيناء العربية أرقام ٣٩٠، ٣٩١، ٣٩٢ ، ٣٩٣ ، ٥٢٦ ، ٥٩٠ , ٦٠٠ . ويعتبر المؤلف القيم الذى وضعه بالانجليزية الدكتور عزيز سوريال عطيه عن تاريخ المسيحية الشرقية أحدث وأفضل ماكتب فى هذا الموضوع . أنظر

Atiya, A. S., A History of Eastern Christianity, London, 1968, 55 ff.

البحوث القيمة فى ميادين شتى من الدراسات الانسانية والعلوم الدنيوية كالطب والفلك والموسيقى ، وما إلى ذلك .

هذه عجالة لازمة عن الدير وتحفة ومخطوطاته والمجموعة العربية التى يحتفظ بها ومحتوياتها . ولتقييم هذه المجموعة تقييما حقيقياً صادقاً ، وتقدير قيمتها العلمية والتاريخية ، يجب أن نتناولها بالدراسة والنقد والتحليل فى شىء من الاسهاب والتفصيل . وينقسم الحديث عنها إلى عشر نقاط رئيسية هى :

(أولا) تحديد تاريخ مخطوطات المجموعة العربية :

يرجع تاريخها الى ما بين القرنين التاسع والتاسع عشر للميلاد . ويلاحظ أن غالبية هذه المصاحف قد دونت فى الفترة الوسيطة من التاريخ ، وأن عدداً قليلا جداً منها دون بعد ذلك . ويرجع الفضل الى القولوفونات التى اختتمت بها كثير من هذه المصاحف فى تحديد تاريخ كتابتها تحديداً دقيقاً قاطعاً . والقلوفون هو جزء ختامى من المخطوط وبقلم الكاتب نفسه . وفيه يشير الكاتب — عادة — إلى تاريخ الفراغ من كتابة المخطوط . وعلى هذا الاساس تم تحديد تاريخ عدد كبير من المخطوطات تحديداً صريحاً . ومع ذلك ، فان كثيراً من مصاحف المجموعة العربية غير معروف تاريخها ، ولم ترد بها لسوء الحظ — خواتيم بقلم كتابها تعين الدارسين على معرفة تاريخ تدوينها .

وهناك ، على أية حال ، وسائل عديدة أمكن عن طريقهـــا تحديد تاريخ المخطوطات غير المؤرخة تحديداً تقريبياً اجتهادياً . من ذلك نوع المداد ولونه ، ونوع الورق المستعمل وحجمه ، ونوع القلم الذى كتب به ، ونوع الخط المستخدم فى الكتابة . بالاضافة الى اشارات وردت فى بعض التعليقات الاضافية التى تضمنتها كثير من المخطوطات ، تفيد اطلاع القراء عليها فى عصور لاحقة . مثال ذلك المخطوط رقم ٣١ سيناء عربى ، وموضوعه « مزامير » ، وتاريخه غير معروف

على وجه التحديد . ولكن عثر على تعليق مؤرخ يتضمن اطلاع أحد القراء عليه، وساعد هذا التعليق على تحديد تاريخ المخطوط بحوالى القرن الثانى عشر الميلادى( ).

ومن الوسائل التى لجـــأ الباحثون اليها لتحديد تواريخ كتابة المصاحف غير المؤرخة ، مقارنة المصاحف بعضها ببعض . مثل ذلك المخطوط رقم ٣٢ سيناء — عربى ، وموضوعه « مزامير وتسابيح » ، وتاريخه غير معروف . ولكن بالمقارنة اتضح أنه من نفس مدرسة الخط المستخدم فى المخطوط رقم ٣٠ سيناء — عربى ، وموضوعه هو الآخر « مزامير وتسابيح » ، وتاريخه محدد وهو سنة ٣٦٧ هـ التى توافق سنة ٩٧٧ م . وعلى هذا يمكن القول بأن المخطوط رقم ٣١ دون حوالى القرن الحادى عشر للميلاد . وهناك أيضاً ـ على سبيل المثال ـ المخطوط رقم ٣٢ سيناء ـ عربى ، وموضوعه « مزامير وتسابيح » ، وتاريخه غير معروف ولكن يوجد على ورقتى ٧ ب و ١٨ نقشان صغيران يبدو فيهما الأثر القبطى واضحاً ، وتحيط بهما باللغة القبطية كلمة IHC IIXC (٢) ومعناها يسوع المسيح. وهذا يدل على أنه يرجع إلى القرن الثالث عشر لسبب بسيط ، وهو أن القبط لم يبدأوا فى التدوين باللغة العربية الا اعتباراً من ذلك القرن .

والخلاصة أن تحديد تاريخ المخطوطات التى بدون تاريخ هو تحديد غير

---

(١) ورد التعليق المذكور على ورقتى ٢٠ ب و ٢١ أ . أنظر أيضا المخطوط رقم ٤٣ سيناء ـ عربى ، وموضوعه « مزامير وتسابيح » وتاريخه غير معروف ، ولكن ورد به تعليق إضافى (ورقة ١٧٢ ب) يفيد الاطلاع عليه ، وتاريخ التعليق ٨٨٠ هـ / ١٤٧٧م ، وعلى هذا يحتمل أن يكون تاريخ المخطوط هو القرن الرابع عشر ، أى قبل تاريخ القراءة المؤرخة الواردة به .

(٢) هذه مختصر كلمة I Hcoyc nlixeutoc ـ نطقها إسوس بى إخريستوس، وترجمتها يسوع المسيح ، ومختصرها باليونانية I Hc nxc .

قاطع ، ولا يعدو أن يكون أكثر من محاولة اجتهادية من قبل الباحثين . وعلى أية حال ، هناك احدى عشرة مخطوطة ترجع الى القرن التاسع الميلادى منها ثلاث مؤرخة بالسنين الميلادية ، وثلاث مخطوطات ترجع فيما بين القرنين التاسع والعاشر ، وتسع عشرة مخطوطة ترجع الى القرن العاشر منها أربع مؤرخة بالسنين الميلادية ، ومخطوطتان يرجع تاريخها فيما بين القرنين العاشر والحادى عشر ، وخمس وعشرون مخطوطة يرجع تاريخها الى القرن الحادي عشر منها اثنتا وعشرون مؤرخة ، واحدى عشرة مخطوطة فيما بين القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، وثلاثمائة واثنتان وثلاثون مخطوطة ترجع الى القرن الثالث عشر المؤرخ منها مائة وخمسة عشر ، وثلاث وأربعون مخطوطة ترجع الى القرن الرابع عشر منها المؤرخ ثلاث وثلاثون ، وثمان عشرة مخطوطة ترجع الى القرن الخامس عشر منها المؤرخ اثنتا عشرة ، وتسع مخطوطات ترجع الى القرن السادس عشر منها خمس مؤرخة بالسنين الميلادية ، وأربعون مخطوطة ترجع الى القرن السابع عشر منها تسع عشرة مؤرخة ، وثلاث مخطوطات ترجع الى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وثمان عشرة مخطوطة ترجع الى القرن الثامن عشر منها اثنتا عشرة مؤرخة بالسنين الميلادية ، ومخطوطة واحدة فيما بين القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وأخيراً أربع مخطوطات كلها مؤرخة ترجع الى القرن التاسع عشر (١) .

(ثانياً) دراسة تطور الكتابة والخط العربى :

---

(١) هذا البيان الاحصائى وارد فى : مراد كامل : الفهرست . جـ ١ ـ ص ١٦ ـ ١٧ ، ومنه يتضح أن الجانب الاكبر من مخطوطات المجموعة العربية يرجع تاريخ تدوينه إلى الحقبة الوسيطة من التاريخ .

تضم المجموعة العربية مصاحف مدونة بأنواع عديدة من الخطوط ، تختلف بين الحسن والردىء والرفيع والسميك ، وتحتاج فى كثير من الاحيان إلى جهد وصبر ومثابرة حتى يتعلمها الباحث ، ويتدرب على قراءتها والإفادة منها . وان مثل هذه الدراسة توفر للباحث الكثير من الوقت وتجنبه الوقوع فى العديد من الاخطاء . وتتضح أهمية هذه الدراسة بالنسبة للمجموعة الخطية العربية التى يرجع معظمها إلى الحقبة الوسيطة من التاريخ . فهى تمدنا بقدر كبير من المعلومات المتعلقة بالخطوط العربية ، وبمادة قيمة نادرة عن نمو هذه الخطوط وتطورها والاشكال المختلفة التى كانت تكتب بها . فمنها النسخى ، ومنها الرقعة ، والنستعليق ، والكوفى ، ومنها أيضاً الوسط بين الكوفى والنسخ . وهى تكشف كذلك عن وجود أنواع عديدة لكل من هذه الخطوط ، التى تبدو فيها الأساليب المختلفة المشرقة للجمال الخطى العربى الذى ينتمى إلى كل حقبة من حقب العصر الاسلامى . وهى أخيراً تزود الدارس فى علم قراءة الخطوط Paleography بمادة دسمة ، وتفيد فى الكشف عن نواح كثيرة من التاريخ .

وإذا انتقلنا من التعميم الى التخصيص ، نقول أن المجموعة العربية تضم مخطوطات مكتوبة بالخط الكوفى (١) من القرون التاسع والعاشر والحادى عشر ، وتعتبر أقدم ما وصل الينا فى ترجمة الكتاب المقدس إلى العربية (٢) ، منها أربع عشرة مخطوطة من القرن التاسع كلها مكتوبة على الورق ، واحدى وعشرون مخطوطة من القرن العاشر . وهناك أيضاً الخط الوسط بين الكوفى والنسخ

---

(١) وهو الخط المسند القديم بعد تهذيبه . أنظر لوحة رقم ٣ ولوحة رقم ٤ .

(٢) أنظر ، على سبيل المثال ، مخطوطة رقم ١ سيناء ـ عربى ، وموضوعها « العهد القديم » وتاريخها حوالى القرن التاسع الميلادى .

القديم (١) ، وكذلك المستعليق (٢) .أما غالبية المجموعة فمكتوبة بالخط النسخ بأنواعه المختلفة.فمن هذه الأنواع النسخي الجيد (٣)والنسخي المتسق المنتظم(٤)، والنسخي الجيـــد المتسق (٥)، والنسخي الوديء (٦) ، والنسخي العتيق

---

(١) أنظر مخطوطة رقم ٢ سيناء - عربى ، وموضوعها « العهد القديم » ، وتاريخها سنة ٣٢٨ هـ / ٩٣٠ م ، وكذلك مخطوطة رقم ٧ سينـــاء - عربى ، وموضوعها « أخبار الايام » ، وتاريخها حوالى القرن العاشر الميلادى . والخط الوسط بين الكوفى والنسخ هو قاعدة شاذة، لم يطرقها إلا أناس داخلين على الفن .

(٢) النستعليق هو عبارة عن قاعدة خطية تجمع بين النسخ والثلث بتصرفات خاصة . ونجد مثالا واضحا لهذا النوع من الخط فى المصحف رقم ٦٨ سيناء - عربى ، وموضوعه « الأناجيل الأربعة » ، وتاريخه حوالى القرن الرابع عشر ، والخط المستخدم هو النسخى الممتاز بالبطين الرفيع والغليظ ، ونستعليق مذهب فى وسط الصفحة . أنظر مثلا ، ورقة ٨٥ ا - ب من المصحف المذكور .

(٣) أنظر مخطوطة رقم ٣ سيناء - عربى ، وموضوعها « العهد القديم » ، وتاريخها ١٣٥٨ م ، والخط المستخدم فى كتابتها هو النسخ الجيد ، وهو الخط المألوف فى تلك الفترة من الزمن .

(٤) أنظر المخطوطات العربية بسيناء التى تحمل أرقام ٥، ٦، ٩، ١٢، ٢٧، ٣٧، ٤٠ ، ٤٦ .

(٥) أنظر المخطوطات العربية بسيناء التى تحمل أرقام ١٠، ١٢، ١٤، ١٥، ١٨، ٣٤ ، ٣٦ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٥٠ .

(٦) أنظر مخطوطة رقم ٤ سيناء - عربى ، وتاريخها ٣٥٣ هـ / ٩٦٣ م ، وموضوعها « العهد القديم » ، وكذلك مخطوطة رقم ٣٢ سيناء - عربى .

الجيد (١) ، والعتيق المنسق (٢) ، والعتيق الجيد المنسق (٣) ، والعتيق الردىء (٤) . والغليظ أو العريض البدائى (٥) . وهناك أيضاً الغليظ المنسق (٦)، والنسخى العتيق بالبنط الكبير المتسق (٧) ،والنسخى الجيد بالبنط الصغير الرفيع (٨) والنسخى الممتاز الرفيع والسميك .

ومعظم هذه المخطوطات غير منقطة ، وبخاصة تلك التى ترجع الى الفترة الوسيطة من التاريخ . وقليل منها تم تنقيطه جزئياً ، والتنقيط فى الغالب بمداد مغاير ، وربما تم ذلك فى عصر لاحق لكتابة المخطوط (٩) . ومايقال عن التنقيط

---

(١) أنظر مخطوطة رقم ١٦ سيناء - عربى ،وموضوعها « النبوات » وتاريخها حوالى القرن الثالث عشر .

(٢) أنظر مخطوطة رقم ٢٢ سيناء - عربى ، وكذلك مخطوطة رقم ٤٣ سيناء - عربى .

(٣) أنظر مخطوطة رقم ٢١ سيناء - عربى ،وموضوعها «مزامير وتسابيح» ، وتاريخها حوالى القرن الحادى عشر .

(٤) أنظر مخطوطات سيناء العربية أرقام ١٧ ، ٢٢ ، ٣٣ .

(٥) أنظر مخطوطة رقم ٢٠ سيناء - عربى ، وموضوعها « مزامير وتسابيح » وتاريخها حوالى القرن الثالث عشر ، ومخطوطة رقم ٢٤ سيناء - عربى ، وموضوعها « مزامير وتسابيح » وتاريخها هى الاخرى حوالى القرن الثالث عشر .

(٦) أنظر المخطوطات العربية بسيناء أرقام ٢٥، ٢٦، ٣٨، ٤٤، ٤٥، ٤٧، ٤٨، ٤٩ .

(٧) أنظر المخطوطات العربية بسيناء أرقام ٢٨، ٢٩، ٣١ .

(٨) أنظر مخطوطة رقم ٣٥ سيناء - عربى ، وموضوعها «مزامير وتسابيح» وتاريخها ١٠٣٩هـ / ١٦٢٩ م .

(٩) نذكر ، على سبيل المثال ، مخطوطة رقم ١ سيناء - عربى ، وموضوعها « العهد القديم » ، وتاريخها حوالى القرن التاسع .

يقال أيضاً عن الضبط والتشكيل ، فقليل منها تم ضبط حروفه أو كلماته (١) .
وثمه ملاحظة أخرى هى أن العناوين ورءوس الموضوعات فى الجانب الاكبر من هذه المصاحف معلة جزئياً أو كلياً بالمداد الاحمر ، وقد استخدم المداد الاحمر بوفرة وسخاء فى البعض ، وبقلة وتقتير فى البعض الآخر . هذا ، وقليل منها غير معلم باللون الاحمر (٢) ، وعدد أقل استخدم المداد الازرق والاخضر فى كتابة بعض عناوينه (٣) .

ويلاحظ أيضاً أن عدداً قليلا جداً من هذه المخطوطات اشترك فى كتابة كل منها أكثر من شخص . مثال ذلك مخطوطة رقم ٣٧ سيناء - عربى ، وموضوعها « مزامير » ، وتاريخها ١٢٢١ م ، وقد اشترك شخصان فى كتابتها ، ويتضح هذا من وجود خطين مختلفين تماماً عن بعضها . وبالمثل مخطوطة رقم ٥٨ سيناء - عربى ، وموضوعها « مزامير وتسابيح » ، وتاريخها حوالى القرن الخامس عشر ، وكاتبها مجهول . بينما يتضح من تعليق إضافى ورد فى مخطوطة رقم ٨٢ سيناء - عربى ، وموضوعها « الأناجيل الاربعة » ، وتاريخها ١٢٨٧ م ، أنه اشترك فى اعدادها ثلاثة أشخاص (٤) .

(ثالثاً) أغلفة المخطوطات وأهميتها :

---

(١) المصاحف المضبوطة كلماتها قليلة للغاية ، نذكر من بينها تلك التى تحمل أرقام ٣ ، ١٠ ، ٣٠ ، ٦٨ (سيناء - عربى) .
(٢) مثل مخطوطة رقم ٥ سيناء - عربى ، ومخطوطة رقم ٣٢ سيناء - عربى .
(٣) أنظر مخطوطة رقم ١٨٦ سيناء - عربى ، وموضوعها « أورولوجيون » ، وتاريخها حوالى القرن الثالث عشر ، وكاتبها مجهول .
(٤) أنظر مخطوطة رقم ٨٢ سيناء - عربى - ورقة ٢٠٦ ب . راجع أيضا المخطوطات أرقام ٢١٢ ، ٢٢٨ ، ٢٢٤ ، ٥ ، ٢ (سيناء - عربى) .

قد يبدو للوهلة الأولى أن أغلفة المخطوطات العربية ليست لها القيمة التى تستوجب الاشارة اليها . والعكس - كما سنرى - هو الصحيح . قليل من هذه المخطوطات أغلفتها مفقودة (١) ،وعدد أقل مغلف بالورق المقوى أو العادى(٢)، وعدد لا بأس به مغلف بجلد بنى داكن أو فاتح اللون ، وهو محشو - عادة - بورق عادى أو ورق بردى لتقويته (٣) . أما أكثرية مخطوطات المجموعة العربية فغلافها خشبى مكسو بجلد أسود أو بنى يتميز بلونه الداكن أو الفاتح أو الباهت(٤).

وجدير بالذكر أن بعض هذه الأغلفة مزينة بنقوش بارزة أو محببة ، وبعضها مرصع بحليات فى الأركان والوسط ، أو باطارات وأفاريز بديعة الشكل يبدو فيها الأثر العربى واضحاً . وقد يتوسط الغلاف رسم على شكل صليب أو صليب من النحاس وعليه المسيح مصلوباً (٥) . ولعل أجمل هذه الأغلفة غلاف المخطوطة

---

(١) مثل المخطوطات أرقام ٦٥ ، ١٢ ، ٢٤ ، ٤١ (سيناء - عربى) .

(٢) مثل مخطوطة رقم ١٦ سيناء - عربى ، وهى مغلفه بورق تالف اقدم عهدا من ورق المخطوط ، والمخطوطة رقم ٣٧ وهى مغلفة بورق مقوى يتألف من صحائف قديمة بالية .

(٣) أنظر مثلا المخطوطات التى تحمل أرقام ٣، ٧، ١٤، ١٦، ٢٣، ٢٩، ٣٢، ٣٥، ٣٦، ٤٢ . هذا والمخطوطة رقم ٢٧ مغلفة بجلد بنى محشو بورق عادى وورق بردى عليه كتابات تحتاج إلى فحص ودراسة .

(٤) هناك مخطوطة واحدة غلافها خشبى مكسو برق سميك هى المخطوطة رقم ٢١ سيناء - عربى ، وموضوعها « مزامير وتسابيح » ، وتاريخها حوالى القرن الحادى عشر .

(٥) نجد نماذج لهذه الأغلفة المزينة فى المخطوطات أرقام ٣، ١٣، ١٤، ١٥، ١٧، ١٨، ٣٤، ٤٢، ٤٦، ٤٩ .

رقم ٧٦ سيناء - عربى ، وموضوعها الاناجيل الأربعة ، وتاريخها القرن الثالث عشر، وكاتبها مجهول . وهى مجلدة تجليداً فاخراً ، وغلافها خشبى مكسو بجلد بنى، وجانبه الأيمن مرصع عند أركانه الاربعة ، ومزين فى الوسط بصليب نحاسى عليه المسيح مصلوباً ، وعن يمينه السيدة العذراء ، وعن يساره القديس يوحنا . وبأعلا الغلاف دائرتان نحاسيتان مطروقتان مع رسمين يمثلان النسر والثور ، وهما يرمزان إلى الرسولين يوحنا ولوقا . وفى الغلاف من أسفل دائرتان نحاسيتان أخريتان بداخليها رئيسا الملائكة ميخائيل وجبرائيل ، وتحيط بكل هذا التشكيل شرائط من ست قطع نحاسية تكون اطاراً على رسوم تمثل أوراقاً نباتية . كما استخدمت فى ربط المخطوط أشرطة من الكتان الاحمر وخيط ذهبى ومشابك . وعندما يكون المخطوط مغلقاً تكشف حواف الأوراق من جوانبه الثلاثه عن ثمان زخارف على شكل صلبان من أحجام مختلفة تتقاطع معها ثلاثة رسوم على الطراز العربى . وقد استخدمت فى تلوين المجموعة كلها الألوان الاحمر والذهبى والأسود (١) . ويهمنا هنا أن نبرز أن هذه النقوش تكشف عن بعض عناصر فنية ذات تأثيرات عربية واضحة المعالم .

وبفحص هذه الاغلفة يتضح أنه كانت توجد فى عدد كبير منها أشرطة جلدية ومشابك معدنية ومسامير ذات رءوس كبيرة وأقفال لإحكام غلقها ، وقد فقد معظمها (٢) .

---

(١) الأغلفة التى من هذا النوع قليلة فى المجموعة العربية ، ولكنها كثيرة العدد فى المجموعة اليونانية التى يحتفظ بها الدير .

(٢) المخطوطة رقم ١٣٦ سيناء - عربى ، وموضوعها « قراءات من الاناجيل لأعياد السنة » ، وتاريخها سنة ١٦٨٥ م ، وكاتبها الراهب خورى الياس . لم يبق =

وجدير بالملاحظة أن بعض أغلفة المجموعة العربية أصابها البليان ، وتم ترميمها وتقويتها . وقد استخدمت بعض مخطوطات الدير القديمة لحشو هذه المصاحف العربية البالية وتبطينها . مثال ذلك مخطوطة رقم ٢٥ سيناء - عربى ، وموضوعها «مزامير وتسابيح» ، وتاريخها سنة ١٢٥٩ م ، لها غلاف خشبى مكسو بجلد بنى داكن والجانب الايسر منه مبطن بورقة أقدم عهداً من ورق المخطوط ، وعليها كتابة بالعربية . كما أن الاوراق الثلاث الاول منه ترجع إلى عصر أقدم من ورق المخطوط ، مدون عليها بعض المزامير من مجلد آخر يرجح أنه استخدم لحشو وتبطين أغلفة المخطوطات القديمة البالية . وهذه - للأسف - ظاهرة واضحة أدت إلى ضياع الكثير من المخطوطات العتيقة المبكرة التى كان الدير يحتفظ بها .

وما يقال عن هذه المخطوطة يقال أيضاً عن المخطوطة رقم ٣٧ سيناء عربى ، وموضوعها «مزامير» ، وتاريخها سنة ١٢٣١ م . ويتألف غلافها من صحائف قديمة من الورق عليها كتابات بعضها باللغة القبطية وبعضها الآخر باللغتين القبطية والعربية ، والبعض بالعربية فقط . وتحتوى هذه الكتابات فى معظمها على صلوات ومزامير . ومحتويات هذا الغلاف لها أهمية خاصة ، ويجب معالجتها بعناية ورفق والعمل على صيانتها وحفظها . وان دل هذا على شىء ، فانما يدل على أن الدير كان يحتفظ بنسخ خطية قبطية للأناجيل ترجع إلى فترة تاريخية مبكرة ، وأنها قد استخدمت فى عمليات الحشو والتجليد والتبطين . ونتيجة لذلك ... الدير اليوم

= مع غلافها سوى المسامير الكبيرة المبرشمة فحسب ، أما الاشرطة والمشابك والاقفال فقد فقدت كلها . أما المخطوطة رقم ١٤٩ سيناء - عربى ، وعنوانها «قراءات من الرسائل» ، وتاريخها حوالى القرن الثالث عشر ، وكاتبها يدعى يوحنا الكفورى ، فلم يتبق مع غلافها سوى شريط واحد ومسمار برأس كبيرة .

سوى نسخة خطية واحدة باللغة القبطية .

وخلاصة القول أن مثل هذه الحشوات والبطائن الخطية العتيقة (١) ، وكذلك النقوش والزخارف التي تحلت بها بعض الاغلفة يجب المحافظة عليها ودراستها بعناية . ذلك أنها تمد الباحثين في النواحي الاثرية والفنية والتاريخية بمادة دسمة لا يمكن بحال التقليل من أهميتها .

(رابعاً) المخطوطات العربية المصورة (٢) :

غالبية مصاحف المجموعة العربية مدونة كتابة دون أن تزدان صحائفها بزخارف ورسوم . وعدد قليل منها مزين بالزخارف . ولهذه المصاحف المصورة أهمية فائقة في الكشف عن الاثر الفني العربي أو البيزنطي ، أو تحديد تقريبي لتاريخ تدوين تلك المخطوطات . نضرب مثلا لذلك بالمخطوطة رقم ٢٨ سيناء - عربي ، وموضوعها « مزامير وتسابيح » ، وتاريخها سنة ١٢٦٩ م ، وكاتبها مجهول . فقد تزينت العناوين ورءوس الموضوعات بداخلها برسوم ونقوش عربية بديعة ملونة (٣) . وكذلك مخطوطة رقم ٣٢ سيناء - عربي ، وموضوعها « مزامير

---

(١) أنظر مخطوطات أرقام ١٤٥ ، ١٦٠ ، ١٦٣ ، ٢٢٨ (سيناء - عربي) . أنظر أيضا احمد عيسى : مخطوطات ووثائق دير سانت كاترين بسيناء - ١٠٧ .

(٢) ليس المقصود بذلك التصوير الشمسي وما شابهه ، وإنما نعني الزخارف والرسوم التي تحلت بها بعض هذه المخطوطات ويطلق عليها بالانجليزية لفظ Illuminated Manuscripts .

(٣) الاوراق التي توجد بها الرسوم بالمصحف المذكور هي : ١ ب ، ١٨ ب ، ١٣٠ ، ١٥٠ ، ١٧٢ ب ، ١٨٢ ، ١٩٢ ، ١١٠٤ ب ، ١١٨ ، ١٢٨ ، ب ١٣٨ ، ١١٤٧ ، ١١٥٧ ، ١٦٤ ب ، ١٨٥ ب ، ١٨٣ ، ١١٩٤ .

وتسابيح » ، وتاريخها حوالى القرن الحادى عشر ، وكاتبها مجهول . إذ تحتوى ورقة ١٣٢ ب على زخرفة عربية ورسم على شكل وجه انسان . كذلك تحتوى ورقة ١٣٣ ا على وجه وكتفى أحد القديسين وتحيط بالرأس هالة مستديرة . أما مخطوطة رقم ٣٥ سيناء - عربى ، وموضوعها أيضاً « مزامير وتسابيح » ، وتاريخها سنة ١٠٣٩ هـ / ١٦٢٩ م ، وكاتبها يدعى يوحنا بن شماس عيسى عويسات ، فنجد على ورقة ٢ ا زخرفة تمثل ورقة نبات خضراء وأخرى حمراء وثالثة مذهبة . كما توجد نقوش وزخارف نباتية ذهبية وملونة على الطراز العربى على بعض صحائف المخطوطة . وكذلك مخطوطة رقم ٤٠ سيناء - عربى ، وهى فى نفس الموضوع السابق ، وتاريخها سنة ١١٦٧ م ، وكاتبها هو الراهب يوحنا بن صهيون الشيزرى ، إذ تعلو ورقة ١ ا زخارف ونقوش عربية ملونة ، كما يوجد رسم على شكل صليبين مزخرفين على جانبى خاتمة المخطوطة الواردة فى ورقة ٣٥٥ ا . وبالمثل مخطوطة رقم ٤٢ سيناء - عربى ، فى نفس الموضوع ، وتاريخها سنة ١٧٩٠ م ، وكاتبها يدعى ميخائيل بطرس السكندرى . إذ نجد فى بدايتها نقوشاً وزخارف عربية الطراز على أشكال طيور .

أما المخطوطة رقم ٧٦ سيناء - عربى ، التى أشرنا اليها من قبل ، فتمتاز بقيمتها الفنية النادرة . أول ما يطالعنا فيها عنوانها المكتوب على ورقة ٤ ا بأحرف مذهبة وبخط نسخى عتيق غليظ ، وتزين العنوان نقوش مذهبة على شكل ورود صغيرة وزخرفة متداخلة فى بعضها تمثل توريقات نباتية بخطوط سوداء وحمراء فيما بين الاسطر . ويحيط بكل هذا اطار يتألف من رسوم على هيئة صلبان عربية الطراز مذهبة وزرقاء اللون ، وزخارف تمثل ورود وتوريقات نباتية ، وفى أركان الاطار نقوش أخرى تمثل ورود على نفس النسق ، وقد استخدمت فى تلوينها نفس الالوان . وتكرر هذه الرسوم والزخارف عند بداية

كل انجيل من الاناجيل الأربعة التي يتضمنها المصحف ، وهكذا (١) .

والخلاصة أن هذه التكوينات الزخرفية فى المصاحف العربية المصورة ، تؤلف أشكالا هندسية فى غاية الروعة والجمال، من مسدسات ومربعات ومثلثات ودوائر وخطوط متداخلة ، إلى زخارف نباتية جميلة، إلى توريقات أهم عناصرها الفروع النباتية المنحية والمراوح النخيلية ، إلى أفاريز قوامها حشوات صغيرة مملوءة بالتوريقات ، إلى رسوم مختلفة تصور مناظر دينية . فنشاهد ، مثلا ، رسماً على شكل صليب ، أو قديساً على رأسه هالة ، أو رسماً يمثل المسيح وحوله الملائكة والقديسين . ويؤكد عنصر الزخرفة وأسلوب تمثيل الأشخاص فى هذه المجموعة النادرة من المصاحف العربية المسيحية ، وجود الاثر العربى بشكل جلى فيها (٢).

وكون بعض المصاحف العربية المحفوظة بالدير تحمل بين ثناياها نقوشاً وزخارف تضم بعض العناصر الفنية ذات التأثيرات العربية فى معظمها أو البيزنطية أو القبطية فى قليل منها ، لهو أمر يحتاج إلى دراسة جادة دائبة قد تميط اللثام عن جوانب فى تاريخ العصر الوسيط وحضارته لايزال يعتورها الغموض والابهام. ومما يذكر أنه لاتتمتع بهذه الميزة مصاحف المجموعة الخطية العربية وحدها ، انما نجد هذه التأثيرات العربية واضحة فى مجموعة مبانى الدير وفى تحفه وأيقوناته

---

(١) أنظر ، على سبيل المثال ، المخطوطات العربية بسيناء التى تحمل أرقام ٦١ و ٦٨ و ٧٠ و ٧٦ و ٧٨ و ٧٩ و ٨٠ و ٨٤ و ٨٧ و ٩٠ و ٩٢ و ١٠٣ و ١٠٤ و ١٠٧ و ١١٤ و ١١٧ و ١٤٨ و ١٥٤ و ١٧١ و ١٧٣ ... الخ . ويبدو فى معظمها الطابع العربى جليا واضحا .

(٢) لايزال هذا الموضوع بحاجة إلى مزيد من الدراسة والبحث ، ويصلح أن يكون أساسا لدراسة مفيدة تتميز بالجدية والأصالة .

كذلك (١) .

(خامساً) القلوفونات أو الخواتيم :

تكاد كل مخطوطة من مخطوطات المجموعة العربية تنتهى بقلوفون بقلم الكاتب . والقلوفون هو الخاتمة التى تأخذ ــ عادة ــ شكل مثلث قاعدته إلى أعلا ورأسه إلى اسفل ، وقد تأخذ الشكل المألوف فى الكتابة . وتلقى تلك القلوفونات او الخواتيم الضوء على قصة الدير التى لانعرف عنها الكثير ، وعلى تنظيمه الادارى والدينى على مر العصور . كما تمدنا بسجل حى متحرك لكثير من التفاصيل الهامة المتعلقة بالحوادث العامة او المحلية فى فترات عديدة . وهناك كثير من مخطوطات المجموعة العربية يحتوى كل منها على اكثر من موضوع ، قد ينتهى كل موضوع

---

(١) أنظر عن ذلك مقال الدكتور السيد عبد العزيز سالم : الآثار الإسلامية فى دير سانت كاترين بطورسينا ــ مجلة العلوم ــ العدد الاول (كانون الثانى / يناير ١٩٦٥) ـ بيروت ١٩٦٥ ـ ص ٦ ـ ٨ .

ويرى الاستاذ أحمد محمد عيسى أن كثيرا من المخطوطات اليونانية التى يحتفظ بها الدير يزدان أيضا برسوم ذات طابع اسلامى يستطيع الباحث عن طريقها تحديد العصر الذى كتب فيه المخطوط . ويرى أيضا أن هذه الظاهرة تستحق العناية والدرس لاهميتها بالنسبة للعلاقات الفنية المتبادلة بين فنون الشرق الادنى وتأثير كل منها على الآخر . ويرجح أن يكون زخرفو هذه المخطوطات من المسلمين الذين قاموا بهذا العمل للرهبان ، او ان تكون هذه الرسوم من صناعة مزوقين مسيحيين عملوا فى هذا الفن لحساب المسيحيين والمسلمين على السواء . انظر أحمد عيسى : مخطوطات ووثائق ديرسانت كاترين ــ ص ١٠٧ .

بخاتمة خاصة به (١) .

ويرجع الفضل إلى هذه القلوفونات في تحديد تاريخ عدد كبير من مصاحف المجموعة العربية (٢)، وفي التعرف على اسماء كتابها (٣)، او مترجميها (٤) . ولما كان الجانب الأكبر من مصاحف هذه المجموعة يتناول شتى مراحل الثقافة المسيحية

---

(١) يندر أن يكون القلوفون في غير موضعه الطبيعي بآخر المخطوط . مثال ذلك مخطوط رقم ٢٢٧ سيناء - عربي ، وموضوعة « ليتورجيا » ، وتاريخه حوالى القرن الثالث عشر ، وكاتبه يدعى القس سابا ؛ وقد عثر على القلوفون باسم كاتب المخطوط محشورا في الورقة رقم ٥٠ ب .

(٢) أنظر ، مثلا القلوفون الوارد في ورقة ٢٤٦ ب في المخطوطة رقم ٢ سيناء - عربي ؛ وورقة ١٢٦ أ - ب في المخطوطة رقم ١٢ سيناء - عربي ؛ وورقة ٢٤٨ أ في المخطوطة رقم ١٨ سيناء - عربي ؛ وورقة ٢٢١ ب في المخطوطة رقم ٢٨ سيناء - عربي ؛ وورقة ١٩٢ ب في المخطوطة رقم ٣٤ سيناء - عربي ؛ وورقة ٢٦ ب في المخطوطة رقم ٣٧ سيناء - عربي ؛ وورقة ٣٥٥ أ في المخطوطة رقم ٤٠ سيناء - عربي ؛ وورقة ٣٥٥ أ في المخطوطة رقم ٤٩ سيناء - عربي ؛ وهكذا . فهي وغيرها تحدد تحديدا قاطعا تاريخ كتابة المخطوط أو تاريخ الفراغ من تدوينه .

(٣) أنظر - مثلا - المخطوطات العربية بسيناء أرقام ٢ (ورقة ٣٢٠ ب - ٣٣١ أ) ، و ٤ (ورقة ٢٨١ أ) ، و ١٢ (ورقة ١٣٦ أ - ب) ، و ٢٠ (ورقة ١٦٧ أ) ، و ٢٥ (ورقة ١٧٧ أ) ، و ٤٠ (ورقة ٣٥٥ أ) ، و ٤٩ (ورقة ٢١٤ ب) ، و ٥٠ (ورقة ١٢٣ أ) ، وهكذا .

(٤) أنظر ، على سبيل المثال ، المخطوطة رقم ١٠ سيناء - عربي ، وموضوعها « العهد القديم » وتاريخها ١٢٢٣-١٢٢٤ م ، حيث جاء في أوراق ٥٦ ب و ١٢٨ ب و ١٧٠ ب ، أن مترجمها يدعى الحرث بن سنان ؛ وكذلك المخطوطة رقم ٢٤ سيناء - =

من القرن التاسع حتى أواخر العصر الوسيط وبعد ذلك ، فقد حرص كتابها أو مترجموها أو ناقلوها على عدم الاشارة إلى أسمائهم صراحة تقرباً إلى الله ورغبة فى الحصول على رضائه ، وخاصة وأن معظم هؤلاء كانوا من رجال الدين من رهبان وكهنة وقساوسة وشمامسة وغيرهم ، ممن لا يبغون صيتاً أو شهرة دنيوية زائلة هم فى غنى عنها . وعلى هذا ، فان ورود أسماء أولئك الكتاب والنقلة والمترجمين عرضا فى ثنايا القلوفونات ، يعتبر أمراً لا يمكن التقليل من أهميته . ولما كان القلوفون يتضمن عادة — تاريخ المخطوط واسم كاتبه أو مترجمه ، فقد ساعد ذلك على تحديد الزمن الذى عاش فيه الكاتب أو المترجم مما يعين على التعرف على سيرته وأخباره .

وفضلاً عما تقدم ، تكشف تلك القلوفونات عن مصادر المصاحف العربية وأصولها . فنعرف منها — مثلا — أن أصل المخطوطة رقم ٣ سيناء — عربى من دمشق ، وموضوعها « العهد القديم » وتاريخها سنة ١٢٥٨ م ، وكاتبها يدعى يوسف بن سباط الآمدى السريانى (١) ؛ وأن المخطوطة رقم ٢٨ سيناء — عربى وموضوعها « مزامير وتسابيح » وتاريخها سنة ١٢٦٩م ، وكاتبها مجهول مصدرها دير سيناء (٢) ؛ وأن المخطوطة رقم ٣٤ سيناء — عربى وموضوعها « مزامير » — عربى وموضوعها « مزامير » وتاريخها ١٢٨٢م وقد جاء فى ورقة ١٩٢ب أن الذى قام بترجمتها من اليونانية الى العربية هو عبد الله بن الفضل بن عبد الله الانطاكى ؛ وكذلك مخطوطة رقم ٢٥٢ سيناء — عربى وموضوعها « كتب كنسية لخدمة القداس » وتاريخها سنة ١٠١٠م ومترجمها يدعى عيسى بن اسحق الحمصى (ورقة ١٦٣ب) ، وهكذا .

(١) أنظر المخطوطة رقم ٣ سيناء — عربى — ورقة ٢٣٠ ب — ٢٣١ أ .

(٢) أنظر المخطوطة رقم ٢٨ سيناء — عربى — ورقة ٢٢١ ب .

وتاريخها سنة ١٢٨٢م ، مترجمها عبد الله بن الفضل بن عبد الله مصدرها عكا (١)؛ وأن المخطوطة رقم ٤٠ سيناء - عربي وموضوعها « مزامير وتسابيح » ، وتاريخها سنة ١١٦٧م وكاتبها الراهب يوحنا بن صهيون الشيزرى ، كتبت بدير القديس مار سابا فى مدينة بيت المقدس (٢) ؛ وأن المخطوطة رقم ١٦٧ وموضوعها « رسائل بولس » وتاريخها سنة ٦٥٣ هـ / ١٢٥٥ م وكاتبها هو الشماس يوحنا بن مهذب بن الشيخ مصدرها قبطى (٣) ، وهكذا .

وثمة ميزة أخرى لتلك القلوفونات ، هى انها تكشف عن أسماء بعض رؤساء دير سيناء فى الحقبة الوسيطة من التاريخ . ولذلك أهمية خاصة ، ذلك أن الدير لا يحتفظ بسير وتراجم رؤسائه الذين تولوا ادارته خلال تلك الفترة من الزمن، أو حتى بقوائم بأسمائهم . و نكاد نعرف عنهم ومن ثم فهم شيئا وعلى هذا فان ورود اسم أى أسقف من تولوا شئون الدير فى تاريخ معين ، يعنى الشيء الكثير . هذا ، وبالتعاون بين الدارسين فى مجموعة أيقونات الدير وفى ثائقه ومخطوطاته العربية والأجنبية ، يمكن اعداد ثبت اقرب ما يكون إلى الكمال بأسماء رؤساء الدير فى العصر الوسيط . وتؤدى القلوفونات العربية خدمة كبرى فى هذا المجال .

على أية حال ، نضرب مثلا بالمخطوط رقم ٦١ سيناء - عربى ، وموضوعه « مزامير وتسابيح » ، وتاريخه سنة ١٦٤١ م ، وكاتبه يدعى الشماس سيمون الحمصى . فقد جاء فى القلوفون الخاص به أنه كتب بدير سيناء أيام رئاسة الأسقف

---

(١) أنظر المخطوط رقم ٣٤ سيناء - عربى - ورقة ١٩٢ ب .

(٢) أنظر المخطوط رقم ٤٠ سيناء - عربى - ورقة ٢٥٥ أ .

(٣) أنظر المخطوط رقم ١٦٧ سيناء - عربى - ورقة ١٣٢ أ - ب و ١٣٢ ب .
أنظر المخطوط رقم ١٠١ سيناء - عربى ، والمخطوط رقم ١٠٧ سيناء - عربى ،

كير يواصف أسقف الدير (١) . وهذا يعنى أن الأسقف المذكور كان رئيساً على الدير عام ١٦٤١م . ونعرف أيضاً من المخطوط رقم ٨١ سيناء - عربى ، وموضوعه « الأناجيل الأربعة » ، وتاريخه سنة ١٢٢٣ م ، وكاتبه مجهول ، أن أسقف الدير حينذاك كان يدعى جرمانوس (٢) ، ومن المخطوط رقم ٨٢ سيناء - عربى وموضوعه أيضاً « الاناجيل الاربعة » ، وتاريخه سنة ١٢٨٧ م ، نعرف أن رئيس الدير فى ذلك التاريخ هو أنبا أرسانيوس (٣) ، ويعزز ذلك المخطوط رقم ١١٠ سيناء - عربى وموضوعه « الاناجيل الاربعة » ، وتاريخه سنة ١٢٨٦م، إذ جاء فى القلوفون الخاص به أن أسقف الدير وقت تدوينه هو أنبا أرسانيوس السالف الاشارة اليه فى خاتمة المخطوط رقم ٨٢ (٤) ، وهكذا .

(سادساً) التقاويم أو التاريخ :

وفضلا عما تقدم ، فان كثيراً من هذه القلوفونات تتميز بأهميتها البالغة ، إذ تعدد مختلف التقاويم من آدم إلى التقويم الاسلامى الهجرى . وتشكل جميع هذه التقاويم عناصر خامة لدراسة خصبة لموضوعات نادرة .

ولزيادة الايضاح نقول أن القلوفونات المذكورة تكشف عن أنواع عديدة من التاريخ ، منها تاريخ العالم المعروف بتاريخ آدم ، وتاريخ الاسكندر اليونانى ، والتقويم الميلادى اللاتينى المعروف بالتقويم الجريجورياني ، والتاريخ القبطى المعروف بتقويم الشهداء أو تقويم دقلديانوس ، والتقويم الهجرى . وتاريخ العالم

---

(١) أنظر المخطوط رقم ٦٢ سيناء - عربى ، ورقة ١٠٩ ب .

(٢) أنظر مخطوط رقم ٨١ سيناء - عربى ، ورقة ١٨٢ أ .

(٣) أنظر مخطوط رقم ٨٢ سيناء - عربى ، ورقة ٢٠ أ - ب .

(٤) أنظر مخطوط رقم ١١٠ سيناء - عربى ، ورقة ١٩٨ أ .

مشكوك فى صحته لسعة الفوارق بين ما أرخه كل من اليهود والنصارى . أما تاريخ الاسكندر فهو المبنى على الاشهر اليونانية ، ويعرف أيضاً بتاريخ السلوقيين ، ويبدأ من دخول سلوكس Selucus مدينه بابل بعد وفاة الاسكندر المقدونى باثنى عشر سنة ، وقد أخذ به السريان واليهود ويعرف عندهم بتاريخ العقود . أما تاريخ الشهداء فهو يبدأ بالسنة الأولى من حكم الامبراطور الرومانى دقلديانوس الموافقة ٢٨٤ م أو ٥٩٦ من تاريخ الاسكندر . وهذا التاريخ هو الذى اعتمد عليه قبط مصر حتى يومنا هذا . وعلى هذا يكون الفارق بين التقويم القبطى والتقويم الميلادى الغربى هو ٢٨٤ سنة . أما التقويم الميلادى فهو المعروف بالتقويم الجريجوريانى أو الجريجورى المعمول به حالياً فى الغرب . وأخيراً هناك التقويم الهجرى ، وهى سنة ٦٢١ م ، ويسير هذا التقويم حسب الاشهر القمرية حيث تنقص مدة السنة ١١ يوماً تقريباً عن السنة الشمسية (١) .

وهناك قاعدة متبعة لتحويل كل سنة من أى تقويم من التقاويم المشار اليها إلى

---

(١) أنظر فى موضوع التقاويم وتحويل التواريخ المراجع التالية :

Mahler, E, Wüstenfeld-Mahler'sche Vergleichungs — Tabllen der mohammedanischen und christlichen Zeitrechnung, Leipzig, 1926; Haig, W, Compartive Tab s of Muhammadan and Christian Dates, London, 1932.

محمد مختار : كتاب التوفيقات الإلهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الافرنكية والقبطية ـ القاهرة (بولاق) ١٣١١ هـ . أنظر أيضا بروفنسال (ل .) : التأريخ ـ مقال بدائرة المعارف الاسلامية (الترجمة العربية) ـ المجلد الرابع ، جب (هـ .) : التاريخ ـ مقال بدائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية) ـ المجلد الرابع ، هرنشو (ف .) : علم "تاريخ ـ ترجمة عبد الحميد العبادي ـ القاهرة ١٩٣٧ .

الأخرى من تقويم آخر . فمثلا لتحويل تاريخ آدم إلى الميلادى يستنزل منه ٥٥٠٨ سنة ، ولتحويل التاريخ القبطى إلى الميلادى يضاف اليه ٢٨٤ سنة ، ولتحويل السنة الميلادية إلى سنة هجرية يستنزل منها ٦٢٢ سنة (١) ، وهكذا .

وإذ قمنا بجولة بين مصاحف المجموعة الخطية العربية التى بها قلوفونات مؤرخة، نجد ما يشفى الغلة فى هذه الناحية الهامة . فثمة مخطوطات تتضمن قلوفونات بتاريخ كتابتها بأحد هذه التقاويم أو بأكثر من تقويم فى ذات الوقت . منها على سبيل المثال قلوفونات التاريخ الوارد بها من « سنين العالم » أو « الخليقة » فقط . مثال ذلك مخطوط رقم ١٨ سيناء - عربى ، وموضوعه « النبوات » ، وكتابه القس افرام من سيناء . وقد جاء فى القلوفون الخاص به أنه كمل الفراغ من المخطوط سنة ٦٨٥٨ لآدم (٢) ، وبتحويلها إلى الميلادى تصبح سنة ١٢٥٠م . وفى مخطوط رقم ٤٠ سيناء - عربى ، وموضوعه « مزامير وتسابيح » ، وكاتبه الراهب يوحنا صهيون الشيزرى ، قلوفون بنحازه سنة ٦٦٧٥ لآدم (٣) ، أى سنة ١١٦٧ م . أما المخطوط رقم ٣٧ سيناء - عربى ، وموضوعه « مزامير » ، وكاتبه يدعى محاسن الغريب بن يعقوب بن حباب الماردى ، فقد جاء فى القلوفون الخاص به أن الفراغ من كتابته كان فى سنة ١٥٤٣ من الاسكندر اليونانى (٤) التى توافق سنة ١٢٣١م . والقلوفون الوارد بالمخطوط رقم ٤٢ سيناء - عربى ، وموضوعه « مزامير

---

(١) وذلك بعد استبعاد الكسور بطبيعة الحال. وتفيد القلوفونات الواردة فى عدد من مصاحف المجموعة العربية فى الكشف عن هذه العمليات الحسابية .

(٢) مخطوط رقم ١٨ سيناء - عربى ، ورقة ٢٤٨ أ .

(٣) أنظر مخطوط رقم ٤٠ سيناء - عربى ورقة ٢٥٥ أ . راجع أيضا المخطوطات أرقام ٢٥ و ٢٨ و ٤٩ (سيناء - عربى) .

(٤) مخطوط رقم ٣٧ سيناء - عربى ، ورقة ٢٦ ب .

وتسابيح » ، وكاتبه ميخائيل بطرس السكندرى ، يحدد تاريخ كتابة المصحف بالتقويم الميلادى فقط ، وهو سنة ١٧٩٠ م (١) . بينما نجد فى المخطوط رقم ٤ سيناء - عربى ، وموضوعه « العهد القديم » ، وكاتبه يدعى جبريل بن موسى ، قلوفون بتاريخه بالهجرى فحسب ، وهو سنة ٢٥٣ هـ (٢) التى توافق سنة ٩٦٢م.

وإذا كان بعض الكتاب قد استخدموا تقويماً واحداً سواء أكان هجرياً أم ميلادياً أم يونانياً أم من سنى العالم ، فهناك مصاحف جاءت بها قلوفونات متضمنة تاريخ انجازها والفراغ من كتابتها بأكثر من تقويم فى آن واحد . مثال ذلك مخطوط رقم ٣ سيناء - عربى ، وموضوعه « العهد القديم » ، وكاتبه يوسف بن سباط الآمدى السريانى ، وبه قلوفون بتاريخ كتابته بثلاثة تقاويم هى تقويم الاسكندر وتقويم آدم والتقويم الهجرى ، وهذا التاريخ هو سنة ١٦٧٠ للاسكندر التى توافق سنة ٦٨٦٨ لسنى آدم التى توافق سنة ١٣٥٨ للمسيح (٣) . ونجد تاريخ المخطوط رقم ٣٤ سيناء - عربى ، وموضوعه « مزامير » بكل من تقويم آدم والتقويم الهجرى ، إذ جاء فى خاتمته أن الفراغ منه كان سنة ٦٧٩٠ لكون العالم التى توافق سنة ٦٨٠ هـ (٤) ، أى سنة ١٢٨٢ م .

ويتيح تاريخ المخطوط بأكثر من تقويم الفرصة أمام الباحثين للمقارنة العلمية

(١) مخطوط سيناء ٤٢ سيناء - عربى ، ورقة ١٧٢ ب .

(٢) مخطوط رقم ٤ سيناء - عربى ، ورقة ٢٨١ أ . أنظر أيضا مخطوط رقم ٣٠ سيناء - عربى (ورقة ١٩٠ أ) وتاريخه سنة ٣٦٧ هـ التى توافق سنة ٩٧٧م .

(٣) مخطوط رقم ٣ سيناء - عربى ، ورقة ٣٣٠ ب - ٣٣١ أ وكذلك ورقة ٢٧٢ ب .

(٤) مخطوط رقم ٣٤ سيناء - عربى ، ورقة ١٩٢ ب . راجع أيضا ، على سبيل المثال ، المخطوطات أرقام ٣٥ و ٤٥ و ٥٠ (سيناء - عربى) .

الدقيقه بين هذه التآريخ المختلفة للتأكد من صحة تأريخ التدوين . ويحدث أحياناً أن نجد اختلافات عند تحويل هذه التواريخ بحيث تكون غير مطابقة لبعضها ، ونقف حائرين أمام أيها أقرب إلى الصحة . ومثل هذه الحالات - وهى على أية حال قليلة فى المجموعة العربية - تحتاج إلى محاولات اجتهادية من قبل المعنيين بمثل هذه الأمور .

(سابعاً) التعليقات الاضافية :

وإذا كان القلوفون جزءاً ختامياً أصيلا من المخطوط وبقلم كاتبه أو مترجمه أو ناقله أو ناسخه ، فالتعليقات هى إضافات دخيلة بقلم كتاب وقراء آخرين فى فترات أخرى لاحقة ، وبخطوط تختلف عن الخطوط المستخدمة فى النصوص الأصلية . ويمكن تصنيف التعليقات التى أمكن العثور عليها فى مصاحف المجموعة العربية على الوجه التالى :

(ا) تعليقات مؤرخة تكشف عن أسماء أساقفة دير سيناء الذى لم يحتفظ لنا الدير بيانا بهم وبسيرهم . مثال ذلك مخطوط رقم ٢ سيناء - عربى ، وموضوعه « العهد القديم » وتاريخه سنة ١٢٨ هـ / ٩٣٠ م ، وبه تعليق بقلم شخص يدعى « صلمون المسيا أسقف جبل الله المقدس طور سينا » يفيد شراء المخطوط المذكور من دمشق ، وتاريخ التعليق سنة ٢٧٢ هـ التى توافق ٩٨٢ - ٩٨٣ م (١) . ونفهم من ذلك أن رئيس الدير فى أواخر القرن العاشر كان يدعى صلمون . وقد تتضمن مثل هذه التعليقات معلومات لا بأس بها عن رؤساء الدير تلقى المزيد من الضوء

---

(١) المخطوط رقم ٢ سيناء - عربى ، ورقة ١ ب . ونجد أمثلة أخرى عديدة لتعليقات مؤرخة وردت بها أسماء أساقفة الدير ، فى المخطوطات أرقام ٧٧ و ٧٩ و ٩٧ (سيناء - عربى) .

على تاريخ ادارتهم له .

(ب) تعليقات تفيد وقف المخطوطات على دير سيناء . والمجموعة العربية غنية بمثل هذه الوقفيات (١) . مثـــال ذلك مخطوط رقم ٣٥ سيناء ـ عربي ، وموضوعه « مزامير وتسابيح » ، وتاريخه سنة ١٠٣٩ هـ / ١٦٢٩ م ، وكاتبه يدعى « يوحنا بن شماس عيسى عويستات من خدام كنيسة دمشق الشام » ، وبه تعليق يفيد أن المصحف موقوف على دير طور سينا . ونص الوقف كالآتي :

« وكتب برسم الأخ بالله المدعو بالاسم الرهباني يواصف ابن عبد العزيز ابن تمام من أعيان دمشق الشام ويوميذا لابس الثوب الملايكي بدير طور سينا المقدس وكتبه ليقرأ فيه مدة أيام حياته ومن بعد عينه يكون وقفا موبدا على دير طور سيناء وكل من غيره عن الوقفية المذكورة أو بدله أو غيره أو أرهنه أو استرهنه أو باعه أو اشتراه كاينا من كان يكون محروم مفروز من مجد الله ومن السبعة مجامع المقدسة المسكونية ومن كل ما هو محق ويكون مار موسى والست كاترينا خصمه والعياذ بالله ... » (٢) .

(ج) تعليقات تكشف عن مصادر بعض المخطوطات وأصولها . مثال ذلك المخطوط رقم ٣ سيناء ـ عربي ، وموضوعه « العهد القديم » وتاريخه سنة ١٣٥٨م ، وبه تعليق على ورقة ٢ ا يحدد مصدره ، ونص التعليق :

« صار من عوادي الزمان في نوبة العبد الفقير إلى الله تعالى عيسى بن سعيد

---

(١) أنظر لوحة رقم ٢ .

(٢) أنظر مخطوط رقم ٣٥ سيناء ـ عربي ، ورقة ١٧٩ ب : ويعطينا هذا النص فكرة طيبة عن تطور الإملاء والكتابة العربية يصح أن تكون موضـــوع دراسة مستقلة .

الطبيب بمدينة الشام نفعه الله » (١) .

ومن ذلك نعرف أن أصل المخطوط من بلاد الشام .

(د) تعليقات بقلم قراء تفيد اطلاعهم على مصاحف المجموعة العربية، وهى زاخرة بمثل هذه القراءات . وبعض التعليقات المذكورة مؤرخ والبعض الآخر بدون تاريخ . وهى تعيننا أحياناً على تحديد التواريخ التقريبية للمخطوطات الخالية من القلوفونات والغير معروف تاريخها . فضلا عما تتضمنه من معلومات وأخبـــار نافعة . نضرب مثلا بالمخطوط رقم ٤٨ سيناء - عربى ، وموضوعه « مزامير وتسابيح » ، وكاتبه مجهول ، وتاريخه غير معروف . ولكن أمكن تحديد التاريخ على وجه التقريب من تعليق مؤرخ يفيد اطلاع أحد القراء عليه (٢) . وبناء على ذلك أمكن تحديد تاريخ المخطوط بحوالى القرن الثالث عشر الميلادى .

(هـ) تعليقات تفيد شراء المخطوطات أو اقتنائها ، وهى تتضمن - عادة - اســـم المشترى وتاريخ الشراء . مثال ذلك مخطوط رقم ١٤ سيناء - عربى ، وموضوعه « النبوات » ، وتاريخه حوالى القرن الرابع عشر ، وكاتبه مجهول ، وبه تعليق نصه :

« وقد اشترا هذا الكتاب النبوات المبارك بطرس ولد حنا بولص فى ٢٧ شهر نيسان المبارك مسيحية سنة ١٧٥٧ الموافقـــة للهجرة فى ٢٣ شهر شعبان سنة ١١٧٠ » (٣) .

---

(١) أنظر أيضا ورقة ٣٣٠ ب - ٣٣١ أ من المصحف المذكور .

(٢) مخطوط رقم ٤٨ سيناء - عربى ، ورقة ٢٠٦ ب . راجع ، على سبيل المثال ، المخطوط رقم ١٣ سيناء - عربى ، ورقة ١٢٤ ب . والمجموعة العربية عامرة بهذا النوع من التعليقات .

(٣) مخطوط رقم ١٤ سيناء - عربى ، ورقة ١٣١ أ .

(و) تعليقات تتناول معلومات عامة ، من أخبار وحوادث وسير وتراجم ومواليد ووفيات وأحداث ووقائع تاريخية هامة ووصفات طبية ونبذ فى الفلسفة والفلك والعلوم ، وما إلى ذلك . ففى المخطوط رقم ١ سيناء - عربى ، وموضوعه «العهد القديم» ، وتاريخه حوالى القرن التاسع ، وكاتبه مجهول ، تعليق تاريخى هام عن الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله (١) . والمجموعة العربية غنية بهذا النوع من المعلومات . كذلك تتضمن العديد من الحواشى التى تشتمل على وصفات طبية . نضرب مثلا لذلك بالمخطوط رقم ٩ سيناء - عربى ، وموضوعه «العهد القديم» ، وتاريخه القرن الثالث عشر ، وكاتبه مجهول ، وبه تعليق اضافى بخط يختلف عن الأصل فيه وصفة للملدوغين ، عبارة عن تعويذة تتضمن عبارات فى السحر غير مفهومة (٢) . وهكذا نجد فى تلك التعليقات العديد من الاشارات عن سلاطين مصر فى العصر الاسلامى الوسيط ، وعن فلاسفة الاغريق القدماء ومؤلفاتهم ، وعن بطاركة الاسكندرية وأخبارهم . ونعثر أحياناً على نبذ قيمة فى علم الفلك والموسيقى وما إلى ذلك (٣) .

---

(١) مخطوط رقم ١ سيناء - عربى ، ورقة ١٤٨ ب .

(٢) مخطوط رقم ٩ سيناء - عربى ، ورقة ١ أ . أنظر أيضا مخطوطات رقم ٧ سيناء - عربى (ورقة ٧٤ ب - ٧٥ ب) ، ومخطوط ١٣ سيناء - عربى (ورقة ١ - ٢ أ) .

(٣) المخطوط رقم ٢٤١ سيناء - عربى ، وموضوعه «كتب كنسية لخدمة القداس» ، وتاريخه حوالى سنة ١٣٦٥ م وكاتبه مجهول ، به تعليق (ورقة ١٣٦ ب) يتضمن نبذة كرونولوجية زمنية خاصة برحلة الى الأراضى المقدسة . والتعليق بخط مختلف عن الخط المستخدم فى النص الأصلى ، وتاريخه سنة ٦٨٧٣ لآدم التى توافق سنه ١٣٦٥ م .

ويلاحظ أن بعض هذه التعليقات قد يكون مدوناً على جانبي الغلاف الخاص بالمخطوط من الداخل ، مثال ذلك الملاحظة المكتوبة على غلاف المخطوط رقم ٧ سيناء - عربي من الداخل ، وموضوعه « أخبار الأيام » ، وتاريخه حوالى القرن العاشر ، وكاتبه مجهول (١) . وهناك أخيراً العديد من التعليقات التى تضمنتها المصاحف العربية الخطية بلغات غير عربية كالسريانية أو اليونانية ، وهى فى الغالب بقلم قراء اطلعوا على هذه المصاحف وسجلوا ملاحظاتهم وأسماءهم عليها (٢).

(ثامناً) التأثيرات العربية فى المجموعة :

تبدو هـذه التأثيرات فى أوضح أشكالها فى المخطوطات العربية التى تتزين بنقوش ورسوم وزخارف ملونة على هيئة طيور وورود وأزهار وتوريقات نباتية ، أو إطارات وأفاريز على النسق العربى . وقد أشرنا إلى ذلك فى شىء من التفصيل عند الحديث عن المصاحف العربية المصورة (٣) .

---

(١) مخطوط رقم ٨ سيناء - عربى ، وعنوان الملاحظة المذكورة « خبر عن الخراب الأول لبيت الله [كذا] » ، وهى بخط باهت يختلف عن الأصل .

(٢) أنظر مخطوط رقم ٣ سيناء - عربى ، وموضوعه « العهد القديم » ، وتاريخه سنة ١٣٥٨ م (ورقة ٢٧٢ ب و ٢٧٣ أ) ، وكذلك مخطوط رقم ٢١ سيناء - عربى ، وموضوعه « مزامير وتسابيح » ، وتاريخه حوالى القرن الحادى عشر ، وكاتبه مجهول (أوراق ١ - ٢ و (١٩٦ - ١٩٧) .

(٣) أنظر ما سبق الاشارة إليه فى هـذا المقال عن المخطوطات العربية المصورة . راجع أيضا المخطوطات رقم ٣٢ (ورقة ١٣٢ ب) ، ورقم ١٧١ (ب) ، ورقم ١٠٤ (أوراق ١ أ و ٨٣ أ و ١٢٥ أ و ٢٢٥ أ) ، وهكذا .

كذلك يلاحظ الطابع العربي واضحاً في كثير من المخطوطات العربية المسيحية التي تبدأ بالبسملة « بسم الله الرحمن الرحيم » بدلا من « بسم الآب والابن والروح القدس » . والأمثلة على ذلك كثيرة . إذا تبدأ أسفار العهد القديم في كل من المخطوطين رقمي ١ و ٢ بالبسملة ، وبالمثل تبدأ « رسائل بولس » من العهد الجديد في المخطوط رقم ١٥٧ سيناء - عربي « بسم الله الرحمن الرحيم » (١) .

مثال ذلك سفر التكوين في المخطوطة رقم ٢ وموضوعها « العهد القديم » ، وتاريخها سنة ٣٢٨ هـ / ٩٣٠ م ، وكاتبها مجهول ، إذ يبدأ كالآتي :

« بسم الله الرحمن الرحيم نبتدى بعون الله ونكتب أول سفر من التوراه ان اول ما خلق الله السما والأرض الخ .. » (٢) .

وترجع هذه المخطوطات إلى الفترة المبكرة بصفة عامة . فتاريخ المخطوط الأول حوالى القرن التاسع ، والثاني سنة ٣٢٨ هـ / ٩٣٠ م ، والثالث يرجع إلى القرن العاشر الميلادي . أي أن المخطوطات العربية المسيحية التي تبدأ بالبسملة وينتهي بعضها بشكر الله ، ترجع إلى القرنين التاسع والعاشر للميلاد ، وكانت الفتوحات العربية قد امتدت منذ العقود الأخيرة من القرن السابع وخلال القرن الثامن للميلاد وذلك كضرورة سياسية وحربية اقتضتها سلامة الدولة العربية

---

(١) مخطوط رقم ١ سيناء - عربي (ورقمه ٥٩ ب و ٥٩ أ) ، ومخطوط رقم ٢ سيناء - عربي (اوراق ٢ أو ١٤١ ب و ١٧٩ أ و ٢١٦ ب) ومخطوط رقم ١٥٧ سيناء - عربي (أوراق ١ أ و ٥ ب و ٢٢ ب و ٣٦ أ) .

(٢) أنظر ورقة ٢ أ من المخطوط المذكور . أنظر أيضا المخطوط رقم ٣١ سيناء - عربي ، وموضوعه « مزامير وتسابيح » وتاريخه ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م وكاتبه مجهول (ورقة ٣ ب) .

الفتية الناهضة وأمنها ، وتأميناً لرسالتها . ودخلت الأمـــلاك الشرقية للدولة البيزنطية فى نطاق الدولة العربية ، وغدت شبه جزيرة سيناء بديرها تابعة للسيادة العربية وسياستها السمحة المتسامحة . ويبدو أن ذلك قـــد ترك أثره فى استهلال المخطوطات العربية المسيحية العتيقة التى يحتفظ بها الدير بالبسملة ، وفى تأريخ بعضها بالتقويم الهجرى .

كذلك أطلق على كثير من مخطوطات المجموعة العربية لفظة « مصحف » بدلا من « انجيل » أو « بشارة » أو « سفر » . مثال ذلك مخطوط رقم ٦٣ سيناء ـ عربى وموضوعه « مزامير وتسابيح » ، وتاريخه حوالى القرن الثالث عشر ، وكاتبه يدعى الراهب مكارى . إذ استهل كتاب « بستان الرهبان » الوارد فى المخطوط المذكور بالآتى :

« بسم الله الخالق الحى الناطق ـــ نبدا بمعونة الله نكتب مصحف البستان لان فى البستان جميع الأشجار وفى هذا المصحف جميع الاثمار الروحانية النافعة للتعز » (١) .

وهكذا طعمت اللغة العربية بشبابها المنطلق ، وبرونقها وبهائها ، وبحصيلتها اللغوية الضخمة ، وأسلوبها الجزل ، وتعبيراتها المنسابة المتدفقة ، ومفرداتها الغنية ، مصاحف المجموعة العربية المسيحية بسيناء . فنى تزود تلك المصاحف بألفاظ مثل

---

(١) أنظر ورقة ٣٠٧ ب من المصحف المذكور . ونجد مثلا آخر فى المخطوطة رقم ٦٩ سيناء ـ عربى ، إذ يوجد على جانب الهامش الأيسر من ورقـــة ٥١ تعليق بخط نسخى واضح منقط ومختلف عن الاصل يفيد وقف المخطوط على دير سيناء ، ونص الوقفية كالآتى : « هذا المصحف الشريف وقف على دير سيناء ما لاحد سلطان من الله يخرجه منه ... ومن خالف يكون محروم » .

« الله » و « المصطفى » و « فاتحة انجيل كذا » وغيرها ، بالاضافة إلى التعبير العربي السليم (١) .

(تاسعاً) الحالة العامة للمخطوطات :

بعض هذه المصاحف لايزال بحالة جيدة لم تؤثر فيه عاديات الزمن . ومع ذلك فهناك عدد كبير منها أصابه البليان والتآكل والتمزق ، كما بليت كثير من أوراقه وذبلت الكتابة عليها مما يصعب معه قراءتها واستجلاء معانيها ، وبعضها غطى أوراقها طبقة متشققة مقطوعة أو مزينة بها بقع فى أكثر من موضع . وتتضح البقع بكثرة فى المواضع التى استخدم فيها الابهام لقلب الصحائف (٢) . وازاء هذا الوضع اضطر رجال الدين فى العصور المتعاقبة إلى ترميم المخطوطات البالية بقصاصات من الورق أو الرق بقصد الحفاظ عليها (٣) . ومن أهم أسباب التلف

---

(١) أنظر على سبيل المثال . مخطوط رقم ٦٨ سيناء - عربى وموضوعه « الأناجيل الأربعة » وتاريخه حوالى القرن الرابع عشر وكاتبه مجهول (ورقة ٥ ب) ؛ ومخطوط رقم ٨١ فى نفس الموضوع وتاريخه سنة ١٣٢٣ م وكاتبه مجهول (ورقة ٤ أ) ، ومخطوط رقم ٩٣ سيناء - عربى فى ذات الموضوع وتاريخه حوالى القرن الثالث عشر وكاتبه غير معروف (ورقة ١ ب) .

(٢) أنظر - مثلا - المخطوطات العربية بسيناء أرقام ٣ ، ٤ ، ١٦ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٢ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ .

(٣) مثل المخطوط رقم ٣٠ سيناء - عربى ، وهو مفكك وقد أعيد تقويته من الجانبين بورقتين أحدث من ورق المخطوط ، والمخطوط رقم ٣١ سيناء - عربى الذى أعيد تقويته هو الاخر بأربع صحائف من الرق عليها طقوس كنسية باللغة اليونانية .

الذى أصاب عـــدداً من مخطوطات المجموعة العربية ، مثلما أصاب غيرها من مصاحف المجموعات الأجنبية الأخرى التى توجد بالدير ، عامـــل الزمن ، وفعل الرطوبة ، وقرض الفئران ، فضلا عن تقلبات الجو والاهمال .

كذلك لوحظ أن كثيراً من هذه المصاحف ناقصة من البداية أو من النهاية ، أو من بدايتها ونهايتها على السواء (١) ، وأن أوراق بعضها بياض فى الأصل ، أى خالية من الكتابة ، وبخاصة عند بداية المخطوط أو نهايته (٢) . كذلك استبدلت بعض الأوراق القديمة فى عدد من هذه المصاحف بأوراق أخرى أحدث منها ، أما بسبب ضياع النصوص الأصلية أو تلفها الشديد . وتكون الأوراق المستحدثة ـ عادة ـ مكتوبة بخط يختلف عن الخط المستخدم فى النصوص الأصلية وفى عصور لاحقة (٣) ، وقد يختلف مقاسها عن مقاس المخطوط نفسه .

---

(١) من المخطوطات الناقصة من بدايتها نذكر المخطوطات أرقام ١، ٤، ٧، ١٠، ١١، ٤٢، ٤٣، ومن المخطوطات الناقصة من نهايتها تلك التى تحمل أرقام ٢ ، ٥، ٩، ٤٦؛ أما المخطوطات أرقام ٦، ١٧، ٢٠، ٢٦، ٢٩، ٣١، ٣٢، ٣٨، ٤١، ٤٤، فهى ناقصة من البداية والنهاية . وهذه الحالات نسوقها على سبيل المثال لا الحصر .

(٢) أنظر ـ مثلا مخطوطات رقم ١ (ورقة ٥٩ ب) ، ورقم ٣ ورقم ٢٢ (ورقتا ٢٦٤ ب و ٢٦٨ ب) ، ورقم ٢٧ (ورقة ١٤٦) ، ورقم ٤٢ ، ورقم ٢٣٠ (أوراق ٤٥ ب و ٤٦ أ و ٨٣ أ) ، ورقم ٢٣٦ (ورقة ٩٦ ب و ١٩٧) .

(٣) أنظر مثلا مخطوط رقم ١٠ (ورقة ٤) ، ومخطوط رقم ١٣ (الورقتان الأولى والثانية) ، ومخطوط رقم ١٧ (الأوراق الثمانية الأخيرة) ، ومخطوط رقم ٢٣ (ورقة ١٨٧) ، ومخطوط رقم ٢٩ (ورقة ١١٤) ، ومخطوط رقم ٤٦ (ورقتا ٢ ـ ٣) ، ومخطوط رقم ٤٧ (الأوراق الستة الأولى وورقتا ١٢٥-١٢٦ والورقتان الاخيرتان) .

وأخيراً هناك عدد قليل من المصاحف العربية تبين وجود أوراق ناقصة من داخلها ، وهي اما أن تكون منزوعة منها أو فقدت عند التجليد (١) . فضلا عن وجود بعض الأوراق في عدد من هذه المخطوطات في غير أماكنها الطبيعية (٢) . وأمكن الاستدلال على ذلك من التسلسل الرقمي للصحائف أو من تسلسل الكتابة نفسها . ولعل هذا الاضطراب في التسلسل قد حدث أثناء عمليات التجليد .

(عاشراً) نماذج من أهم مخطوطات المجموعة العربية :

يتمتع عدد غير قليل من مصاحف المجموعة العربية بأهمية بالغة . ولا يتسع المجال هنا للتعرض لهذه المصاحف بإسهاب وتفصيل ، وانما نكتفي بعرض سريع مركز لاثنين منها .

١ - مخطوط رقم ١ سيناء - عربي :

موضوعه « العهد القديم » ، ومقاسه ٢٢ × ١٦ سم ، ومكتوب على الرق ، وعدد أوراقه ١٤٨ ، ويتراوح عدد الأسطر في الصفحة ما بين ٢٣ و ٢٦ سطراً . وهو مدون بخط كوفي منقط جزئياً عداد مختلف عن الأصل ، وربما أضيفت النقط في عصر لاحق للمخطوط . ويلاحظ أن العناوين ورءوس الموضوعات

(١) أنظر مخطوط رقم ٩ الذي توجد به ثمان ورقات ممزقة ومنتزعة بعد ورقة ٣٤١ أ ، ومخطوط رقم ١٤ الذي تبين وجود أوراق مفقودة منه فيما بين ورقتي ١٢٩ و ١٣٠ ، ومخطوط رقم ٣٦ الذي فقدت أوراق منه فيما بين ورقتي ٢ و ٣ ، هكذا .

(٢) أنظر مخطوط رقم ١٠ وموضوعه « العهد القديم » ، إذ نلاحظ أن الورقة رقم ٣ في غير مكانها الطبيعي من حيث تسلسل الكتابة ، والمفروض أن تكون بعد ورقة رقم ٥ حتى يستقيم المعنى .

معلمة بالمداد الأحمر . وتاريخه حوالى القرن التاسع الميلادى . وهو يحتوى على جزء من سفر أيوب وعلى نبوات دانيال وأرميا وحزقيال . والهام فى الموضوع أن هذه الترجمة العربية الدقيقة الجيدة للمخطوط يمكن أن تكون هى ومثيلاتها من التراجم العتيقة للعهد القديم ، أساساً طيباً لمراجعة التراجم العربية الحديثة المعتمدة التى تحت أيدينا .

وما يقال عن هذا المخطوط يقال أيضاً عن المخطوطين رقمى ٣ و ٤ سيناء ـ عربى ، وهما فى نفس الموضوع . الأول مقاسه ٢٥ × ١٧,٥ سم ، ومكتوب على ورق مزيت ، وعدد أوراقه ٢٧٣ ، وعدد الأسطر فى الصفحة ١٦ سطراً ، والخط نسخى جيد ، وتاريخه سنة ١٣٥٨ م . والثانى مقــاسه ٢٦,٥ × ١٦ سم ، ومكتوب على ورق ، وعدد أوراقه ٢٨١ ، ويتراوح عدد الأسطر فى الصفحة الواحدة ما بين ١٦ و ١٩ سطراً ، وهو مدون بخط نسخى ردىء ، وتاريخه سنة ٣٥٣ هـ / ٩٦٣ م .

ويلاحظ أن هذين المصحفين يختلف كل منهما عن الآخر ، والاثنان بدورهما يختلفان عن المخطوط رقم ١ ، والمصاحف الثلاثة تختلف فى أسلوبها وترجمتها ولغتها عن النسخة المطبوعة المعتمدة . وتحوى مكتبة الدير العديد من أمثال هذه النسخ الخطية العتيقة التى تتميز بأهميتها الفائقة ، وهى إما تراجم جيدة عن أصول قديمة يونانية أو سريانية (١) أو نصوص أصلية وليست مجرد نسخ منقولة عن

---

(١) أنظر ، مثلا مخطوط رقم ٢ سيناء ـ عربى وموضوعه « العهد القديم » وتاريخه ١٣٥٨ م وكاتبه يوسف بن سباط الآمدى السريانى ، ويتضح من تعليق إضافى به (ورقة ٣٣٠ ب ـ ٣٣١ أ) أنه نقل من السريانى والعبرانى إلى العربية والمخطوط رقم ٣٠ سيناء ـ عربى وموضوعه « مزامير وتسابيح » وتاريخه =

غيرها (١) . والاعتماد على مثل هذه المصـــاحف العتيقة يفيد كثيراً فى تنقيح وتصويب النسخة العربية المنشورة التى تحت أيدينا (٢) .

٢ ـ مخطوط رقم ٥١٤ سيناء ـ عربى :

موضوعه « سير قديسين ومواد أخرى متفرقة ذات طابع دينى » ، والورق مقاسان كبير وصغير : الكبير ٢٣ × ١٥ سم والصغير ١٩ × ١٢،٥ سم ، وهو مكتوب على ورق ، وعدد أوراقه ١٧٥ ، ويتراوح عدد الأسطر فى الصفحة ما بين ٢١ و ٢٧ ، والخط كوفى متأخر ، وتاريخه حوالى القرن التاسع وأوائل القرن العاشر الميلادى ، وكاتبه يدعى توما الدلماطى .

وهذا هو المخطـــوط الذى أطلقت عليه بعثة مكتبة الكونجرس وجامعة الاسكندرية عام ١٩٥٠ اسم « ابن البعثة الذى يقدر بمليون دولار » ، ومكتشفه

= ٩٧٧م » وهو عبارة عن ترجمة طيبة تختلف عن التراجم الأخرى للعهد القديم ، والمخطوط رقم ٣٤ سيناء ـ عربى وموضـــوعه « مزامير » وتاريخه ١٢٨٢ م وواضح أن ترجمة العربية مأخوذة عن اليونانية القديمة مع شروح مدونة بالمداد الأحمر متداخلة بين الاصحاحات ، والمترجم هو عبد الله بن الفضل بن عبد الله (أنظر ورقة ١٩٢ ا ـ ب) .

(١) أنظر مخطوط رقم ٤٨ سيناء ـ عربى وموضوعه « مزامير وتسابيح » وتاريخه حوالى القرن الثالث عشر . هذا ، وحول موضوع ترجمة الكتاب المقدس فى مصر والعراق والشام إلى اللغة العربية ، أنظر مقـــال الدكتور مراد كامل : الكنوز الخطية بدير سانت كاترين بطورسينا ـ مجلة السياحة المصرية ـ العدد ١١٦ (١٩٦٦) ص ٢٥ ـ ٢٦

(٢) أنظر أحمد محمد عيسى : مخطوطات ووثائق دير سانت كاترين بسيناء ص ١٠٥ .

الدكتور عزيز سوريال عطية أحد أعضاء البعثة المذكورة ومحرر المجموعة العربية بها . ولا شك أن بعثة ١٩٥٠ قد توجت عملها بهذا الكنز الثمين (١) .

وتعتبر هذه النسخة الخطية فريدة من نوعها فى العالم ، إذ أزيلت الكتابة الأصلية من صحائف الرق وكتبت موضعها كتابة جديدة ، ولا تزال آثار المحور والإزالة باقية حتى اليوم . وتكاد تتحسس الكتابة السريانية فى المخطوط من أوله إلى آخره . كذلك اكتشف فى بعض صحائفه أربع طبقات مختلفة من الكتابة فى ذات الصحيفة الواحدة ، هى اليونانى القديم والسريانى والكوفى بنوعيه المتقدم والمتأخر (٢) .

---

(١) تعرض الدكتور سوريال لهذا المصحف العربى بالتفصيل فى محاضرة قيمة ألقاها بمكتبة الكونجرس بواشنطون عام ١٩٥١ عن بعثة ١٩٥٠ واكتشافاتها ومنجزاتها وقد أقيم بمكتبة الكونجرس فى تلك المناسبة معرض اشتمل على نماذج وعينات من المجموعة العربية من وثائق ومخطوطات . أنظر تفاصيل المعرض وملخص المحاضرة فى النشرة المسماة « أخبار مصر »

Egypt News, Vol3, No.3, April 1951 (Washington) .

كذلك ظهر للدكتور سوريال مقال عن المخطوط رقم ٥١٤ سيناء ـ عربى بعنوان :

Atiya A. S., " The Codex Arabicus of Mt. Sinai." The Indian Archives Vol, VII, No 1 - January - June 1953, pp 1 - 28 & plates.

والدكتور سوريال فى صدد نشر المصحف المذكور نشراً علمياً محققاً . راجع أيضاً ما ذكره الدكتور مراد كامل عن هذا المصحف الهام فى مقاله « الكنوز الخطية بدير سانت كاترين بطور سيناء » ص ٣٤ .

(٢) أنظر مثلا ، أوراق ١٩ ب ـ ٢٠ أ و ٢٩ أ و ٤٧ أ ـ ب و ٥١ أ و ٥٢ أ ـ ب و ٥٨ أ ـ ب و ٥٩ أ و ٢٠٫١ أ و ١٣٠ ب و ١٢٥ أ

ويشترك مع المخطوط رقم ٥٠٤ فى الأهمية المخطوط رقم ٥٨٨ سيناء — عربى ، وموضوعه « النبوات » أو « البروفيتولوجية » ، ومقاسه ٢٣×١٧ سم ، ويتألف من ٦٩ ورقة على الرق ، ويتراوح عدد الأسطر فى الصفحة مابين ١٩ و ٢١ سطراً ، وتاريخه حوالى القرن العاشر الميلادى ، وكاتبه مجهول . وكان هذا المخطوط فى الأصل مدوناً بالسريانية ، وقد أزيلت الكتابة السريانية وكتبت فوقها النبوات بالعربية ، ويمكن أن نلمس السريانى الماحى بين السطور (١) .

هذا ، وظاهرة وجود طبقات من الكتابة بعضها فوق بعض فى قليل من هذه المصاحف ظاهرة تحتاج إلى دراسة وبحث (٢) . ولعل قلة الرق وندرته وغلو ثمنه فى تلك الازمنة البعيدة هو الذى دفع رجال الدين وغيرهم من الكتاب والنقلة

---

(١) أنظر أوراق ٣ ب و٣٣ ا و٣٩ ا من المخطوط المذكور . وقد ظهر لى مقال بالانجليزية عن هذا المخطوط عنوانه :

Youssef, J.N., "Prodhetologio ι ; An Arabic Manuscript in the Library of the Monastery of St. Catherine in Sinai, No. 588 — A Survey and Critical Study," Cahiers d' Alxandrie, Série 4, No.4, 1966, 1—10 & plates.

(٢) يطلق عليها الاستاذ أحمد عيسى اسم (مخطوطات مغسولة) ، ويقول إنه من الأمور المعروفة فى العصور السابقة التجاء البعض إلى غسل المخطوطات واعادة الكتابة عليها ، ولايكون ذلك ميسورا إلا حين يكون النص القديم مكتوبا على الرق ، فتغسل الصحيفة من الحبر القديم لتكون معدة للكتابة عليها من جديد . أنظر أحمد عيسى : مخطوطات ووثائق دير سانت كاترين - بسيناء ، ص ١٠٧ . ويلاحظ أن اشارة الاستاذ عيسى الخاصة بالمخطوطات المغسولة إشارة عامة صريحة لاتتضمن أمثلة المجموعة الخطية العربية أو غيرها من مخطوطات الدير .

والمترجمين إلى اعادة استخدام المصاحف العتيقة . وبخاصة اليونانية والسريانية للكتابة عليها من جديد . وكانت الطريقة المتبعة هى طريقة المحو والازالة ثم الكتابة فوق الطبقة الممحاة ، وقد تصل الطبقات فى ذات الصحيفة الواحدة إلى ست طبقات فوق بعضها ، يمكن تتبع آثارها والتعرف على مضمونها . وقد تصبح الصفحة من كثرة المحو والازالة غير صالحة للاستعمال مرة أخرى ، فيتركها الكاتب وعليها آثار الطبقة الممحاة دون أن يستخدمها (١) .

فهارس المجموعة العربية :

منذ أواخر القرن التاسع عشر وحتى أواسط القرن العشرين، وضعت عدة فهارس للمجموعة الخطية العربية كلها أو جانب منها . وفيما يلى بيان بهذه الفهارس حسب ترتيب ظهورها .

(أولا) فهرست مسز مارجريت دنلوب جبسون Mrs. Margaret Dunlop Gibson ، الذى ظهر فى لندن سنة ١٨٩٤ تحت إسم :

Gibson, M.D. Catalogue of the Arabic Manuscripts - Studia Sinaitica III. London. 1894.

ويلاحظ أن هذا الفهرست يتضمن بعض مخطوطات المجموعة العربية وليس

---

(١) أنظر عن ذلك مراد كامل : الكنوز الخطية بدير سانت كاترين بطور سيناء ص ٢٤ . هذا ، وعدد المخطوطات التى أزيلت الكتابة الأصلية عنها وأعيد الكتابة عليها بالعربية قليل للغاية ، ويمكن حصر هذه المصاحف وإعداد دراسة مستقلة خاصة بها وبمحتويات النصوص الأصلية الممحاة .

كلها (١) .

(ثانياً) فهرست الدكتور مراد كامل

كلفت وزارة التربية والتعليم (المعارف العمومية سابقاً) الدكتور مراد كامل بعمل فهرست كامل لمخطوطات سيناء . وقد قام سيادته بتقسيم المخطوطات إلى مجموعات ، وفهرست كل مجموعة حسب موضوعها وظهر هذا الفهرست فى جزءين فى القاهرة سنة ١٩٥١ تحت اسم :

مراد كامل (الدكتور) : فهرست مكتبة دير سانت كاترين بطور سينا ـ جزءان ـ القاهرة (المطبعة الاميرية) ١٩٥١ .

وهو فهرس عام للمجموعات الخطية باللغات الشرقية والغربية ، بعد استبعاد الفاقد والمطبوع منها ، وكذلك الوثائق الخطية العربية والتركية . وقد وردت المجموعة العربية فى الجزء الاول منه (٢) .

---

(١) وردت عناوين بعض المخطوطات فى كتالوج مسز جبسون غير مطابقة للواقع . إذ جاء المخطوط رقم ٤ سيناء ـ عربى فى كتالوج جبسون (ص ١) تحت اسم (كتاب مقالات عن سيرة ابراهيم) فى حين أن موضوعه الأصلى هو (العهد القديم) ، وكذلك بالنسبة للمخطوط رقم ٧ سيناء ـ عربى ، اذ ورد فى كتالوج جبسون تحت اسم (خبر داود الملك) ، بينما موضوعه هو (أخبار الأيام الاول والثانى) ، وهكذا .

(٢) أنظر مراد كامل : فهرست مكتبة دير سانت كاترين بطور سينا ـ ج ١ ص ١٩٠ ـ ٨٣ . ويلاحظ أن الدكتور مراد كامل عندما قام بتحديد عناوين المخطوطات اهتم أساسا بالصفة الغالبة على كل مخطوط أو الموضوع الاول منه . بمعنى أنه اذا تضمن مخطوط ما عدة موضوعات متنوعة فلم تصل إلى ثبيرة

(ثالثاً) فهرست بعثة مكتبة الكونجرس وجامعة الاسكندرية عام ١٩٥٠ ، وقد ظهر فى واشنطون سنة ١٩٥٢ تحت العنوان التالى :

Clark, K.W., Checklist of Manuscripts in St Catherine's Monastery, Mount Sinai, microfilmed for the Library of Congress, 1950. Washington 1952.

وهو يقتصر على المخطوطات التى قامت بعثة ١٩٥٠ بتصويرها بالميكروفيلم فحسب ، بما فى ذلك المخطوطات العربية التى صورتها البعثة . والبيانات التى تضمنها هذا الفهرست لاتزيد عما ورد فى فهرست كل من الدكتور مراد كامل ومسز جبسون .

(رابعاً) فهرست الدكتور عزيز سوريال عطية

وقد طبع فى بلتيمور سنة ١٩٥٨ تحت اسم :

Atiya, A. S., The Arabic Manuscripts of Mount Sinai- A Forward by W. Phillips, Baltimore, 1958.

= أو عشرين موضوعا ، فالموضوع الاول هو الذى يحمل - فى الغالب - اسم المخطوط دون باقى البنود الواردة فيه . مثال ذلك مخطوط رقم ١١ سيناء - عربى ، وموضوعه (النبوات) ، وتاريخه سنة ١١١٦م (أنظر مراد كامل : الفهرست . ج ١ - ص ٢٧) . وبالرجوع الى المخطوط اتضح أنه يحتوى على تسعة مواضيع مختلفة أولها النبوات ، وتتلو النبوات مواد أخرى مختلفة تماما وتتميز بأهميتها فى ذات الوقت . وتنطبق هذه الملاحظة كذلك على المخطوطات العربية بسيناء أرقام ٢١ ، و ٢٢ ، و٢٣ (أنظر مراد كامل : الفهرست . ج ١ - ص ٢٠) ، والواقع أنها تتضمن موضوعات أخرى متنوعة إلى جانب (المزامير والتسابيح) ، وهكذا .

وهو يتضمن فهرست للمخطوطات العربية الموجودة بالدير .

ويلاحظ . بصفة عامة ، أن البيانات المتعلقة بالمخطوطات العربيه التى وردت فى الكتالوجات الاربعة سالفة الذكر ، بيانات سريعة مقتضبة اقتصرت على ذكر الرقم المكتبى للمخطوط ، وموضوعه مجملا ، وعدد صفحاته ، ومقاسه ، وتاريخه ، ونوع الورق المستعمل . والواقع أن بيانات كل مخطوط لا تزيد عن سطر واحد . ومع ذلك يجب أن نذكر بأن هذه المجهودات الطيبة السابقة تعتبر خطوة فى الطريق نحو عمل فهارس تفصيلية كاملة متكاملة للمجموعة الخطية العربية المحفوظة بالدير .

وقد أعد هذه الفهارس بالفعل الدكتور عزيز سوريال عطية باللغة الانجليزية أثناء عمله كمحرر للمجموعة العربية خلال بعثة ١٩٥٠ ، وهى تحمل العنوان التالى :

« Atiya, A.S., Catalogue Raisonné of the Mount Sinai Arabic Manuscripts-Complete Anal ical Listing of the Arabic Collection Preserved in the Monastery of St. Catherine on Mt, Sinai. »

ويقوم كاتب هذا المقال بنقله إلى العربية تحت اسم :

« الفهارس التحليلية لمخطوطات طور سيناء العربية فهارس كاملة مع دراسة تحليلية للمخطوطات العربية بدير القديسة كاترينه بطورسيناء » . وسوف تقع فى عدة مجلدات مزودة بالصور واللوحات الفنية والخطية (١) .

وفى اعتقادى أن هذه الفهارس التفصيلية سوف تحتل المكانة اللائقة بها بين

---

(١) لم ينشر الدكتور سوريال فهارسه التحليلية هذه بالانجليزية ، ويقوم كاتب هذا المقال . بنقلها إلى العربية عن الاصول الخطية الانجليزية التى وضعها السيد المؤلف وبموافقته .

المجموعات الببليوجرافية المعاصرة ، لأنها تمثل ، فى الواقع ، أول دراسة دقيقة نقدية موضوعية شاملة ومحددة لمحتويات تلك المجموعة من المخطوطات العربية ذات الشهرة العالمية المحفوظة بدير سانت كاترين ، وفى اعتقادى أيضاً أن اعداد هذا العمل الكبير بحيث يكون فى متناول كافة الباحثين من المستشرقين والمعنيين بالدراسات العربية والمسيحية والتاريخية والفلسفية واللاهوتية فى شتى أنحاء العالم — سوف يتيح لكل منهم امكانيات خصبة واسعة فى مجال البحث العلمى . وغنى عن القول أن صدور هذه الفهارس التحليلية يعنى — بالاضافة إلى ما تقدم — تسجيل هذا التراث العربى القومى الضخم حفظاً له من العبث والضياع داخل بقعة عزيزة غالية من أرض الوطن .

كلمة ختامية :

وختاماً فإن الافكار التى تناولناها بالعرض والتحليل فى هذا المقال ، يصح أن تكون كل فكرة منها مجالا لدراسة مستفيضة مستقلة قائمة بذاتها تخدم ناحية من نواحى البحث العلمى أو تسد نقصاً فى زاوية من زواياه .

ان مخطوطات سيناء العربية التى تبلغ قرابة الستمائة ، معين لا ينضب للباحثين فى مختلف المجالات بصفة عامة ، وفى تاريخ العصور الوسطى وحضارتها بصفة خاصة . ولا شك أن البحث والتنقيب فيها سوف يضيف الكثير إلى العلم والتاريخ ، وسوف يقدم مادة خصبة قيمة قد تغير الكثير من الشائع المألوف عن عدد من الظواهر والحركات التاريخية التى يكتنفها النقص ويشوبها الغموض ، مما يهيء السبيل للوصول إلى آراء وأفكار وأحكام وقواعد صحيحة ، تنير الطريق أمام الدارسين من طلاب العلم .

البحث الثالث

بستان الرهبان

عرض وتحليل لنسخه الخطية العربية غير المنشورة المحفوظة بمكتبة دير سيناء

نشر هذا البحث بمجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية - العدد ٢٣ - الاسكندرية (مصر) ١٩٧١ - ص ٥٩ - ٩٢ .

تمهيد :

تحتفظ مكتبة دير سيناء بمجموعة نادرة من المخطوطات العربية التى تتميز بأهميتها البالغة بالنسبة للمعنيين بدراسة الفكر الوسيط ، وظهــور المسيحية وانتشارها فى نهاية التاريخ القديم وبداية العصر الوسيط ، وحركة الاضطهادات الدينية التى صاحبت نموها ، ثم تأسيس الكنيسة التى أصبح لها شأن خطير فى تاريخ القرون الوسطى ، وفى عقلية الفرد وتفكيره وحياته الخاصة والعامة . فضلا عن حركة الانشقاقات الدينية داخل تلك الكنيسة التى عقدت من أجلهــا المجامع المسكونية الكبرى بقصد تدعيم المسيحية فى وجه البدع والهرطقات التى تعرضت لها . كذلك تناولت نظم الرهبنة والديرية ، وسير وتعاليم وأقوال الرهبان والآباء الأول الذين وضعوا الأسس المتينة التى قام عليها هذا الدين . بالإضافة إلى العديد من الموضوعات الفلسفية واللاهوتية التى تضمنتها تلك المخطوطات .

وتشتمل المجموعة العربية على حوالى ستمائة مخطوطة لم تنشر بعد ، من بينها أربعون نسخة خطية من مصحف « بستان الرهبان » الذى يعرف أيضاً باسم « بستان الآباء القديسين » أو « فردوس الآباء » (١) وبعض هذه النسخ فى مصاحف مستقلة قائمة بذاتها (٢) ، والبعض مدون ضمن مواضيع أخرى متنوعة

---

(١) وهو غير « بستان الروح » أو « الفردوس العقلى » الذى تحتفظ مكتبة دير سيناء بخمس نسخ خطية منه باللغة العربية تحمل أرقام ٣٥٩ و ٣٦٠ و٤٣٩ و ٤٨٠ و ٤٨٣ (سيناء ـ عربى) سنفرد لها دراسة مستقلة بإذن الله .

(٢) تبلغ عدد نسخ « بستان الرهبان » التى توجد فى مصاحف مستقلة منفردة ١٣ نسخة تحمل أرقام مكتبة الدير التالية : ٤٣٧ و٤٦٠ و ٥٤٦ و ٥٥٠ و ٥٥٢ و٥٥٤ و٥٥٧ و٥٠٣ و٥٦٤ و٥٦٥ و٥٦٦ و٥٧٢ و٥٧٣ (سيناء ـ عربى) .

متعددة (١) . وقد قامت فى عام ١٩٥٠ بعثة علمية مشتركة من جامعة الاسكندرية ومكتبة الكونجرس الأمريكية بعمل صور ميكروفيلم لمعظم النسخ الخطية لكتاب « بستان الرهبان » ، وتحتفظ كلية الآداب بجامعة الاسكندرية بصور منها (٢) . وترجع أهمية هذه النسخ غير المنشورة أنها تتضمن سير وأخبار وتعاليم الرهبان والنساك والآباء الأول فى الكنيسة المسيحية . وهى تلقى المزيد من الضوء على الظروف التى أحاطت بنشأة الحركة الرهبانية وتطورها ، وإنتقالها من مصر إلى أوروبا ، والأثر الذى تركته فى الفكر المسيحى خلال الحقبة الوسيطة من التاريخ .

وفيما يلى عرض وتحليل ودراسة مقارنة لهذه النسخ الخطية الأربعين من مصحف « بستان الرهبان » ، مع التعريف بها والكشف عن قيمتها التاريخية .

(أولا) الناحية الشكلية :

مما يلفت النظر أن مقاسات هذه المخطوطات تختلف اختلافاً بيناً . فأكبرها حجما هى المخطوطة رقم ٤٩٢ سيناء - عربى التى يبلغ مقاسها الخارجى ٢٧×١٧,٥م

---

(١) أما المخطوطات العربية بسيناء التى تتضمن كتاب « بستان الرهبان » أو أجزاء منه إلى جانب موضوعات أخرى متفرقة ، فعددها ٢٧ مخطوطة تحمل أرقام مكتبة الدير التالية : ٤٣٨ و٤٣٩ و٤٤٢ و٤٤٤ و٤٧٦ و٤٧٧ و٤٧٩ و٤٩٢ و٥٠٤ و٥٠٥ و٥٠٦ و٥٠٨ و٥٢٥ و٥٣٦ و٥٤٢ و٥٤٧ و٥٤٨ و٥٥١ و٥٥٣ و٥٥٥ و٥٥٨ و٥٥٩ و٥٦٠ و٥٦٤ و٥٦٨ و٥٧٠ و٥٧١ و٦٢٧ (سيناء - عربى) .

(٢) تحتفظ كلية الآداب بجامعة الاسكندرية بنسخ من صور الميكروفيلم للمخطوطات التى قامت بعثة ١٩٥٠ بتصويرها من كتاب « بستان الرهبان » ، وعددها ٣١ مخطوطة . أما تلك التى لم تقم البعثة بتصويرها منه بالبستان فعددها تسع مخطوطات تحمل أرقام مكتبة الدير التالية : ٤٩٢ و٥٢٥ و٥٥٠ و٥٥٥ و٥٥٩ و٥٦٤ و٥٦٦ و٥٦٨ و٥٧٠ (سيناء - عربى) .

سم ، ومقاس الكتابة من الداخل ٢٥ × ١٣ سم ، وعدد الأسطر فى الصفحة الواحدة ٢١ سطراً ، بينما أصغرها حجما هى المخطوطة رقم ٥٥٥ سيناء - عربى التى يبلغ مقاسها ١٢٫٥×٩٫٥ سم ، ومقاس الكتابة ١٠ × ٨ سم ، وعدد الأسطر فى الصفحة ١٠ . كذلك تتراوح أوراق كل مخطوطة ما بين ١١٤ ورقة كما هو الحال فى المخطوطة رقم ٤٧٩ سيناء - عربى ، و٥٧٣ ورقة كما فى المخطوطة رقم ٥٦١ سيناء - عربى . وجميع هذه المصاحف مكتوبة على ورق ، فيما عدا المصحف رقم ٥٤٢ سيناء - عربى فهو الوحيد المدون على رق غزال ، ولذلك ينفرد بأهمية خاصة (١) .

هذا ، وقد تنوع الخط المستخدم فى كتابة هذه المصاحف الاربعين . فهناك مصحفان مدونان بخط كوفى متأخر (٢) ، ومصحفان آخران بخط نسخى عتيق جداً (٣) ، وثلاثة مصاحف بخط نسخى معتدل يرجع إلى تاريخ متأخر(٤) .أما باقى النسخ فمدونة بخط نسخى عتيق متسق (٥) . وثمة خمس مخطوطات مدونة كل واحدة منها بخطوط مختلفة مما يدل على أن هناك أكثر من شخص قد اشترك فى كتابة كل منها (٦) ويلاحظ أيضاً أن العناوين ورءوس الموضوعات فى

---

(١) نظراً لأهمية هذه المخطوطة سنعرض لها بشىء من التفصيل فى آخر البحث مع غيرها من مصاحف « بستان الرهبان » التى تتميز بأهميتها .

(٢) هما المخطوطة رقم ٥٠٨ والمخطوطة رقم ٥٤٢ (سيناء - عربى) .

(٣) المخطوطة رقم ٥٥١ والمخطوطة رقم ٥٥٢ (سيناء - عربى) .

(٤) المخطوطات أرقام ٤٧٩و٥٦٥و٥٦٦ (سيناء - عربى) .

(٥) بعضها يشتهر بحروفه الصغيرة مثل المخطوطة رقم ٥٥٠ سيناء - عربى .

(٦) هى المخطوطة أرقام ٤٤٢ و٤٤٧ و٥٥٢و٥٦١و٥٧٠ (سيناء - عربى)

هذه المصاحف مكتوبة بالمداد الأحمر ، فيما عدا مخطوطة واحدة تحمل رقم٥٤٧ سيناء ـ عربي غير معلمة بالمداد الأحمر (١) .

وثمة خمسة مصاحف أغلفتها مفقودة (٢) ، وخمسة مغلفة بجلد ومعظمها مبطن من الداخل برق أو ورق بقصد تقوية الغلاف (٣) ، ومصحف واحد له غلاف من الورق المقوى (٤) ، أما باقى المصاحف وعددها ٢٩ مصحفاً ، فلكل منها غلاف خشبي مكسو بجلد بني عادى أو داكن اللون . وبعض هذه الأغلفة فى حالة جيدة ، والبعض الآخر بال أو مكسور أو مفقود أحد جانبيه أو أعيد ترميمه أو تقويته وتبطينه بأوراق عليها كتابات بالعربية أو اليونانية القديمة أو كليهما (٥) . وتعنى الملاحظة الأخيرة الكثير ، إذ أن بعض المخطوطات العتيقة

---

(١) هذا ، ويلاحظ أن بعض عناوين المخطوطة رقم ٤٦٧ سيناء ـ عربي مكتوبة بالأحمر .

(٢) المصاحف أرقام ٤٤٤ و ٥٠٨ و٥٢٥ و٥٧٢ و٦٧٢ (سيناء ـ عربي).

(٣) المخطوطة رقم ٤٧٩ سيناء ـ عربي لها غلاف جلدى لونه بني فاتح ، والمخطوطة رقم ٥٤١ سيناء ـ عربي لها غلاف جلدى عتيق بني اللون ومبطن بقماش كتاني أزرق وبورقة عليها كتابة بالعربية ، والمخطوطة رقم ٥٥٣ سيناء ـ عربي لها غلاف جلدى عتيق مبطن من الداخل بصحائف من الرق عليها كتابات باليونانية والعربية ، والمخطوطة رقم ٥٥٥ سيناء ـ عربي لها غلاف جلدى عتيق لونه بني غامق ومبطن بأوراق عليها كتابة بالعربية ، وأخيراً المخطوطة رقم ٥٦٦ سيناء ـ عربي وتنفرد بغلافها الجلدى الأسود اللون .

(٤) المصحف رقم ٥٧٣ سيناء ـ عربي .

(٥) الأغلفة المكسورة والبالية والمفقود أحد جانبيها هى أغلفة =

اليونانية والعربية التي كان الدير يحتفظ بها ، قد استخدمت فى ترميم وتبطين أغلفة مخطوطات أخرى حفظاً لها من التلف والضياع . وهذه الظاهرة ملحوظة فى عدد غير قليل من مخطوطات الدير . كما أن الأوراق التى استخدمت فى تبطين بعض أغلفة مصاحف « بستان الرهبان » تتضمن - بصفة عامة - مادة ذات طابع دينى . هذا ، وقد تبقى فى عدد من هذه المخطوطات المسامير الكبيرة المبرشمة والأقفال والأشرطة الجلدية المستخدمة لغلقها (١) .

ولو أن الجانب الأكبر من هذه الأغلفة لا يثير الانتباه ، إلا أن عدداً قليلا منها يتميز بأهميته من الناحية الفنية والأثرية . فهناك مخطوطة لها غلاف خشبى مكسو بجلد بنى مزين بإطارات ورسوم على شكل ورود صغيرة (٢) ، ومصحفان لكل منهما غلاف مزين بإطار على هيئة توريقات نباتية (٣) ، وأغلفة سبع مخطوطات مرصعة بحليات فى الأركان والوسط (٤) . وقد زينت بعض الأغلفة

= المخطوطات التى تحمل الأرقام التالية : ٤٣٧ و ٤٣٩ و ٤٧٦ و ٤٧٧ و ٤٩٢ و ٥٠٦ و ٥٣٦ و ٥٤٢ و ٥٥٢ و ٥٦٠ و ٥٦٤ و ٥٧٠ و ٥٧١ (سيناء - عربى) .
أما الأغلفة المبطنة أو المقواه بأوراق عليها كتابات بالعربيه أو اليونانية القديمة، فهى أغلفة المخطوطات أرقام ٣٨ ، و ٤٤٢ و ٤٤٤ و ٤٦٧ و ٥٥٠ و ٥٥١ (سيناء - عربى) .

(١) المخطوطات أرقام ٤٣٧ و ٤٩٢ و ٥٥٤ و ٥٥٧ و ٥٦٠ (سيناء - عربى) .

(٢) المخطوطات رقم ٤٣٨ (سيناء - عربى) .

(٣) المخطوطتان رقم ٥٦٥ ورقم ٥٧١ (سيناء - عربى) .

(٤) المخطوطات أرقام ٤٤٢ و ٥٤٢ و ٥٤٦ و ٥٥٧ و ٥٥٨ و ٥٦١ و ٥٦٣ (سيناء - عربى) .

برسوم على هيئة صلبان أو بصليب واحد فى الوسط (١). ونلمس الدقة والبراعة فى هذه الرسوم وفى النقوش والتوريقات التى يتجلى فيها الاثر العربى (٢).

أما عن حالة هذه المصاحف الاربعين، فهناك واحد منها بحالة جيدة تماماً وهو المصحف رقم ٤٣٧ سيناء - عربى، وثلاثة فى حالة سيئة للغاية وتحتاج الى عناية خاصة عند فحصها واختبارها. (٣) كما أن بعضها به تآكل نتيجة قرض الفئران (٤)، وكثير منها أوراقها مبقعة بشدة، وتبدو آثار الرطوبة واضحة (٥). ويترتب على ذلك أن أوراق بعض هذه النسخ الخطية بالية كليها أو جزئياً، ومتآكلة عند الاطراف والحواف (٦).

وثمة مصحف بعض أوراقه ممزقة (٧)، وآخر بعض أوراقه

(١) أغلفة المخطوطات رقم ٤٤٧ و٤٧٩ و٥٥٧ و٥٦١ و٥٧١ (سيناء - عربى).

(٢) للمزيد من المعلومات عن تطور الكتابة والخط العربى فى مخطوطات سيناء العربية وأغلفة هذه المخطوطات وأهميتها، أنظر جوزيف نسيم يوسف: دراسات فى المخطوطات العربية بدير القديسة كاترينه فى سيناء مقال بمجلة كلية الآداب - جامعة الاسكندرية - العدد ٢٢ (العام الجامعى ٦٨/١٩٦٩) - الاسكندرية ١٩٦٩، وبصفة خاصة صفحات ١٠٦ - ١١٢.

(٣) المخطوطات أرقام ٥٢٥ و ٥٥٥ و ٥٦٤ (سيناء - عربى).

(٤) المخطوطات أرقام ٥٠٥ و٥٥٠ و٥٦٤ و٥٧٠ (سيناء عربى).

(٥) المخطوطات أرقام ٤٦٧ و٤٧٦ و٥٠٦ و٥٢٥ و ٥٣٦ و٥٤٢ و٥٧٤ و٥٥٠ و٥٥١ و٥٥٣ و٥٥٥ و ٥٦٠ و٥٦٨ (سيناء - عربى) والمخطوطة رقم ٤٠٧ وإن كانت أوراقها مبقعة، إلا أنه يمكن قراءتها بسهولة.

(٦) المخطوطات أرقام ٥٥١ و٥٥٣ و ٥٥٤ و ٥٥٥ و٥٦٠ و٥٦٨ (سيناء - عربى).

(٧) الورقتان ١٠٥ - ١٠٦ من المصحف رقم ٥٤٢ سيناء - عربى ممزقتان جزئيا.

منزوعة(١)، وثلاثة أوراقها كلها أو بعضها سائبة (٢)، ومصاحف أخرى ملازمها مفككة(٣) كما أن الاوراق التى فى بداية عدد من هذه المصاحف أو نهايتها ناقصة(٤). وهناك مصحف لوحظ وجود أخطاء فى ترقيم صفحاته، وهو يحمل رقم ٤٣٩ سيناء — عربى (٥). وأخيراً يلاحظ أن هذه المصاحف الاربعين اشتملت على « البستان » إما كاملا أو مختصراً أو ناقصا أو مبتوراً، أو احتوت على نبذ ومقتطفات منه (٦).

---

(١) الاوراق فيما بين ورقتى ٢٢٥ و ٣٢٦ من المصحف رقم ٥٦١ سيناء — عربى منزوعة من النص.

(٢) المصاحف أرقام ٥٠٨ و ٥٦١ و ٥٦٨ (سيناء — عربى).

(٣) المصاحف أرقام ٤٧٦ و ٤٩٢ و ٥٥٥ و ٥٧٠ (سيناء — عربى).

(٤) المصاحف أرقام ٤٤٢ و ٥٣٠ و ٥٤٢ و ٥٤٦ و ٥٤٧ (سيناء — عربى) ناقصة من النهاية، والمصاحف أرقام ٤٧٦ و ٥٦١ و ٥٦٣ و ٥٧٠ (سيناء — عربى) ناقصة من البداية، والمصاحف أرقام ٤٤٤ و ٥٠٨ و ٥٢٥ و ٥٥١ و ٥٧١ و ٥٧٢ و ٦٢٧ (سيناء — عربى) ناقصة من البداية والنهاية. وفيما يتعلق بالمخطوطة رقم ٦٢٧ سيناء — عربى، يتضح من الترقيم للملازمها أن هناك ١٨ ورقة مفقود من بدايتها. وهذه النماذج نسوقها على سبيل المثال.

(٥) تركت الاوراق من ٤٠ إلى ٧٠ من المصحف المذكور بدون ترقيم.

(٦) اشتملت بعض المخطوطات العربية الاخرى بسيناء، الى جانب موضوعاتها الاصلية الرئيسية على نبذ مختصرة ومقتطفات قصيرة من « البستان » وما يرجح أنها منه، وهى تحمل أرقام ٦٣ و ١٦٤ و ٢٣٥ و ٢٥٠. أنظر عزيز سوريال عطيه (دكتور): الفهارس التحليلية لمخطوطات طور سينا العربية، ترجمة دكتور جوزيف نسيم يوسف، ج ١، (الاسكندرية ١٩٧٠) ص ١٠٦، ٢٠٦، ٤٢٨، ٤٧٣ و ٥٥٦.

(ثانياً) قلوفونات « البستان » وملاحظات أخرى :

المقصود بالقلوفونات الخواتيم التي تنتهي بها المخطوطات ، وهي غالباً ماتكون بقلم كتابها أو ناسخيها أو مترجميها . ولهذه الخواتيم أهمية لا يمكن التقليل من شأنها بالنسبة للنسخ الخطية الأربعين من كتاب « بستان الرهبان » ، فهي تكشف ، في معظم الأحيان ، عن إسم كاتب المخطوط أو ناقله أو مترجمه إذا كان المخطوط منقولا عن أصل سوريانى أو يونانى قديم . كما تلقى الضوء أحياناً على تاريخ المخطوط وإسم رئيس الدير وقت تدوينه . وإذا وضعنا في الاعتبار أن غالبية هذه المخطوطات ذات طابع ديني ، وأن كتابها أو ناسخيها أو مترجميها هم عادة من رجال الدين الذين كانوا يحرصون على عدم ذكر أسمائهم إنكاراً لذواتهم ، وإذا وضعنا في الاعتبار أيضاً أن الجانب الأكبر من مصاحف « بستان الرهبان » الخالية من القلوفونات مجهول أسماء كتابها أو مترجميها وغير معروف تاريخ تدوينها بالضبط ، وإذا وضعنا في الاعتبار كذلك أنه لاتوجد قوائم كاملة بأسماء رؤساء دير سيناء الذين تولوا إدارته في الفترة الوسيطة من التاريخ — إذا وضعنا كل هذا في الحسبان أدركنا على الفور مدى الأهمية التي تتمتع بها القلوفونات التي اختتمت بها بعض مصاحف « البستان » ، وما تعنيه بالنسبة للباحث المتعمق فيها (١) .

على أية حال توجد ٨ مخطوطة من بين هذه المجموعة خالية تماماً من القلوفونات (٢) . وهذه المخطوطات لم يتبين — بصفة عامة — تحديد

---

(١) حول قلوفونات المجموعة الخطية العربية بسيناء ، أنظر مقالى : دراسات في المخطوطات العربية بدير القديسة كاترينه في سيناء ، ص ١١٥ — ١١٨ .

(٢) المصاحف الثمانية والعشرون المشار إليها تحمل أرقام مكتبة الدير

تواريخها بالضبط ، وإنما كان هذا التحديد تحديداً تقريبياً اجتهادياً اعتمد أساساً على نوع الورق المستخدم والخط المدون به المخطوط ونوع الحبر . فضلا عن طبيعة المادة التى يشتمل عليها ، وما ورد بها من نبذ أو إشارات مؤرخة تفيد وقف مخطوط ما على الدير أو قراءته والاطلاع عليه ، وما إلى ذلك من بيانات قد تساعد على إلقاء الضوء على الزمن التقريبى الذى دون فيه المخطوط .

وإذا كانت غالبية مصاحف « البستان » خالية من الخواتيم ، فهناك ١٢ مصحفاً توجد بها قولوفونات تضمن بعضها تاريخ المخطوط واسم كاتبه ، كما جاء فى البعض اسم الكاتب دون ذكر التاريخ ، أو العكس . فهناك مصحفان ورد بكل منهما التاريخ فقط دون أية إشارة إلى اسم الكاتب (١) ، ومصحف واحد ورد به اسم الكاتب دون التاريخ (٢) ومصحف آخر لم ترد فى خاتمته أية إشارة إلى اسم الكاتب أو تاريخ المخطوط (٣) أما بقيه المصاحف وعددها ثمانية فقد تضمنت القولوفونات الخاصة بها أسماء كتابها وتواريخ تدوينها (٤) .

= التالى بيانها : ٤٣٧ و ٤٣٨ و ٤٤٢ و ٤٦٧ و ٤٧٦ و ٤٧٧ و ٤٧٩ و ٤٩٢ و ٥٠٦ و ٥٠٨ و ٥٢٥ و ٥٤٢ و ٥٤٦ و ٥٤٧ و ٥٥٠ و ٥٥٢ و ٥٥٥ و ٥٥ و ٥٥٩ و ٥٦٠ و ٥٦١ و ٥٦٤ و ٥٦٦ و ٥٦٨ و ٥٧٠ و ٥٧١ و ٥٧٠ و٦٢٧ (سيناء - عربى) .

(١) المصحف رقم ٥٤ و لمصحف رقم ٥٥ (سيناء - عربى) .

(٢) المصحف رقم ٥٥٨ سيناء - عربى .

(٣) المصحف رقم ٥٠٥ سيناء - عربى ، ورقة ٢٠٢ أ - ب .

(٤) المصاحف أرقام ٤٣٩ و ٤٤٤ و ٥٢٦ و ٥٣٣ و ٥٥٤ و ٥٦٣ و ٥٦٥ و ٥٧٣ (سيناء - عربى) ويلاحظ أنه لوجود تآكل بخاتمة المخطوط رقم ٥٥٤ لم يمكن معرفة اسم كاتبها أو تاريخها على وجه اليقين .

وإذا انتقلنا من التعميم إلى التخصيص ، نبدأ باستعراض المصاحف التى وردت بها قلوفونات حددت تواريخ كتابتها وأسماء كتابها تحديداً واضحاً . منها المخطوط رقم ٣٩٤ سيناء - عربى ، وهى تحتوى على عدة موضوعات من بينها كتاب « فردوس الآباء (١) » . وقد ورد به قلوفون يحدد تاريخه بسنة ٦٧٨٧ لآدم ، أى سنة ١٢٧٩ م . والمصحف بقلم « صفرونيوس » بطريق بيت المقدس ، وكاتبه هو الراهب يوحنا بدير سيناء ، وقد أعده من أجل « انبا بطرس الاسكاف السينائى » (٢) . أما المخطوطة رقم ٤٤٤ سيناء - عربى ، وعنوانها « بستان الآباء » ، فتاريخها هو سنة ٦١٥ هـ التى توافق من سنى العالم ٦٧٢٦ ، وهى تقابل سنة ١٢١٨م . وناقلها من السريانية إلى العربية يدعى « بوشاكر بن الشماس بو الكرم » ، ونص القلوفون كالآتى :

« وهو ما نقله من لغة السريانية إلى العربية المعلم الفاضل انبا اغريغوريس المزان بتاج القسوسية الشريف الدرجة فى الرهبانية بو شاكر بن الشماس بو الكرم » (٣) .

والمخطوطة رقم ٥٣٦ سيناء - عربى التى ورد فى القلوفون الخاص بها أن تاريخها هو سنة ٦٧٥ هـ التى توافق سنة ١٢٧٧م ، وكاتبها هو مخاييل بن اسطفان ابن سيمون بن البيزى الانطاكى الاسير بخزانة البنود » (٤) . كذلك تكشف

---

(١) هو الموضوع الرابع من بين موضوعات المخطوطة المذكورة ، ويبدأ من ورقة ٢٠٧ أ وينتهى بورقة ٢٥١ ب .

(٢) أنظر ورقة ٢٥١ ب - ٢٥٢ أ من المصحف المذكور .

(٣) أنظر قلوفون المخطوطة رقم ٤٤٤ سيناء - عربى ، ورقة ٣٠٥ ب .

(٤) أنظر مخطوطة رقم ٥٣٦ سيناء - عربى ، ورقة ١٢١ ب .

خواتيم المخطوطات أرقام ٥٥٣ و ٥٦٢ و ٥٦٥ و ٥٧٣ (سيناء - عربى) عن تواريخ كتابتها وأسماء كتابها . فتاريخ المخطوطة الأولى هو سنة ٦٦٨٢ لآدم الموافقة لسنة ١٤٨٥ من الاسكندر وسنة ١١٨٠م وسنة ٥٥٦٩هـ ، (١) أما كاتبها فهو « ابراهيم بن القس اسحاق بن الخورى يحنا الطيشرانى » (٢) . وتاريخ المخطوطة الثانية هو سنة ٦٧٦٥ لآدم التى توافق سنة ١٢٥٧م ، وكاتبها هو « الراهب الشماس يوحنا بن الوحش » (٣) . وتاريخ المخطوطة الثالثة هو سنة ٧١٣٠ لآدم التى توافق سنة ١٦٢٢م ، وكاتبها هو « سيماون باسم شماس من مدينة حمص المحروسة » . (٤) والأخيرة تاريخها سنة ١٧٩١م ، وكاتبها هو « الشيخ داود السينايبى اقلوم جبل الله طور سينا » (٥) . وهناك مخطوطة تحمل رقم ٥٥٤ سيناء - عربى ، تاريخها حوالى القرن الثالث عشر ، وكان من الممكن التعرف على تاريخها واسم كاتبها لولا القطع الذى يوجد فى ورقة ٣٠٩ أ التى

---

(١) أنظر مخطوطة رقم ٥٥٣ سيناء - عربى - ورقة ١٣٢ أ . ويلاحظ أنه بتحويل تاريخ آدم إلى الميلادى يصبح سنة ١١٧٤ م ، وبتحويل التاريخ الهجرى إلى الميلادى يكون سنة ١١٨٤ م ، بفارق يقدر بعشر سنوات ، فى حين أن التاريخ الميلادى الوارد فعلا بالقلوفون هو سنة ١١٨٢ م . ولا نجد تعليلا مقبولا لهذه الفوارق فى التواريخ .

(٢) وقد ورد الاسم أيضاً فى قلوفون مختصر فى ورقة ١٢١ ب من نفس المخطوطة .

(٣) أنظر مخطوطه رقم ٥٦٢ سيناء - عربى ، ورقة ٣٠٠ أ .

(٤) أنظر مخطوطة رقم ٥٦٥ سيناء - عربى ورقة ٤٦٨ ب . ويلاحظ أن قلوفون المخطوطة يلقى الضوء أيضا على مصدرها وهو مدينة حمص بالشام .

(٥) أنظر مخطوطة رقم ٥٧٣ سيناء - عربى ، ورقة ١٣١ ب .

تضمنت خاتمة باسم الكاتب وتاريخ المخطوطة (١) .

هذا ، ويوجد مصحفان من « بستان الرهبان » حددت خاتمة كل منها تاريخ الفراغ منه دون ذكر اسم الكاتب . الأول رقم ٥٤٨ سيناء - عربي ، وتاريخه سنة ٦٨١٤ لآدم أى سنة ١٣٠٦ م (٢) ، والثانى يحمل رقم ٥٥١ سيناء - عربي ، وتاريخه هو سنة ٦٥٧٧ لآدم أى سنة ١٠٦٩ م (٣) . وهناك مخطوطة واحدة من « البستان » احتوت على خاتمتين باسمى كاتبين مختلفين وهى المخطوطة رقم ٥٥٨ سيناء - عربي . ويلاحظ أن إسم الكاتب فى الخاتمة الأولى هو « ارسانى السينانى » ، بينما جاء فى الخاتمة الثانية أن كاتب المخطوطة يدعى « سيميون المنبجى » . (٤) ولما كانت المخطوطة تتضمن مواضيع متفرقة متعددة من بينها « بستان الرهبان » ، فلا نعرف على وجه اليقين من هو كاتب « البستان » ، وكل ما يمكن قوله إنه ربما يكون قد اشترك كاتبان فى تدوين هذه المخطوطة ويعزز ذلك وجود خطين مختلفين . وثمة مخطوطة تحمل رقم ٥٦٥ سيناء — عربي تضمنت خاتمتها إلى جانب إسم كاتبها وتاريخها إسم أسقف الدير وقت تدوينها

---

(١) المخطوطة رقم٥٥٤ سيناء - عربي بها قلوفون (ورقة٢٠٩ أ) يوجد به تآكل تعذر معه معرفة اسم الكاتب وتحديد التاريخ على وجه اليقين . ويبدأ القلوفون هكذا « ...عشر شهر اذار سنة ستة آلاف ..وسبعة وستين لابينا آدم » ويحتمل أن تكون سنة ٦٧ [٧] ٦ لآدم التى تقابل سنة ١٢٥٩ م . وعلى هذا يمكن القول بأن تاريخها حوالى القرن الثالث عشر .

(٢) أنظر مصحف رقم ٥٤٨ سيناء - عربي ، ورقة ١٦٢ أ وورقة ١٩٤ أ .

(٣) أنظر مصحف رقم ٥٥١ سيناء - عربي ، ورقة ١٤٢ ب .

(٤) أنظر مخطوطة رقم ٥٥٨ سيناء - عربي ، ورقة ١٩٠ ب وورقة ٢٠١ ب .

ويدعى « كير يواصف (١) .

نخرج مما سبق بعدة ملاحظات أولاها أن مصاحف « البستان » التي بها قلوفونات قد دونت في الفترة الوسيطة من التاريخ ، وعلى وجه التحديد فيما بين عامي ١٠٦٩ و ١٣٠٦ م ، وذلك باستثناء مصحفين اثنين فقط دونا فيما بعد . والملاحظة الثانية أنه توجد مخطوطة واحدة تكشف خاتمتها عن مصدرها واسم رئيس الدير وقت تدوينها . والملاحظة الثالثة تبين فائدة القلوفونات في إلقاء الضوء على مختلف التقاويم من آدم إلى الاسكندر إلى الميلادى إلى الهجرى . وأخيراً تعيننا القلوفونات في التعرف على أسماء كتاب ومترجمي « البستان » ، ومعظمهم من هيئة رجال الدين .

هذا عن نسخ « بستان الرهبان » الخطية التي بها خواتيم حددت تاريخ كتابتها او اسماء كتابها او الاثنين معاً . اما بقية مصحف « البستان » فلا يوجد بها خواتيم ، ولهذا تعذر تحديد تواريخها تحديداً قاطعاً ، ولم يتسن معرفة أسماء كتابها(٢) .

---

(١) أنظر مخطوطة رقم ٥٦٥ سيناء ـ عربى ، ورقة ٤٦٨ ب . أنظر الصفحة السابقة من هذه الدراسة .

(٢) مصاحف « البستان » المجهول أسماء كتابها هي تلك التي تحمل أرقام ٤٣٨ و٤٩٧ و٤٧٦ و٤٧٧ و٤٧٩ و٤٩٢ و٥٠٥ و٥٠٦ و٥٠٨ و٥٢٥ و٥٤٢ و٥٤٦ و ٥٤٧ و٥٥٠ و٥٥٢ و٥٥٥ و٥٥٧ و٥٥٩ و٥٦٠ و٥٦١ و٥٦٤ و٥٦٦ و٥٦٨ و٥٧٠ و ٥٧١ و٥٧٢ (سيناء ـ عربى) . أما المخطوطة رقم ٤٣٧ سيناء ـ عربى وموضوعها « تعاليم لذهبي الفم وباسيليوس وافرام وأقوال من بستان الرهبان » ، فغير معروف كاتبها بالضبط ولم يرد بها قلوفون وإن كان يحتمل انه صفرونيوس بطريق بيت المقدس . ويعزز ذلك ما جاء في المخطوطة رقم ٤٤٢ سيناء ـ عربى ، ورقة ٦١ أ وما يليها .

وقد تم تحديد تواريخ هذه المصاحف غير المؤرخة على وجه التقريب . منها مخطوطة واحدة ترجع إلى القرن التاسع الميلادى وهى تحمل رقم ٥٤٢ سيناء — عربى ، وأخرى ترجع إلى القرن العاشر ورقمها ٥٠٨ سيناء - عربى ، وثالثة ترجع إلى القرن الحادى عشر ورقمها ٥٥٢ سيناء - عربى . وهناك سبع مخطوطات ترجع إلى القرن الثانى عشر وهى تحمل أرقام ٤٣٧ و٥٤٧ و٥٥٠ و٥٥٨ و٥٧١ و٥٧٢ و٦٢٧ (سيناء - عربى) ، و ١٨ مخطوطة ترجع إلى القرن الثالث عشر الميلادى وهى تحمل أرقام ٤٣٨ و٤٤٢ و٤٦٧ و٤٧١ و٤٧٧ و٤٩٢ و٥٠٥ و٥٠٦ و٥٢٥ و٥٤٦ و٥٥٥ و٥٥٧ و٥٥٩ و٥٦٠ و٥٦١ و٥١٤ و٥٦٨ و٥٧٠ (سيناء - عربى). وثمة مخطوطتان يرجع تاريخ تدوينها إلى عصر النهضة ، وهما المخطوطة رقم ٥٦٦ سيناء - عربى وتاريخها حوالى القرن السادس عشر ، والمخطوطة رقم ٤٧٩ سيناء - عربى وتاريخها حوالى القرن السابع عشر .

وإذا كانت قلوفونات بعض النسخ الخطية من مصحف « بستان الرهبان » التى يحتفظ بها دير سيناء ضمن مجموعته الخطية العربية تمتاز بأهميتها البالغة التى لا يمكن إغفالها أو التجاوز عنها ، فثمة عدة ملاحظات سريعة تجدر الإشارة إليها فى هذا الصدد . الملاحظة الأولى أنه توجد ثمانية مصاحف من تلك المجموعة تضمنت نبذاً تفيد وقفها على الدير فيما عدا واحدة نص وقفيتها غير واضح.(١) وأربع من هذه الوقفيات بأقلام أساقفة الدير أنفسهم ، هى المخطوطات أرقام ٤٣٨ و٥٥٢ و٥٥٩ (سيناء - عربى) بقلم الأسقف « جرمانوس » (٢) ، والمخطوطة

---

(١) هى المخطوطات أرقام ٤٣٨ و٥٤٨ و٥٥٢ و٥٥٨ و٥٥٩ و٥٦٠ و٥٧٣ (سيناء - عربى) . أما المخطوطة رقم ٥٥٥ سيناء - عربى (ورقة ٢٧ ب) فنص وقفيتها غير واضح وهو « هذا الكتاب للست أم وجيه (كذا) [illegible]

(٢) أنظر مخطوطة رقم ٤٣٨ سيناء - عربى ، والنبذة مدونة بأعلا الغلاف [illegible]

رقم ٥٦٠ سيناء - عربى بقلم الأسقف « ارسانى » (١). أما وقفية المخطوطة رقم ٥٧٣ سيناء - عربى فهى بقلم شخص يدعى « الشيخ داود السينايبق » (٢) ، ولم يتضح من نص الوقفية إن كان داود هذا زائراً للدير أم رئيساً له .

والملاحظة الثانية أنه توجد إشارات عديدة فى معظم مصاحف « البستان » تفيد اطلاع القراء عليها على مر العصور . وبعض هذه القراءات مؤرخة وموقع عليها من القراء (٣) ، والبعض الآخر بدون تاريخ (٤). وبعض هذه القراءات مكتوب بالعربية واليونانية . (٥) وهناك قراءتان مؤرختـــان فى أحد هذه المصاحف ورد بها اسم أسقف الدير وقتها ، ويحمل هذا المصحف رقم ٤٣٩ سيناء -عربى ، والقراءتان بتاريخ ٧٠٨٧ لآدم ، أى سنة ١٥٧٩ م ، فى عهد رئاسة أسقف الدير المسمى « افجينوس » (٦) .

= الأيمن من الداخل ، ومخطوطة رقم ٥٥٢ سيناء - عربى (ورقة ١ أ) ، ومخطوطة رقم ٥٥٩ سيناء - عربى (ورقة ٣ أ) .

(١) أنظر مخطوطة رقم ٥٦٠ سيناء - عربى (ورقة ٢ أ) .

(٢) أنظر مخطوطة رقم ٥٧٣ سيناء - عربى (ورقة ١ أ) .

(٣) أنظر ، مخطوطة رقم ٤٣٧ سيناء - عربى التى تتضمن قراءة مؤرخة على الغلاف الأيمن من الداخل بقلم « الشماس بو سعد سليمان المتطبب » ، وتاريخها سنة ١٢٧٤ م . أنظر أيضاً المخطوطات العربية بسيناء أرقام ٤٣٨ (ورقة ٢٨١ب) و٤٤٤ (ورقة ٢٦١ أ) و٥٥٧ (ورقة ٣ ٣ ب) و ٥٥٩ (ورقة ٢ أ) .

(٤) أنظر ، مثلا ، مخطوطة رقم ٥٥٠ سيناء - عربى (ورقة ٢٠٠) .

(٥) أنظر المخطوطات العربية بسيناء أرقام ٤٧٦ (الغلاف الأيسر من الداخل) و ٥٠٦ (ورقة ١٧٥ أ و ب) و ٥٤٧ (أوراق ١٠٢ - ١٠٤ ب) .

(٦) أنظر مخطوطة رقم ٤٣٩ سيناء - عربى (ورقة ٣٥٢ أ) .

والملاحظة الثالثة هي أن ثلاثة من مصاحف « بستان الرهبان » مصورة ، وهي المصحف رقم ٥٠٦ سيناء — عربي ، إذ تزين ورقة ٧٦ أ رسوم نباتية ملونة على هيئة توريقات ، والمصحف رقم ٤٥٢ سيناء — عربي الذي تتحلى رؤوس فصوله وإصحاحاته بزخارف بدائية مبسطة أقرب ماتكون إلى التوريقات العربية الطراز ، والمصحف رقم ٥٦٠ سيناء عربي وتزين ورقة ٢ أ زخرفة ملونة على هيئة توريقات ورسم على شكل صليب . ولا تكشف الزخارف والرسوم في هذه المصاحف الثلاثة عن براعة أو مقدرة فنية بارزة ، وإن كان الأثر العربي يبدو فيها بوضوح (١) .

(ثالثاً) عنوان المصحف ومحتوياته ومؤلفه :

اشتهر هذا المصحف باسم « بستان الرهبان » أو « بستان الآباء القديسين » أو « فردوس الآبـــاء » . (٢) وبالرجوع إلى نسخه الخطية الأربعين المحفوظة

---

(١) حول مخطوطات سيناء العربية المصورة ، أنظر مقالي : دراسات في المخطوطات العربية بدير القديسة كاترينة في سيناء ، ص ١١٢ - ١١٤ .

(٢) ظهر في القاهرة عام ١٩٦٨ كتاب يحمل اسم « بستان الرهبان لآباء الكنيسة القبطية » ، أشرفت على نشره لجنة التحرير والنشر بمطرانيه بني سويف والبهنسا ، وتولت طبعه مطبعة دار العالم العربي . وغني عن القول أن هذا الكتاب تناول سير وتراجم مشاهير آباء الكنيسة القبطية فقط أمثال أثناسيوس وانطونيوس وباخوميوس ومقاريوس ، في حين أن المصاحف الخطية العربية المحفوظة بدير سيناء تناولت سير وأقوال وقصص وتعاليم آباء الكنيسة الأول في فجر المسيحية سواء أكانوا مصريين أم شاميين أم بيزنطيين (يونانيين) أم غيرهم . وواضح أيضاً من مقدمة الكتاب أنه غير مأخوذ من نسخة خطية عربية من مصحف البستان ، وإنما تم تجميع مادته من عدة مراجع منشورة من عربية وأجنبية وأعطى =

بالدير اتضح أنها باستثناء خمس منها لم تشر إلى إسمه صراحة . فنجد — مثلا — المخطوطة رقم ٤٣٧ سيناء — عربى تحمل العنوان التالى :

« هذه تعاليم منتخبة من أقوال فم الذهب وباسيليوس وأفرام وزوسيما وباقى الآبا الأبرار »(١) .

ونجد أيضاً أن عنوان «البستان» فى المخطوطة رقم٤٣٨ سيناء - عربى ، هو:

«أقوال منتخبة من أقوال القديسين فم الذهب وباسيليوس وأفرام وقريس ويلوس وباقى الابرار » (٢) .

بينما تحـــدد عنوان المصحف فى المخطوطة رقم ٤٧٧ سيناء — عربى على الوجه التالى :

« نبدا . . . . بوصف الآبا القديسين ونسكهم الذى يشتمل هـذا

= له اسم « البستان » . وكيفما كان الأمر، يصح أن تكون النسخ العربية الخطية الأربعين من مصحف « بستان الرهبان » التى يحتفظ بها دير سيناء أساساً متيناً وطيباً للمراجعة وتصحيح وتنقيح واستكمال هذه النسخة العربية المنشورة،وكذلك التراجم المنشورة باللغات الأوروبية الحديثة لكتاب «البستان» ، مثل ترجمة واليس بادج الانجليزية المعروفة باسم Budge. E A. T. W. (tr), The Paradise or Garden of the Fathers, 2 vols., Oxford, 1934.

(١) أنظر كذلك — على سبيل المثال — المخطوطة رقم ٤٣١ سيناء عربى ، ورقة ٢٠٧ أ ، والمخطوطة رقم ٥٦٠ سيناء عربى ، ورقة ٢ أ .

(٢) أنظر مخطوطة رقم ٤٣٨ سيناء — عربى ، ورقة ٨٧ب . راجع أيضاً المخطوطات العربية بسيناء رقم ٤٩٢ (ورقة ١ب)، ورقم٥٠٨ (ورقة ٦٩ب)، ورقم ٥٥٧ (ورقة ١ ب) .

المصحف عن اخبارهم » (١) .

أما عنوانه فى المخطوطة رقم ٥٢٦ سيناء - عربى فهو :

« من كلام الآبا القديسين وأخبارهم » (٢) .

وعنوان المخطوطة رقم ٥٤٢ سيناء عربى كالآتى :

« هذه قصص الابهات الاجبا القديسين من الرجال والنساء فى امكنة شتا » (٣) .

وحددت المخطوطة رقم ٥٤٦ سيناء - عربى عنوان المصحف على الوجه التالى :

« ... تقدمة القول عن تدابير الآبا القديسين »(٤) .

وعنوان المخطوطة رقم ٥٥٠ سيناء - عربى هو :

« ... هذا الكتاب وصية ونسك وتدبير عجيب .. وألفاظ آبا قديسين » (٥) .

وعنوان « البستان » فى المخطوطة رقم ٥٥٨ سيناء - عربى ، هو :

« هذه ابيات نافعة ملتقطة من قول الآبا القديسين (٦) .

وفى المخطوطة رقم ٥٦٥ سيناء عربى ، جاء العنوان كالآتى :

---

(١) أنظر مخطوطة رقم ٤٧٧ سيناء - عربى ، ورقة ٧٢ أ . راجع أيضاً مخطوطة رقم ٥٥٢ سيناء - عربى ، ورقة ١ ب .

(٢) أنظر مخطوطة رقم ٥٣٦ سيناء - عربى ، ورقة ١ أ .

(٣) أنظر مخطوطة رقم ٥٤٢ سيناء - عربى ، ورقة ١١١ ب

(٤) أنظر مخطوطة رقم ٥٤٦ سيناء - عربى ، ورقة ٢ أ .

(٥) أنظر مخطوطة رقم ٥٥٠ سيناء - عربى ، ورقة ١ أ .

(٦) مخطوطة رقم ٥٥٨ سيناء - عربى ، ورقة ١ أ .

«... نكتب اخبار الابا والقديسين النساك المتوحدين» (١)

نخلص مما سبق أن معظم مصاحف «البستان» لم تشر إلى عنوانه صراحة، مكتفية بتحديد المضمون ومجمل المحتويات تحت إسم «أخبار» أو «تعاليم» أو «أقوال» أو «كلام» أو «وصايا» أو «تدابير» أو «سير» أو «قصص» الآباء القديسين ومن هذه المصاحف ما حدد أسماء بعض أولئك القديسين من رجال الكنيسة الأول، ومنها ما أورد العنوان مركزاً.

أما المصاحف الخمسة التي حددت العنوان بوضوح فهي تلك التي تحمل أرقام ٤٤٢ و ٥٠٦ و ٥٤٧ و ٥٥٤ و ٥٦١ (سيناء — عربي)، وقد اكتفى أحد هذه المصاحف بتحديد العنوان على الوجه التالي:

«نبتدى ... نكتب جزو من الباتيريقون (٢) المعروف بالبستان وهو من اخبار الرهبان والاباء» (٣).

---

(١) مخطوطة رقم ٥٦٥ سيناء — عربي، ورقة ١ أ. أنظر أيضاً المخطوطات العربية بسيناء رقم ٥٧٣ (ورقة ١ أ)، ورقم ٥٦٦ (ورقة ١ أ)، ورقم ٦٢٧ (ورقة ١٠٩ ب).

(٢) باتيريقون أو باتريكون كلمة يونانية المقصود بها أقوال الآباء الرهبان. أنظر مراد كامل (دكتور: فهرست مكتبة دير سانت كاترين بطور سيناء — جـ ١ (القاهرة ١٩٥١) ص ٧، عزيز سوريال عطية: الفهارس التحليلية لمخطوطات طور سينا العربية، جـ١، ص٥٦٠.

(٣) أنظر مخطوطة رقم ٥٤٧ سيناء — عربي، ورقة ٢ أ. وجدير بالذكر أن هذا العنوان يوضح أن «البستان» يعني أخبار الرهبان والآباء، وأن المقصود بأخبار الرهبان والآباء كتاب «البستان».

ومن هذه المصاحف ما حدد العنوان تحديداً أكثر وضوحاً ، ونعني بذلك المخطوطة رقم ٤٤٢ سيناء عربي :

« المصحف الذي يقال له بستان الرهبان ... » (١)

ومنها ما جاء عنوانه تحت اسم «بستان الآباء» :

« تبتدي ... نكتب المصحف الذي يقال له بستان الآباء» (٢)

واضح إذن أن «بستان الرهبان» أو «بستان الآباء القديسين» هو المصحف الذي يتناول تعاليم وأقوال وقصص وسير وأخبار رجال الكنيسة الأول من الرهبان والنساك الذين قامت على اكتافهم الرهبنة والديرية في العصر المسيحي المبكر .

وجدير بالذكر أن هذه النسخ الخطية من «بستان الرهبان» وإن اتفقت فيما جاء بها من أقوال الآباء الرهبان وتعاليمهم وسيرهم ، إلا أنه توجد أحياناً قصص مختلفة حول الدقائق والتفاصيل الصغيرة التي لا تتناول جوهر المادة ذاتها . كما أن بعضها أورد السير والأقوال مختصرة مركزة في بضع صفحات (٣)، بينما تناولتها

---

(١) أنظر مخطوطة رقم ٤٤٢ سيناء ـ عربي ، ورقة ٦١ أ . راجع أيضاً مخطوطة رقم ٥٥٤ سيناء ـ عربي ، ورقة ٢ أ .

(٢) أنظر مخطوطة رقم ٥٠٦ سيناء ـ عربي ، ورقة ٧٦ أ .

(٣) من النسخ المختصرة نذكر ، على سبيل المثال ، مخطوطة رقم ٤٣٨ سيناء ـ عربي (أوراق ٨٧ب-٩٩أ)، ومخطوطة رقم ٤٧٧ سيناء ـ عربي (أوراق ٧٢أ-١١١ب) ، ومخطوطة رقم ٤٧٩ سيناء ـ عربي (أوراق ٥ب ـ ٣٨ أو أوراق ٦٩أ ـ ٦٩ب) ، ومخطوطة رقم ٥٤٨ سيناء ـ عربي (أوراق ٢أ-٥٧ب) هذا، مع ملاحظة أن المخطوطات المشار اليها تحتوي على موضوعات عديدة متنوعة إلى جانب «البستان» .

بعض المصاحف بتفصيل وإسهاب كبيرين ، حتى أن عدداً غير قليل منها يحتوى على بضع مئات من الصفحات (١) . كذلك لوحظ أن عدداً من هذه المصاحف يشتمل على « البستان» كاملا غير منقوص (٢)، بينما اشتمل البعض على أجزاء أو مقتطفات منه (٣) . وثمة ملاحظة أخرى هى أن ثلاثة مصاحف من هذه المجموعة الخطية مرتبة ترتيباً أبجدياً حسب أسماء الآباء الرهبان ، وهى المصحف رقم ٤٩٢ والمصحف رقم ٥٤٦ والمصحف رقم ٥٥٢ (سيناء - عربى) ، وقد جاء فى بداية كل منها ما يفيد ذلك صراحة . (٤)

وكيفما كان الأمر ، فان التمعن بين السطور فى هـذه النسخ الخطية الأربعين وما تضمنته من أقوال وأخبار ومن سير وقصص تتعلق برجال الكنيسة الأول من الرهبان والنساك - يلقى الكثير من الضوء على الحركة الرهبانية فى مصر

---

(١) نذكر ، على سبيل المثال ، مخطوطة رقم ٤٣٩ سيناء-عربى(أوراق ٢٠٧أ-٣٥١ب) ، ومخطوطة رقم ٤٤٢ سيناء - عربى(أوراق ٦١أ-٣١٦ب)، ومخطوطة رقم ٥٤٦ سيناء عربى (أوراق ٢-٢٤٢) ، وهكذا .

(٢) أنظر، مثلا، المخطوطات العربية بسيناء أرقام ٤٢٨و٤٣٩و٥٤٨ .

(٣) أنظر، مثلا، مخطوطة رقم ٤٧٧ ومخطوطة رقم ٤٧٩(سيناء - عربى) .

(٤) بداية « البستان» فى المخطوطة رقم ٤٩٢ سيناء - عربى كالآتى : «أقوال الابا القديسين وقول كل واحد منهم مجموع فى موضع واحد وهم يتبعون بعضهم بعضاً على حروف الفابيطا» . أنظر ورقة ١ ب من المصحف المذكور. ويلاحظ أنه بالرغم من عدم اشارة باقى النسخ صراحة إلى التزام الترتيب الأبجدى للآباء القديسين، إلا أنها درجت على ترتيبهم ترتيباً أبجدياً وإن كان هـذا لا يمنع من بعض هذه المصاحف لم يرتب مادته ترتيباً ابجدياً ، مثل المصحف رقم ٥٤٢ سيناء - عربى .

وسورية ، تلك الحركة التى تعتبر من الظواهر الهامة فى تاريخ القرون الوسطى .
فأول ما يكشف عنه « بستان الرهبان » أن الرهبنة ظهرت فى بداية عهدها فى مصر . وتوضح قصص وأخبار القديس أنطونيوس المتوفى سنة ٣٥٦م وهو فى سن المائة ، وغيره من المتوحدين الذين عاشوا فى الصحراء الشرقية بمصر مثل القديس بولس (أنبا بولا) المتوفى حوالى سنة ٣٤٠م، أن هذه الحركة بدأت أول ما بدأت على هيئة حركة توحدية انفرادية (١) . وإلى جانب هؤلاء يوجد رعيل من آباء الكنيسة بمصر من أمثال القديس باخوميوس والقديس مقاريوس فى وادى النطرون . وتبين تعاليمهم وقصصهم كيف انتقل هذا النظام من حركة توحدية إلى الحركة المعروفة بحركة الحياة الاجتماعية للرهبان . إذ تم تنظيم حياة الرهبان فى شكل اجتماعى بحيث يعيش الجميع داخل حيطان دير واحد، وكل منهم داخل قلايته، وهم يأكلون معاً ويصلون معاً ويدرسون معاً ويشتغلون لكسب الرزق . ونستشف من تراجمهم أن من أولى مبادئهم أن يعيشوا فقراء متبتلين يخدمون الله عز وجل ويطيعون رؤساءهم طاعة عمياء . والبستان غنى فى مادته فى هذه الناحية (٢)

---

(١) أنظر ، مثلا ، مخطوطة رقم ٤٩٢ سيناء - عربى (ورقة ١ ب وما بعدها)، ومخطوطة رقم ٥٠٨ سيناء - عربى (ورقة ٧١ب و ٧٢ أو ٧٦ ب) ، ومخطوطة رقم ٥٤٢ سيناء - عربى (ورقة ١١٣ب وما بعدها و ١٢٦ أ و ١٥٤ب وما بعدها و ١٧٨ أ و ٢٠٩ أ وما بعدها و ٢١٨ أ) ، ومخطوطة رقم ٥٥٢ سيناء - عربى (ورقة ٢ ب وما بعدها) ، ومخطوطة رقم ٦٢٧ سيناء - عربى (ورقة ١٤٠ أ و ما بعدها) .

(٢) أنظر - على سبيل المثال - مخطوطة رقم ٤٩٢ سيناء - عربى (ورقة ٤٧ أ و ما بعدها و ٧٦ب وما بعدها)، ومخطوطة رقم ٥٠٨ سيناء - عربى (ورقة =

ولهذا ليس بغريب أن تستحوذ سير وتعاليم آباء الكنيسة الأول من المصريين، وبخاصة بولس وانطونيوس وباخوميوس ومقاريوس (١) على حيز كبير من « بستان الرهبان » . فعلى أساسها انتظم عند الرهبنة انتظاماً جعلها قوة لا يستهان بها في تاريخ الكنيسة المسيحية في العصور الوسطى وحتى في العصر الحديث (٢) .

= ٧٠ ب) ، ومخطوطة رقم ٥٤٢ سيناء - عربي (ورقة ١٢٠ ب وما بعدها و ١٦٥ ب وما بعدها و ٢٣٥ ب) ، ومخطوطة رقم ٥٥٢ سيناء - عربي (ورقة ١٠٥ أ وما بعدها و ١٨٦ أ وما بعدها) .

(١) جدير بالذكر أن أسماء أولئك الرهبان الأول وردت في نسخ « البستان » الخطية بتهجئات مختلفة . مثلا عرف القديس بولس باسم « انبا بولا » في مخطوطة رقم ٥٠٨ سيناء - عربي (ورقة ٧١ ب) ومخطوطة رقم ٥٥٢ سيناء - عربي (ورقة ١١٣ ب) ، بينما جاء في معظم النسخ الخطية للبستان تحت اسم « انطونيوس » أما باخوميوس فقد عرف باسم « بخوميوس » ، أنظر مخطوطة رقم ٥٤٦ سيناء - عربي (ورقة ٧٦ ب) . وجاء مقاريوس في عدد من هذه المخطوطات تحت اسم « انبا مقاره » أنظر مخطوطة رقم ٥٤٢ سيناء - عربي (ورقة ١٢٠ ب) أو « مقاريوس المصري » ، أنظر مخطوطة رقم ٥٥٢ سيناء - عربي (ورقة ١٠٥ أ) ، وهكذا .

(٢) إلى جانب مصاحف « بستان الرهبان » الخطية التي اشتملت عليه، على سير وتعاليم انطونيوس وباخوميوس، توجد ضمن مجموعة الخطية العربية بدير سيناء عشرات المخطوطات تضمنت قصص وأعمال ، سيرة كل من هذين القديسين . وقد قمت بحصر أهم هذه المخطوطات في كتاب كولتون (ج. ج.) : عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة ، ترجمة وتعليق د. جوزيف نسيم يوسف الطبعة الثانية (الاسكندرية ١٩٦٧) ، ص ١٦٨ ح ٢ .

وتبين لنا تراجم البستان، وقصصه لتسلط الأضواء على الظروف التي انتقل فيها هذا النظام من مصر إلى شرق أوروبا على يد القديس باسيليوس الذي عاش في الدولة البيزنطية في القرن الرابع الميلادي . ومن ترجمته وأخباره نعرف أنه قام بزيارة مصر وفلسطين وسورية وغيرها من المناطق التي نشأت وترعرعت الرهبنة فيها ، وذلك رغبة منه في فهم الحركة على حقيقتها والتعرف عن قرب على أدق أسرارها وخباياها . ونعرف أيضاً أنه بعد عودته إلى بلاده كان قد اكتسب من رحلاته وزياراته هذه خبرة كبيرة ، وأصبحت لديه فكرة واضحة عن الحياة الانفرادية والحياة الديرية الاشتراكية للرهبان . وتبين أقواله وأنظمته أنه آثر الحياة الديرية الاشتراكية بعد إدخال إصلاحات على قوانين باخوميوس ، وكان

= وجدير بالذكر أن «بستان» بلاديوس يوضح أنه كانت توجد بمصر والشام في نهاية القرن الرابع أديرة للراهبات في المناطق التي ترعرعت فيها الرهبنة . وإن الومضات السريعة التي يزودونا بها فيما يتعلق بحياتهن الروحيـة وأدق شئونهن الخاصة لهي مثيرة ومشوقة في ذات الوقت . أنظر عن ذلك مخطوطة رقم ٥٤٢ سيناء - عربي (ورقة ١٣٤ أ و ١٢٦ب وما بعدها و ٢١٠ أ - ب) ومخطوطة رقم ٤٢٧ سيناء - عربي (ورقة ١٦١ب وما بعدها) كذلك تكشف اللمحات التي أمدنا بها في بستانه عن الرهبنة في سورية وفلسطين في أواخر ذلك القرن عن حقيقـة واضحة ، وهي أنها ظلت في أغلبها نسكية توحـــدية . أنظر عن ذلك مخطوطة رقم ٥٠٨ سيناء - عربي ورقة ٧٠ أ)، ومخطوطة رقم ٥٤٢ سيناء - عربي (ورقة ٢٢١ ب) . وللمزيد من المعلومات أنظر مجموعة كامبريدج للعصور الوسطى :

Cambridge Medieval History, vol. I (Cambridge, 1936), 526, 530,

لتعاليمه آثارها التي لا تنكر في هذا الشأن (١) .

وهكذا [illegible] بستان، من قديس [illegible] الكنيسة القدامى من أمثال اثناسيوس السكندري الذي اسهم في نقل الرهبنة إلى الغرب الأوروبي ويوحنا ذهبي الفم وأفرام السرياني ونيلوس واغريغوريوس وغيرهم (٢) .

وهكذا كلما تعمقنا في ثناياه كلما استبان لنا الكثير مما يتعلق بقوانين الرهبنة ونظمها وتقاليدها من حيث ساعات الصلاة والدراسة والعمل والأكل والنوم ، إلى جانب الملبس والمشرب والمأكل وما إلى ذلك . بالإضافة إلى حياة التبتل والطهر والزهد والتقشف التي كان يحياها أولئك القديسيون في هذا العصر المبكر والنواهي والمحرمات غير المسموح بها والمعجزات التي قاموا بها (٣) .

وغني عن القول ان هذه النسخ الخطية الأربعين من «بستان الرهبان» تزخر عادة دسمة قيمة من الطراز الأول ، لا يمكن للباحث المتعمق في تاريخ الرهبنة والديرية في العصور الوسطى إغفالها أو التجاوز عنها .

---

(١) أنظر مخطوطة رقم ٥٥٢ سيناء - عربي (ورقة ٤٠ ب وما بعدها).

(٢) أنظر ، مثلا ، مخطوطة رقم ٥٤٢ سيناء - عربي ورقة ١٨٩ ب وما بعدها و ٢٠٦ أ و ٢١٤ ب و ٢١٨ أ و ٢١٩ ب و ٢٢٣ أ و ٢٣٦ أ و ٢٣٧ أ [illegible] ومخطوطة رقم ٥٥٢ سيناء - عربي ورقة ٥٧ وما بعدها .

(٣) أنظر مخطوطة رقم ٥٤٢ سيناء - عربي (ورقة ١٢٢ أ وما بعدها) ؛ ومخطوطة رقم ٥٥١ سيناء - عربي (ورقة ٤٤ ب و ٥٨ ب) ، ومخطوطة رقم ٦٢٧ سيناء - عربي (ورقة ١١٥ أ وما بعدها و ١٣٠ ب وما بعدها و ١٤٠ [illegible] وما بعدها و ١٥٥ ب) .

وإذا كنا قد تحدثنا عن «البستان» وعنوانه ومحتوياته وأهميتها من الناحية التاريخية بالنسبة للمشتغلين فى تاريخ العصور الوسطى ، بقى أن نعرض لمؤلفه . هنا تثور عدة تساؤلات من بينها مثلا : من هـــو مؤلف «مصحف » بستان الرهبان » وجامع مادته الأصلية ؟ وهل أشارت النسخ الخطية الأربعين التى يحتفظ بها دير سيناء إليه أم لا ؟

بالرجوع إلى هذه النسخ الأربعين ، وبالبحث والتنقيب فى محتوياتها وبين سطورها ، يتضح أنها — باستثناء مصحفين اثنين فقط برقمى ٥٤٢ و٦٢٧ (سيناء — عربى) (١) — لم تشر إلى اسم مؤلف «البستان» وجامع مادته . فقد ورد فى بعض هذه المصاحف أسماء كتابها وناسخيها عبر القرون ، كما ورد فى عدد قليل منها أسماء مترجميها وناقليها من السوريانية أو اليونانية القديمة إلى العربية دون أية إشارة إلى إسم المصنف الأصلى .

فمن بين المجموعة الخطية العربية الخاصة بالبستان سبع مخطوطات وردت بها قلوفونات أشارت صراحة إلى أسماء كتابها وتواريخ تدوينها ، وهى تحمل أرقام ٤٣٩ و ٥٢٦ و ٥٥٣ و ٥٦٣ و ٥٦٥ و ٥٧٣ و ٥٥٨ (سيناء عربى) . هذا بالإضافة إلى مخطوطة أخرى تحمل رقم ٥٥٤ سيناء - عربى ، وقد وردت بها الخاتمة بالفعل ، ولكن تعذر معرفة اسم الكاتب وكذلك التاريخ على وجـه اليقين لوجود قطع بها (٢) .

هذا عن المخطوطات التى عرفنا أسماء كتابها عن طريق خواتيم واضحة . وإلى جانب ذلك توجد ثلاث مخطوطات لم ترد بها قلوفونات ، ومع ذلك أمكن

---

(١) سنشير إليهما بالتفصيل فيما بعد .

(٢) أشرنا إلى ذلك بالتفصيل فيما سبق .

المشور على كتابها أو مصنفيها من البحث فى ثنايا سطورها ، وهى المخطوطة رقم ٤٤٢ سيناء - عربى ، وتاريخها حوالى القرن الثالث عشر وكاتبها هو صفرونيوس بطريق بيت المقدس (١) . والثانية هى المخطوطة رقم ٥٠٦ سيناء - عربى ، وتاريخها حوالى القرن الثالث عشر ، ولو أن كاتبها مجهول إلا أنه جاء بها أن الكاتب قام بنقل « بستان الآباء » من مصحف كتبه القديس صفرونيوس بطريق بيت المقدس (٢) . والثالثة هى المخطوطة رقم ٥٦٨ سيناء - عربى ، وتاريخها حوالى القرن الثالث عشر وكاتبها مجهول ، إلا أنه جاء بها أنها « من تصنيف قول أبينا غريغوريوس أفندس أهل زمانه الرسولى لخلافة بطرس الرسول على مكانه »(٣) ، ولعل المقصود البابا جريجورى الكبير .

وهناك أيضاً ثلاثة مصاحف خطية أخرى ورد بها ما يفيد أنها منقولة من السوريانية أو اليونانية القديمة إلى العربية ، وجاء فى اثنين منها أسماء مترجميها . الأول يحمل رقم ٤٤٤ سيناء - عربى ، وتاريخه سنة ١٢٠٨ م ، وورد فى الخاتمة الخاصة به أن الذى نقله من السوريانية إلى العربية شخص يدعى « بو شاكر ابن الشماس بو الكرم » . (٤) وواضح من قلوفون ورد فى المصحف رقم ... سيناء -

---

(١) أنظر مخطوطة رقم ٤٤٢ سيناء - عربى ، ورقة ٦١ أ . وقد ورد اسم الكاتب فى بداية مصحف البستان مع العنوان .

(٢) أنظر مخطوط رقم ٥٠٦ سيناء - عربى ، ورقة ٧٦ أ ، علماً بأن هذه المعلومات لم ترد فى خاتمته وإنما فى بداية المصحف .

(٣) أنظر مخطوطة رقم ٥٦٨ سيناء - عربى ، ورقة ١ أ ، وهى أيضاً بدون قلوفون وقد وردت هذه البيانات فى بداية المصحف .

(٤) أنظر قلوفون المخطوطة رقم ٤٤٤ سيناء - عربى ، ورقة ٣٠٥ ب .

عربى وتاريخه حوالى القرن الثالث عشر أنه منقول من اليونانية القديمة إلى العربية، وأن ناقله ومفسره يدعى «اسطفان الفاخورى» (١). وبالمثل يتضح من المصحف رقم ٥٤٢ سيناء - عربى ، وتاريخه حوالى القرن التاسع الميلادى ، انه منقول من اليونانية إلى العربية ، وإن لم يرد به اسم ناقله ومفسره (٢) .

وإن دل هذا على شىء فإنما يدل على أن بعض هذه المصاحف أصلية مكتوبة بالعربية للمرة الأولى وليست نسخاً مترجمة أو منقولة عن غيرها ، كما يدل على أن بعضها منسوخ عن مصاحف أخرى أقدم عهداً ، والبعض الآخر مترجم عن اللغات القديمة كالسوريانية أو اليونانية . وبكلمة أخرى ، فإن بعض هذه المخطوطات عبارة عن مصاحف أصلية أصيلة ، والبعض مصاحف منسوخة ، والبعض مترجمة .

وكيفما كان الأمر ، ففيما عدا المصاحف التى أشرنا اليها ، فإن بقية النسخ الخطية من «البستان» مجهول أسماء كتابها أو ناسخيها أو مفسريها او مترجميها .

والخلاصة أن هذه النسخ المجهول أسماء كتابها أو ناقليها أو تلك التى أشارت الى أسمائهم ومجموع عددها ٢٨ نسخة ، لم تكشف عن إسم مؤلفها ومصنفها الأصلى ، ومن حسن الحظ أنه يوجد مصحفان اثنان فقط كشفا عن إسم مؤلف «البستان» ومصنفه ، وهما المصحف رقم ٥٤٢ سيناء - عربى والمصحف رقم ٦٢٧ سيناء - عربى .

---

(١) أنظر قلوفون المخطوطة رقم ٥٠٥ سيناء - عربى ، ورقة ٢٠٢ أ - ب .

(٢) أنظر مخطوطة رقم ٥٤٢ سيناء - عربى ، ورقة ١٥ أ . والمخطوطة بدون قلوفون وقد وردت هذه المعلومات فى ثنايا الكلام . هذا ، وقد تعرضنا بايجاز لكتاب عدد من مصاحف «البستان» عندما تحدثنا عن قلوفونات «البستان» وأهميتها من الناحية التاريخية .

فى المصحف الأول نبذة توضح أن مؤلفه هو « بلاديوس » ونصها :

« ... كتب هذه القصص بلاذيوس اسقف المدينة التى يقال لها بالرومية مدينة الانه (أو هيلانة) الملكة ... » (١)

ويعزز ذلك ما جاء فى المخطوطة رقم ٦٢٧ سيناء - عربى ، وتاريخها حوالى القرن الثانى عشر ، ونص النبذة كالآتى :

« هذه أخبار الابا القدما والافضل الرهبان النجبا القديسين ... كتبها بلاديوس اسقف مدينة هلانه الملكة القديسة أم قسطنطين الملك الكبير طلبها منه بلاسيوس وزير ثاوظوسيوس الملك الكبير فى ملوك الروم » (٢) .

ويتضح من المصحفين السالفين أن مؤلف « بستان الرهبان » هو بلاديوس أسقف هلينوبوليس فى بيثينية (٣) . ولد حوالى عام ٣٦٥م وتوفى عام ٤٢٥م وله من العمر قرابة ستين عاماً . وبلاديوس هو أحد أولئك الكتاب الذين عاشوا فى فترة التغير والانتقال من القديم إلى الوسيط حيث كان كل شىء فى تغير تدريجى مستمر ، ولم يكن هناك شىء ثابت على حاله . فقد كان « النظام

---

(١) أنظر المخطوطة السابقة ، ورقة ١١١ ب .

(٢) أنظر مخطوطة رقم ٦٢٧ سيناء — عربى ، ورقة ١٠٩ب وهذه المخطوطة بدون خاتمة ، وقد عثرنا على اسم المؤلف الأصلى فى بداية «البستان» . والمقصود بثاوظوسيوس الامبراطور البيزنطى ثيودوسيوس الذى حكم من سنة ٣٧٩ إلى سنة ٣٩٥ .

(٣) Palladius, bishop of Helenopolis ، وللمزيد من المعلومات عنه أنظر :
E.A.T. Wallis Budge(tr.), The Paradise of the Fathers, 2 vols.

القديم ، فى الفكر والسياسة والاقتصاد والدين والحرب ينهار من أساسه أمام جحافل الجرمان المتبربرين ، معلناً نهاية عصر بعباداته ومثله وقيمه وبداية عصر جديد له مفاهيم وأوضاع جديدة مغايرة، وهو عصر ارتكز على دعامتين أساسيتين هما الجرمان الذين قضوا على الدولة الرومانية القديمة وحضارتها ، والمسيحية التى قضت على الوثنية وعبادة الامبراطور .

كانت هذه الظروف التى ألمت بالعالم عند نهاية التاريخ القديم وبداية العصر الوسيط من بين العوامل التى ساعدت على نشأة الرهبنة وانتشارها وقتذاك . يضاف إلى ذلك أمور أخرى عديدة منها الحماس الدينى الذى صاحب انتشار المسيحية واعتناق الناس لها ، وحالة الفوضى والاضطراب التى سادت العالم بسبب الحروب المستمرة وغزوات البرابرة . فضلا عن حركة الاضطهادات الدينية التى

= (Oxford, 1934) : idem, The Wit and Wisdom of the Christian Fathers of Egypt (Oxford, 1934) : C. Butler, The Lausiac History of Palladius, 2 vols (Cambridge, 1898, 1904); C.M.H., vol. I, 522 ff .

وجدير بالذكر أنه إذا كان بلاديوس هو المؤلف الأصيل للبستان وجامع مادته باعتباره معاصراً وشاهد عيان لبداية الحركة الرهبانية فى مصر والعالم المسيحى المعروف وقتذاك ، فلا شك أن هناك زيادات أخرى أضيفت إليه فيما بعد بقلم كتاب متأخرين تناولوا سير وتراجم كثير من الرهبان والنساك الذين عاشوا فى الفترة التى ازدهرت فيها الرهبنة فى الشرق والغرب فى العصور الوسطى المبكرة . ولهذا عرف مصحف بلاديوس فى احدى مخطوطات سيناء العربية باسم « الفردوس القديم » . أنظر مخطوطة رقم ٥٤٢ سيناء – عربى ، ورقة ١٢ أ . ويلاحظ أن هذه هى المخطوطة الوحيدة من بين النسخ الخطية الاربعين التى أشارت إلى ذلك .

صاحبت ظهور الدين الجديد بسبب ما كان يدعو إليه من وحدانية الله ونبذ عبادة الامبراطور ، والتى بلغ أشدها فى عهد دقلديانوس . فاضطر الناس إلى الفرار إلى الوديان والقفار وإلى قمم الجبال وجوف الصحارى للتوحد والتعبد والتقشف والتأمل فى ذات الله العلية ، رغبة فى تخليص نفوسهم من أدران الآثام وأرواحهم من شرور الدنيا ، وإعداد عدتهم للحياة الثانية ونعيمها المقيم، أملا فى الحصول على الخلاص الذى يعتبر ، فى نظر المسيحية وفلسفتها التى جاءت كرد فعل للتاريخ القديم ووثنيته ، الغاية النهائية لكل كائن حى .

وكانت أول نشأة الرهبنة حسبما أسلفنا - فى مصر فى شكل حركة توحدية ، ثم انتقلت إلى ما عرف بحركة الحياة الاجتماعية للرهبان ، وكان من روادها الأوائل القديس انطونيوس والقديس باخوميوس (١) . وقد ذاعت شهرة الحياة الرهبانية المصرية فى جميع الكنائس المسيحية ؛ واعتبرت مصر لفترة

---

(١) أنظر عن ذلك المراجع التالية : كولتون (ج . ج) : عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة - ترجمة وتعليق د. جوزيف نسيم يوسف - ط ثانية (الاسكندرية ١٩٦٧) - ص ١٦٨ وما بعدها ؛ عزيز سوريال عطية : نشأة الرهبنة المسيحية فى مصر وقوانين القديس باخوميوس - مستخرج من رسالة « مارمينا » عن الرهبنة القبطية - مايو ١٩٤٨ - ص ٥ وما بعدها .
راجع أيضاً :

Atiya, A. S.; A History of Eastern Christianity (London, 1968) 28ff., 59ff.; LaMonte, J.L., The World of the Middle Ages (New York, 1949), 32 ff.; Glanville, S. R. K, The Legacy of Egypt (Oxford, 1957), 17 ff.; Baldwin, M.W., The Mediaeval Church (New York, 1953). 24; C.M.H., vol I, 521 - 22.

طويلة بمثابة « الأرض المقدسة » حيث كان المسيحيون يؤثرونها على فلسطين . فالزائر لها يمكنه مشاهدة هذه الجموع الغفيرة من الزهاد والنساك المنقطعين لعبادة الله . وأصبح المسيحيون يحجون إليها من كل مكان لرؤية أولئك القديسين والاستماع إليهم . وكان من بين هؤلاء بلاديوس صاحب « البستان » الذى أمضى السنوات من ٣٨٨ إلى ٣٩٩ ومن ٤٠٩ إلى ٤١٢ بين رهبان مصر يتحدثون إليه ويستمع إليهم . وقد أمضى الفترة الأولى فى طيبة والثانية فى وادى النطرون .
ومن بين من زاروا مصر فى هذا العصر يجب أن نذكر القديس بازيل الكبير مؤسس الرهبنة اليونانية ، وهيلاريون Hilarion الذى ادخل الرهبنة فى فلسطين ، وروفينوس Rufinus ومعه سيدة رومانية تدعى ملانيا Melania وقد أمضيا ستة أشهر من عام ٣٧٣ فى مصر . وكذلك القديس جيروم St. Jerome ومعه أرملة ثرية تدعى بولا Paula ، وقد زارا الأديرة المصرية وترك لنا جيروم مؤلفا عن زيارته هذه ترجم فيه حياة الرهبان المصريين وأنظمتهم الى اللاتينية . وهناك أيضاً القديس الفرنسى يوحنا كاسيان St. John Cassian الذى جاء إلى مصر فيما بين عامى ٣٩٠ و ٤٠٠ ، ولكنه لم يذهب الى أبعد من طيبة ، ووضع مؤلفين عن مشاهداته ضمنها حياة أولئك الرهبان وأحاديثهم

وعلى أية حال ، كان بلاديوس قد فكر فى الانخراط فى سلك الرهبنة بالإنضمام إلى الرهبان المصريين بعد ملازمته الطويلة لهم ، ولكنه وجد أن نظامهم شديد الوطأة على صحته وسنه المتقدمة . وترك لنا بحثاً عن الرهبان والنساك الذين التقى بهم فى كتابه « بستان الآباء القديسين » Historia Lausiaca حيث ضمنه سير وتراجم وقصص القديسين المصريين ، وعلى رأسهم باخوميوس الذى زار ديره فى بانوليس Panopolis (أخميم) ، وخلف لنا صورة نابضة عن الحياة اليومية داخل الدير . ويبدو أنه اقتصر على الأديرة التى بها

رهبان يوسهم التحدث باليونانية ، ولهذا أهمل زيارة الأنبا شنودة ولم يتحدث عنه مؤلفه .

وهكذا أتاحت ظروف الزمان والمكان لبلاديوس فرصة طيبة للكتابة فى هذا الموضوع . فقد عاش فترة نمو الرهبنة وترعرعها فى مصر والشام ، وتحدث بإسهاب عن رحلاته للأديرة المصرية ، وسجل مشاهداته وملاحظاته بهذا الخصوص فى سفر قيم لايزال باقياً إلى اليوم . فحفظ لنا مادة من الطراز الأول وتراثاً له قيمته التاريخية الفائقة .

ويعتبر مؤلف بلاديوس مؤلفا كلاسيكيا فيما يتعلق بالحركة الرهبانية لاغنى عنه للتصدى لهذا الموضوع ، إذ عرض أمام الرهبان من جميع الأقطار أمثلة حية عن رهبان مصر ونساكها كنماذج يحتذون بها فى هذا العصر المبكر . وأصبح بستان بلاديوس وغيره من مؤلفات زملائه فى هذا الموضوع تتلى فصوت مسموع فى الأديرة البندكتية فى الغرب الأوربى طوال العصور الوسطى وحتى اليوم . وهكذا نمت مجموعة المصادر الأدبية الكنسية التى تتناول تاريخ وسير رهبان مصر وغيرهم والتى كان لها أكبر الأثر على من اعتنق الحياة الرهبانية وقتذاك(١).

وثمة ملاحظة أخيرة وهى أنه لما كان بلاديوس قد عاش فترة الانتقال من التاريخ القديم إلى العصر الوسيط ، فإننا نلمس فى مؤلفه ملامح وسمات التحول من الكتابة الكلاسيكية القديمة ذات الطابع الدنيوى العلمانى إلى كتابة العصر الوسيط

---

(١) أنظر من ذلك: Glanville' op. cit., 323-24; -Atiya op. cit, 64 66; C. M. H., I, 524-25, 526.

راجع أيضاً ايريس حبيب المصرى : قصة الكنيسة القبطية ـ القسم الأول ـ القاهرة (بدون تاريخ) ـ ص ٣٤٣ - ٣٤٤ .

المبكر ذات الصبغة الدينية الواضحة حقاً لقد واصل بعض المؤرخين التقاليد الكلاسيكية في فن الكتابة التاريخية ، إلا أن الكثيرين أيضاً أضفوا على كتاباتهم التاريخية لوناً دينياً واضحاً يتفق وأوضاع عالم متغير .

وهكذا لم تعد كتابة السير والتراجم - بصفة عامة - تتناول أعمال الأبطال السياسيين والعسكريين كما كان الحال من قبل ، وإنما استهدفت أولا وقبل كل شيء سير القديسين وأخبارهم بما احتوته من أعمال التقوى والتبتل ونكران الذات . وغدت كتابة تراجم أولئك القديسين والتاريخ لهم من أكثر أشكال الكتابة الأدبية شيوعاً وشعبية ورواجاً . واعتبرت المؤلفات المتضمنة تعاليم وقصص القديس أفضل ألوان القراءة وأقربها إلى النفس . وقد نما وازدهر هذا اللون من الكتابة طوال العصر الوسيط . ولا شك أن كثيراً من هذه التراجم تعتبر وثائق تاريخية من الدرجة الأولى ، يعتمد عليها الباحث في استقاء مادته ، خاصة وأن قدراً من المعلومات والحقائق التاريخية لم يصلنا إلا عن هذا الطريق . وأقرب مثل إلينا كتاب بلاديوس الذى يعتبر في الواقع تاريخاً عاماً عن الرهبنة لمعاصر وشاهد عيان . ومع ذلك يجب أن نعرف أن هذه السير ، بالرغم من أهميتها ، لا ترقى إلى مستوى الكتابة التاريخية البحتة . إذ كلما كثر الحديث عن المعجزات والأعمال الخارقة في حياة قديس ما ، كلما توارت — بطبيعة الحال — الحقيقة التاريخية وكلما قلت القيمة الفعلية لتلك المادة (١) .

---

(١) Cf LaMonte, The World of the Middle Ages, 85. Cf. also : Barnes, H. E., A History of Historical Writing (New York, 1963), 53 f.

وللمزيد من المعلومات راجع أيضا جوزيف نسيم يوسف (دكتور) : نشأة الجامعات في العصور الوسطى (الاسكندرية ١٩٧١) ص ٢٠٨ وما يليها .

(رابعاً) أهم مصاحف «البستان» الخطية :

من بين النسخ الخطية الأربعين من كتاب «بستان الرهبان» التي تحتفظ بها مكتبة دير سيناء ، تنفرد خمس منها بأهمية خاصة تستوجب الإشارة إليها. وتكتسب هذه المصاحف الخمسة أهميتها لأسباب عديدة، أما لقدم المصحف نفسه، أو لوجود اسم المؤلف أو الكاتب أو المترجم، أو لوجود قلوفون يحدد تاريخه ، أو للرق المكتوب عليه ، أو الخط المستخدم في الكتابة . يضاف إلى ذلك أن هذه المصاحف الخمسة ترجع كلها إلى الفترة الوسيطة من التاريخ ، إذ دونت فيما بين القرنين التاسع والثاني عشر (١) . وفيما يلي عرض مركز لهذه المصاحف حسب أهميتها وقدمها .

المصحف الأول : يحمل رقم ٥٤٢ سيناء - عربي ، وله ميكروفيلم بآداب الاسكندرية تحت رقم ٢٥٥ ، وعنوانه «بستان الرهبان ومواضيع أخرى متنوعة من قصص وسير وخلافه» ، ومقاسه الخارجي ٢٣,٥ × ١٤ سم ومقاس الكتابة ١٨,٥ × ١٠ سم ، وعدد الأسطر في الصفحة ١٨ سطراً ، وعدد أوراقه ٢٥٧. والمصحف مكتوب على الرق ، وتاريخه حوالى القرن التاسع الميلادى ، وكاتبه مجهول (٢) . أما غلافه فخشبي مكسو بجلد بني مرصع في الأركان والوسط ، وقد

---

(١) قامت البعثة المصرية الأمريكية عام ١٩٥٠ بتصوير هذه المصاحف الخمسة بالميكروفيلم ضمن المجموعة الخطية التي قامت بتصويرها ، ويوجد نسخ منها بكلية آداب الإسكندرية . وقد قمت بجمع المعلومات الأساسية الخاصة بهذه المصاحف الخمسة أثناء زيارتي العلمية للدير في أواخر عام ١٩٦٣ ، واستوفيتها فيما بعد من نسخ الميكروفيلم المحفوظة بكلية الآداب بالإسكندرية .

(٢) لا يوجد بالمصحف قلوفون بتاريخه أو اسم كاتبه .

أنظر أيضاً مراد كامل (دكتور) : فهرست مكتبة دير سانت كاترين بطور سيناء - الجزء الأول - القاهرة ١٩٥١ - ص ٨٠ .

تم ترميم ظهر الغلاف . ويلاحظ أن الغلاف الأيسر مع الأوراق الأخيرة من المصحف مفقودة . وهو مدون بخط كوفى متأخر . وعناوينه ورءوس موضوعاته مكتوبة كلها بالمداد الأحمر . هذا ، ومعظم صحائف الرق مبقعة بشدة ، كما أن ورقتى ١٠٥ و ١٠٦ ممزقتان جزئياً .

وتتمتع هذا المصحف العتيق بأهمية فائقة للرق المكتوب عليه ، وقدمه ، والخط المدون به . فضلا عن أنه من المصاحف المصورة ، إذ تتحلى رءوس الإصحاحات برسوم وزخارف ملونة ومبسطة تشبه توريقات نباتية على الطراز العربى . وثمة ميزة أخرى يتمتع بها هذا المصحف ، إذ وردت به نبذة تكشف عن مؤلفه وعن أنه ترجمة عربية لأصل يونانى قديم . فقد جاء فى ورقة ١٥ أ أنه فسر من اليونانية إلى العربية عام ٧٧١ م . ومن الصعب البت إن كانت هذه ترجمة عربية أصلية أم نسخة متأخرة . وكيفما كان الأمر فلا يمكن أن ترجع إلى أبعد من القرن التاسع الميلادى . ويتضح ذلك من نوع المداد والورق والخط المستخدم .

ويحتوى المصحف على موضوعات مختلفة يبلغ عددها ١٧ موضوعاً ، والبند السادس عبارة عن نبذ من سير وتعاليم بعض الآباء الأول التى يحتمل أن تكون مأخوذة من « بستان الرهبان » . (١) وتختم المخطوطة بالبند السابع عشر وهو يشتمل على « بستان الرهبان » فى شىء من التفصيل والإسهاب (٢) .

بداية البستان (ورقة ١١١ ب - ١١٢ أ)

« هذه قصص الابهات النجبا القديسين من الرجال والنسا فى أمكنة شتا » .

---

(١) أنظر مخطوطة رقم ٥٤٢ سيناء - عربى ، أوراق ٣١ ب - ٥٠ أ .

(٢) أنظر أوراق ١١١ ب - ٢٥٧ ب من المخطوطة السابقة .

كتب هذه القصص بلاذيوس أسقف المدينة التى يقال لها بالرومية مدينة الاله (١) الملكة . . . هذا المصحف يقال له الفردوس القديم » .

نهاية البستان (ورقة ٢٥٧ ب)

« قال شيخ كل صغير يطرح كلمته فى وسط شيوخ أكبر منه » (٢) .

المصحف الثانى : يحمل رقم ٨ ٥ سيناء - عربى ، وله ميكروفيلم بآداب الاسكندرية تحت رقم ٢٣٢ ، وعنوانه « بستان الرهبان وموضوعات أخرى متنوعة » ، ومقاسه الخارجى ٢٠٫٥×١٥٫٥ سم ، ومقاس الكتابة ١٨×١٢ سم ، وعدد الأسطر فى الصفحة ١٦ سطراً ، وعدد أوراقه ١٥٩ . وهو مكتوب على ورق ورق ، ولكن الجزء الخاص بالبستان مدون على الورق (٣) . والمصحف عتيق ، إذ يرجع تاريخه إلى حوالى القرن العاشر ، وكاتبه مجهول ، (٤) وغلافه مفقود . أما الخط فكوفى متأخر ، والعناوين ورءوس الموضوعات معلمة بالمداد الأحمر . ويلاحظ أن الأوراق الأولى والأخيرة منه مفقودة ، والأوراق سائبة وممزقة فى بعض أجزائها ، كما أن الورقة ١٤٢ أ تركت على بياض .

ويحتوى المخطوط على موضوعات عديدة متنوعة وعلى جانب من « بستان

---

(١) المقصود هيلانة أم قسطنطين الكبير التى أعتنقت المسيحية وكان لها تأثيرها الواضح على إبنها الامبراطور .

(٢) الأوراق الأخيرة من المصحف مفقودة ، وعلى هذا فنهايته ناقصة .

(٣) الجزء المكتوب على الرق يقع فيما بين ورقتى ٨٠ و ٨٤ ، ومادة هذه الأوراق لا تتعلق بمصحف « البستان » .

(٤) لا يوجد قلوفون بتاريخه أو اسم كاتبه .

الرهبان ، وهو مختصر في بضع صفحات (١) ، وهو البند الحادى عشر من بنود المخطوط .

بداية البستان (ورقة ٦٩ ب)

« من أقوال الآباء الاطهار »

نهاية البستان (ورقة ٧٩ ب)

« قالوا: عن أنبا ميوس أنه مرار كثيرة سمع الشياطين وهم يتحدثون بأنواع الفسق ... »

٣ - المصحف الثالث : يحمل رقم ٥٥١ سيناء - عربى ، وله ميكروفيلم بآداب الاسكندرية تحت رقم ٢٨ ، وموضوعه « بستان الرهبان وقصة تاوضروس » . مقاسه الخارجى ١٩ × ١٤ سم ، ومقاس الكتابة ١٥ × ١٠ سم ، وعدد الأسطر فى الصفحة ١٢ سطراً ، وعدد الأوراق ١٤٣ . وهو مدون على ورق ، وتاريخه سنة ١٠٢٩ م (٢) ، وكاتبه مجهول . أما الغلاف فهو خشبى مكسو بجلد بنى ، وظهر الغلاف مكسور وقد أعيد تبطينه بأوراق عليها كتابة باليونانية القديمة . والخط نسخى عتيق ، والعناوين ورءوس الموضوعات بالمداد الأحمر . ونظراً لقدم المصحف فان أوراقه متشبعة بالرطوبة ومبقعة وحوافها ممزقة ، كما أن الأوراق الأولى والأخيرة منه مفقودة .

ـ يبدأ المخطوط بجزء من « بستان الرهبان » (٣) تتلوه قصة حياة القديس تاوضروس .

---

(١) أنظر مخطوطة رقم ٥٠٨ سيناء - عربى ، أوراق ٦٩ ب - ٧٩ ب .

(٢) أنظر القلوفون الوارد فى المخطوطة رقم ٥٥١ سيناء - عربى ، ورقة ١٤٢ ب .

(٣) أنظر أوراق ١ أ - ٥٨ ب من المخطوطة السابقة .

بداية البستان (ورقة ١ أ)

« ومن هذا يمكنه يصلى غير مستجذب ليس فى طريقه العمل كفايه لان بعين العقل على الكمال من الآلام حتى يستمكن أن يصلى بغير انجذاب » .

نهاية البستان (ورقة ٥٨ ب)

« الراهب هو التمسك بأمور الله فقط فى كل زمان ومكان وامر . الراهب هو اكراه الطبيعة دائماً وحفظ » .

المصحف الرابع : يحمل رقم ٥٥٢ سيناء - عربى ، وله ميكروفيلم بآداب الاسكندرية برقم ٢٦١ ، وموضوعه « بستان الرهبان » ، ومقاسه الخارجى ١٦٫٥ × ١٢ سم ، ومقاس الكتابة ١٣×٦٫٥ سم وعدد الاوراق ٢٥٨ . وهو مدون على ورق ، وتاريخه حوالى القرن الحادى عشر ، وكاتبه مجهول . (١) وغلافه خشبى مكسو بجلد بنى وظهره مكسور ، والخط نسخى عتيق . ويلاحظ أن شخصين قد اشتركا فى نسخه ، ونستدل على ذلك من وجود نوعين مختلفين من الخطوط . والعناوين ورؤوس الموضوعات معلمة بالمداد الاحمر . هذا ، والورقتان الأخيرتان من المخطوطة باليتان ، كما أن الاوراق من رقم ١ الى رقم ٣٣ قد استبدلت بأوراق أخرى ، وهى مكتوبة بخط نسخى عتيق بقلم كاتب آخر . كذلك يلاحظ أن الصحائف ٣٢ ب - ٣٣ ب تركت خالية من الكتابة ، ولعلها تركت كذلك لتكون فاصلا بين شطرى المخطوطة . وعلى ورقة ١ أ نبذة بقلم أسقف دير سيناء المسمى جرمانوس تفيد وقف المصحف على الدير . ويحتوى

---

(١) لم نعثر فيه على خاتمه بتاريخه أو اسم كاتبه . انظر مراد كامل : الفهرست - جـ ١ - ص ٧٧ .

المخطوطة على « بستان الرهبان » فقط ، ونهايته مفقودة .

البداية (ورقة ١ ب)

« ... نبدا بعون الله وحسن توفيقه وصف سيره الابا القديسين ونسكهم الذى يشتمل هذا المصحف على اخبارهم »

النهاية (ورقة ٢٥٨ ب)

« فقال ... هيا ياأخى وامضى معى طورسينا نصلى قال الاخ ... فلما اجزنا الاردن قال لى الشيخ تعال يا اخى »

المصحف الخامس : يحمل رقم ٥٥٢ سيناء عربى ، وله ميكروفيلم بآداب الاسكندرية برقم ٢٦٢ ، وموضوعه « بستان الرهبان ومتنوعات » ، ومقاسه الخارجى ١٧ × ١٢٫٥ سم ، ومقاس الكتابة ١٣ × ١٠ سم ، ومتوسط عدد الأسطر فى الصفحة ١٩ سطراً ، وعدد أوراقه ١٥٢ . وهو مكتوب على ورق ، وتاريخه سنة ١١٨٢ م (١) ، وكاتبه يدعى « ابراهيم بن القس اسحاق ابن الخورى يحنا الطيشرانى » . (٢) وغلافه جلدى عتيق مبطن من الداخل بصحائف من الرق عليها كتابة بالعربية واليونانية القديمة . والخط نسخى عتيق متسق ، والعناوين ورءوس الموضوعات ــ مثل المصاحف الأخرى ــ معلمه بالمداد الأحمر تمييزاً لها عن النص وصحائف المخطوطة مبقعة والأوراق التى فى بدايتها مع الحواف ممزقة . كذلك يلاحظ أن المخطوطة ناقصة من البداية والنهاية .

(١) أنظر القلوفون الوارد فى المخطوطة رقم ٥٣٣ سيناء ــ عربى ، ورقة ١٣٢ أ وقد جاء فى فهرست الدكتور مراد كامل (ج ١ ــ ص ٦٢) أن عدد الاوراق ١٤٢ وصحتها ٥٢ ، ولعله خطأ مطبعى .

(٢) أنظر المخطوطة السابقة ، ورقة ١٣٢ أ وورقة ١٢١ ب . ويلاحظ أن اسم الكاتب لم يرد خلال السرد المتعلق بالبستان ، وإنما جاء بعد ذلك .

وهى تحتـــوى على عدة موضوعات من بينها مختصر لكتاب « بستان الرهبان » (١) .

بدايه البستان (ورقة ٥١ ب)

« اخبرنا بعض القديسين عن رجل بطريق من بعض بطارقة الملك » .

نهاية البستان (ورقة ٥٦ أ)

« يحنا السابق صاحب الصوت الصارخ سراج البرية ومر جرجس وجميع القديسين » .

وأخيراً فإن هذه الكنوز الخطية لمصحف « بستان الرهبان » التى تحتفظ بها مكتبة دير سيناء ، غنية بما احتوته من معلومات هامة ، وعامرة بمادتها التاريخية القيمة التى تفتح آفاقاً رحبة واسعة أمام المشتغلين بنظم الرهبنة والديرية على وجه الخصوص .

---

(١) أنظر مخطوطة رقم ٥٥٣ سيناء ـ عربى ، أوراق ٥١ ب ـ ٥٦ أ ب ، ويلاحظ أن « البستان » هو البند الثامن من المخطوطة .

البحث الرابع

الفردوس العقلي

عرض مقارن لنسخه الخطية العربية غير المنشورة المحفوظة بدير سيناء

نشر هذا البحث بمجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية ـ العدد ٢٤ ـ الأسكندرية (مصر) ١٩٧٣ ـ ص ١٤٩ ـ ١٦٦ .

في بحث سابق تناولنا بالتعريف والتحليل نسخ « بستان الرهبان » الخطية العربية غير المنشورة المحفوظة بمكتبة دير القديسة كاترينة في سيناء والبالغ عددها أربعين نسخة . وقد عقدنا دراسة مقارنة بينها من ناحيتى الشكل والموضوع ، وبينا قيمتها التاريخية وأهميتها بالنسبة لدارسى تاريخ العصور الوسطى ، وكيف أنها تلقى الكثير من الأضواء على بداية الحركة الرهبانية فى كل من مصر وسورية وانتقالها إلى بيزنطة والغرب الاوروبى . كذلك أوضحنا كيف أن تلك النسخ الخطية تكشف عن سير وتعاليم وأقوال الرهبان والآباء القديسين الذين اعتزلوا العالم ليعيشوا فوق قمم الجبال وفى بطون الصحارى متأملين فى ذات الله العلية (١) .

وفى هذه الدراسة نتناول بالعرض والتحليل مخطوطة أخرى يحتفظ دير سيناء بخمس نسخ منها لم تنشر بعد ، وهى مخطوطة « الفردوس العقلى » التى لاتقل أهمية عن مخطوطة « بستان الرهبان » وتعتبر فى نفس الوقت متممة لها . فاذا كان « البستان » الذى يعرف أيضاً باسم « فردوس الآباء القديسين » يتناول سير أولئك الرهبان وأقوالهم وتعاليمهم ويوضح نظم الرهبنة وقوانينها ، فان « الفردوس العقلى » هو البستان الذى يغذى عقولهم وينظم لهم كل ما يتعلق بأمور الروح والنفس ، وهو الذى يهيىء لهم الحياة الروحية التصوفية التى عليهم أن يحيوها ، والتى كان لها أثرها على المسيحية فى العصر الوسيط .

---

(١) أنظر مقالى « بستان الرهبان : عرض وتحليل لنسخه الخطية العربية غير المنشورة المحفوظة بدير سيناء » ـ مقال بمجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية المجلد ٢٣ ـ الاسكندرية ١٩٧١ ، ص ٥٩ ـ ٩٢ .

يوجد بمكتبة دير سيناء خمس نسخ خطية عربية اشتملت كل نسخة منها على أكثر من موضوع من بينها كتاب « الفردوس العقلى » . (١) وهذه المخطوطات تحمل أرقام مكتبة الدير على التوالى ٣٥٩ و ٣٦٠ و ٤٣٩ و ٤٨٠ و ٤٨٣ سيناء ـ عربى . وعلى هذا ليست هناك مخطوطة مستقلة قائمة بذاتها اشتملت على « الفردوس العقلى » بمفرده دون غيره ، وإنما ورد « الفردوس » فى كل مخطوطة من المخطوطات الخمس ضمن موضوعات أخرى متنوعة . فاشتملت المخطوطتان الأولى والثانية على أقوال لبعض الآباء القديسين إلى جانب « الفردوس » ، بينما احتوت المخطوطتان الثالثة والرابعة على ميامر (٢) مع « الفردوس » : واشتملت المخطوطة الأخيرة على موضوعين لاهوتيين إلى جانب « الفردوس » . (٣)

---

(١) يوجد فى السوق العربية كتاب يحمل اسم « بستان الروح » لمؤلفه الراهب شنوده السريانى ، وهو يقع فى جزءين ، طبع القاهرة ١٩٦٠ ، ١٩٦٣ ؛ وهو غير « الفردوس العقلى » المحفوظ بدير سيناء ، إذ يختلف عنه فى فكرته ومادته ومضمونه ، وإن كان يحمل اسما مشابها له ، وقد قام بتأليفه الراهب شنوده وهو من رجال الدين المحدثين ، بعد الرجوع إلى عدد من كتب آباء الكنيسة وسير القديسين . أنظر ص ٥ من الجزء الثانى من الكتاب المذكور .

(٢) ميامر مفردها ميمر ، وهى كلمة سريانية معناها قول أو عظة أو خطبة والميمر إما أن يكون وعظيا وإما أن يكون تاريخيا ، وهو أما نظم أو نثر . أنظر عزيز سوريال عطية : الفهارس التحليلية لمخطوطات طورسينا العربية ـ ترجمة جوزيف نسيم يوسف ـ ج ١ (الاسكندرية ١٩١٠) ص ٥٦٤ من دليل المترجم بآخر الكتاب .

(٣) إلى جانب « الفردوس » تتضمن المخطوطة رقم ٣٥٩ أقوال أنبا دوروثاوس

وإذا تناولنا هـذه المخطوطات الخمس من ناحية الشكل ، فأول ما يسترعى الانتباه اختلاف مقاساتها الخارجية . وأصغرها المخطوطة رقم ٣٦٠ ومقاسها ٢١،٥ × ١٥ سم ، وأكبرها المخطوطة رقم ٤٨٣ ومقاسها ١٥،٥ سم . كذلك اختلفت مقاسات الكتابة من الداخل فى كل منها . وأصغرها أيضاً المخطوطة رقم ٣٦٠ ومقاس الكتابة ١٤،٥ × ١٠،٥ سم ، وأكبرها المخطوطة رقم ٤٨٣ ومقاس الكتابة ٢٠،٥ × ١٣ سم . ومعنى هذا أن المخطوطة ٣٦٠ هى أصغرها ، فى حين أن المخطوطة ٤٨٣ هى أكبرها مقاساً . ويلاحظ أن المخطوطات الخمس كلها مدونة على ورق يميل قليلا إلى الاصفرار بفعل الرطوبة والزمن . وقد تفاوت عدد الاسطر فى الصفحة الواحدة بين ١٧ و ٢١ سطراً . إذ يبلغ عدد الأسطر فى الصفحة فى المخطوطة رقم ٤٨٠ سيناء - عربى ١٧ سطراً ، بينما عدد الأسطر فى الصفحة فى المخطوطة رقم ٤٨٣ سيناء - عربى ٢١ سطراً (١) .

= وتتضمن المخطوطة رقم ٢٦٠ أيضاً أقوال أنبا دوروتاوس ومنتخبات من أقوال الآباء الرهبان المصريين وفصل من رسالة ديونسيوس إلى غلامه ، بينما تحتوى المخطوطة رقم ٤٢٩ على مختارات من ميامر يوحنا أكليمكس ، والمخطوطة رقم ٤٨٠ تشتمل على ميامر أيضا ، وتشتمل المخطوطة رقم ٤٨٣ على موضوعين لاهوتيين هما إيضاح الإيمان وسر الكهنوت . أنظر مراد كامل : فهرست مكتبة دير سانت كاترين بطور سيناء — الجزء الأول (القاهرة ١٩٥١) ص ٥٥ و ٥٦ و ٥٩ و ٦٠ .

(١) عدد الأسطر فى الصفحة فى كل من المخطوطة رقم ٣٥٩ والمخطوطة رقم =

كذلك اختلف عدد الأوراق فى كل مخطوطة . وأقلها المخطوطة رقم ٤٨٠ وعدد أوراقها ١٤١ ورقة ، وأكبرها المخطوطة رقم ٤٨٣ وعدد أوراقها ٣٨٠ ورقة . (١) كذلك تفاوت حجم « الفردوس » فى كل مخطوطة ؛ إذ يشغل « الفردوس » من المخطوطة رقم ٢٦٠ سيناء — عربى ٩٤ ورقة (١ أ — ٩٤ ب) ، ومن المخطوطة رقم ٤٨٠ سيناء - عربى ١٢٠ ورقة (١ أ - ١٢٠ ب) ، ومن المخطوطة رقم ٣٥٩ سيناء — عربى ١٢٣ ورقة (١ أ ١٢٣ ب) ، ومن المخطوطة رقم ٤٢٩ سيناء — عربى ١٤٩ ورقة (٢ أ ١٥٠ ب) ، ومن المخطوطة رقم ٤٨٣ سيناء عربى ٢٠٨ ورقة (١٤٩ ب — ٣٥٦ ب) . ويلاحظ أن الأوراق الأولى من « الفردوس » فى المخطوطة ٣٥٩ مفقودة ، وبالمثل المخطوطة ٤٨٠ ناقصة فى البداية . و« الفردوس » مختصر فى المخطوطتين ٣٦٠ و ٤٣٩ ، وكامل فى المخطوطة رقم ٤٨٢ .

= ٣٦٠ سيناء — عربى هو ١٨ سطراً ، وفى المخطوطة رقم ٤٣٩ سيناء — عربى هو ٢٠ سطراً .

(١) فى فهرست مراد كامل (جـ ١ ص ٥٥ و ٥٩ و ٦٠) أخطاء فى عدد أوراق ثلاث مخطوطات من المخطوطات الخمس هى المخطوطة رقم ٣٥٩ التى ذكر أن عدد أوراقها ٢٤٥ ورقة وصحتها ١٤٥ ورقة ، والمخطوطة رقم ٤٣٩ التى ذكر أن عدد أوراقها ٣٨٢ ورقة وصحتها ٣٥٢ ورقة ، والمخطوطة رقم ٤٨٣ التى ذكر أن عدد أوراقها ١٧٩ وصحتها ٣٨٠ ورقة . ولعلها أخطاء مطبعية .

وغلاف كل من المخطوطتين ٣٥٩ و ٤٨٣ مفقود . أما المخطوطتان رقم ٣٦٠ ورقم ٤٣٩ فغلاف كل منها خشبي مكسو بجلد بني . ويلاحظ أن الجانب الايسر من غلاف المخطوطة رقم ٣٦٠ مرصع بحليات ، ولكن الجانب الايمن منه مفقود . وظهر غلاف المخطوطة ٤٣٩ مرمم . أما المخطوطة رقم ٤٨٠ فمغلفة بجلد بني وظهر الغلاف مكسو والجانب الايسر منه مفقود هو والاوراق الاولى من المخطوطة ، والجانب الايمن مقوى بورقة عليها كتابة باللغة العربية . هذا ، والاضافة لا توجد بها أية زخارف أو رسوم .

وخط النسخ الخمس ، بصفة عامة ، حسن مقروء . وكلها مدونة بخط نسخى عتيق متسق ومنتظم والعناوين ورءوس الموضوعات مكتوبة بالمداد الاحمر ، شأنها شأن غالبية مخطوطات المجموعة العربية بدير سيناء . وتزيد المخطوطة رقم ٤٨٣ عن المخطوطة الاخرى بأنها مضبوطة جزئياً وبعض كلماتها مشكلة . ولهذا أهميته ، إذ أن المخطوطات التى تم ضبطها وتشكيل كلماتها فى المجموعة الخطية العربية بسيناء قليلة للغاية . ويتضح من الخط المستخدم فى المخطوطة رقم ٤٨٠ أن شخصين اشتركا فى كتابتها .

والحالة العامة للمخطوطات متوسطة . فالاوراق الاولى والاخيرة من المخطوطتين ٣٥٩ و ٣٦٠ مفقودة ، فضلا عن أن الاوراق التى تبدأ بها المخطوطة ٣٦٠ مبقعة ومصابة بالرطوبة وأوراق المخطوطة نفسها سائبة . أما المخطوطة رقم ٤٣٩ فيتضح من تصفحها وجود اخطاء فى ترقيم أوراقها . كذلك الاوراق الاولى من المخطوطتين ٤٨٠ و ٤٨٣ مفقودة ، ولكنهما كاملتان من النهاية . وبقية أوراق المخطوطة رقم ٤٨٠ مصابة بصفة عامة بالرطوبة ومبقعة وحواف

أوراقها بها آثار قرض فأر . هذا ، والمخطوطة رقم ٣٥٩ بأولها خرم، في حين أن المخطوطة رقم ٣٦٠ بآخرها خرم ، والمخطـــوطة رقم ٤٨٣ مخرومة الأول والآخر . . (١)

هذا ، وقد قامت البعثة العلمية المشتركة من جامعة الاسكندرية ومكتبة الكونجرس سنة ١٩٥٠ بتصوير أربع مخطوطات منها ، وذلك ضمن المجموعة التى قامت بتصويرها بالميكروفيلم . وهذه المخطوطات الاربع هى التى تحمل أرقام مكتبة الدير على التوالى ٢٦ و ٤٣٩ و ٤٨٠ و ٤٨٣ . وتحتفظ كلية الآداب بجامعة الاسكندرية بنسخ ميكروفيلم لها . (٢) أما المخطوطة رقم ٣٥٩ فلم تقم البعثة بتصويرها اكتفاء بالنسخ الاربع الاخرى التى تم تصويرها . وثمة ملاحظة أخرى هى أن نسخ « الفردوس » الخمس لم يتم توضيح موضـــوعاتها بالصور والرسوم أو تزيينها بالزخارف . (٣)

(١) السبب فى ذلك أن مخطوطات دير سيناء ، بصفة عامة ، تركت مهملة فى أقبية طيلة قرون عديدة إلى أن نقلت أخيراً إلى مكتبة بنيت خصيصا لها تتوفر فيها وسائل التهوية والنظافة . أنظر مقالى « دراسة فى وثائق المصريين الفــاطمى والأيوبى المحفوظة بمكتبة دير سانت كاترين فى سيناء » ـ مقال بمجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية ـ المجلد ١٨ ـ الاسكندرية ١٩٦٥ ، ص ١٨٠ .

(٢) تحمل أرقام كلية آداب الاسكندرية على التوالى ١٣٨، ١٨٣، ٢١٠، ٢٠٣ .

(٣) قليل من مخطوطات المجموعة العربية بسيناء ما تم توضيح موضوعاتها بالصور والرسوم عن ذلك مقالى « دراسات فى المخطوطات العربية بدير القديسة كاترينة فى سيناء » ـ مقال بمجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية ـ العدد ٢٣ ـ الاسكندرية ١٩٦٩ ، ص ١٩١ ـ ٢١٤ ؛ عزيز سوريال عطية : الفهارس التحليلية لمخطوطات طور سيناء العربية ـ ج ١ ـ ص ٥٩٥ من دليل المترجم بآخر الكتالوج .

هذا من ناحية الشكل ، أما من ناحية الموضوع فأول ما يواجهنا اسم كاتب أو ناسخ أو ناقل كل نسخة من النسخ الخطية الخمس . لاتكشف كل من المخطوطة رقم ٢٥٩ والمخطوطة رقم ٤٨٠ عن أسم الكاتب أو الناسخ أو الناقل (١) . ولعل ذلك يرجع إلى أن معظم من كتبوا أو نسخوا أو نقلوا تلك الكتب ذات الطابع الديني كانوا من رجال الدين . وقد حرصوا على عدم ذكر أسمائهم زيادة فى التقرب إلى الله ورغبة فى الحصول على رضائه فى الدنيا والآخرة (٢) . ولكن هذا لايعنى أن جميع الكتبة والنساخ والنقلة والمترجمين وغيرهم كانوا يسيرون على هذا الخط . فقد ورد فى خواتيم المخطوطات الأخرى أشارات صريحة إلى أسماء كتابها . فنعرف من خاتمة المخطوطة رقم ٣٦٠ أن أسمى كاتبي « الفردوس » هما « سابا وألياس الراهبان بطور سيناء » (٣) ومن خاتمة المخطوطه رقم ٤٢٩ نعرف أن أسم كاتب « الفردوس » هو الراهب يوحنا بسيناء ، وقد أعده من أجل « أنبا بطرس الاسكاف السينائى » (٤) . أما كاتب « الفردوس » فى المخطوطة رقم ٤٨٣ فهو « القس يوسف بن بركات من قريه قلحان (؟) (٥) .

---

(١) على الرغم من وجود خاتمة فى كل من المخطوطة رقم ٢٥٩ سيناء - عربى (ورقة ١٢٣ ب) والمخطوطة رقم ٤٨٠ سيناء - عربى (ورقه ١٢٠ ب) ، إلا أن الخاتمتين جاءتا غفلا من اسم الكاتب .

(٢) أنظر مقالى « دراسات فى المخطوطة العربية بدير القديسة كاترينة فى سيناء » ، ص ١١٦ .

(٣) أنظر المخطوطة رقم ٣٦٠ سيناء - عربى ، ورقه ٩٤ ب .

(٤) أنظر المخطوطةرقم ٤٣٩ سيناء - عربى ، ورقة ٣٥١ ب - ٣٥٢ أ .

(٥) أنظر المخطوطة رقم ٤٨٣ سيناء - عربى ، ورقة ٣٢٧ أ .

ويرجع تاريخ كتابة « الفردوس » فى هذه النسخ الخمس إلى القرنين الثانى عشر والثالث عشر وهناك مخطوطة واحدة لم يتسن تحديد تاريخها تحديداً قاطعاً وهى المخطوطة رقم ٢٥٩ والتى يحتمل أن يكون تاريخها هو القرن الثالث عشر (١) أما المخطوطات الأربع الأخرى فقد تم العثور على تواريخ تدوين « الفردوس » فى خواتيمها . وأقدمها هى المخطوطة رقم ٨٣، التى ورد فى خاتمها أن تاريخ تدوينها هو ١٧ حزيران سنة ١٤٨٩ من تاريخ الاسكندر الذى يوافق ١٧ يونيو ١١٧٧ م ٢) . وتتلوها المخطوطة رقم ٢٦٠ . تاريخها هو أول آيار ٦٦٩٦ من سنى آدم الموافق أول مايو سنه ١١٨٨ م (٣) وتأتى بعدهما المخطوطة رقم ٤٨٠ ، وهى وأن لم تشر خاتمها إلى اسم الكاتب ، إلا أنها كشفت عن تاريخ التدوين وهو الاثنين ٢٥ أيلول ٦٦٩٨ من سنى آدم الموافق ٥ سبتمبر ١١٩٠ م (٤) . وتأتى أخيراً المخطوطة رقم٤٣٩ وتاريخها هو الاثنين ١٤ تشرين الآخر ٦٧٨٧ من الخليقة الموافق ١٤ نوفمبر ١٢٧٩ م (٥) وهذا يعنى أن تاريخ

---

(١) أنظر مراد كامل : الفهرست ، جـ ١ ، ص ٥٥ .

(٢) مخطوطة رقم ٨٣ ، سيناء - عربى ، ورقة ٣٧٩ ب . وفيما يتعلق بتقويم كل من آدم وتاريخ الاسكندر وأهمية ذلك بالنسبة لمخطوطات سيناء ، أنظر مقالى « دراسات فى المخطوطات العربية بدير القديسة كاترينة فى سيناء » ، ص ١١٨ - ١٢١ .

(٣) مخطوطة رقم ٢٦٠ سيناء - عربى ، ورقة ٩٤ ب .

(٤) مخطوطة رقم ٤٨٠ سيناء - عربى ، ورقة ١٢٠ ب .

(٥) مخطوطة رقم ٤٣٩ سيناء - عربى ، ورقة ٢٥١ ب - ٢٥٢ أ .

كتابة تلك المخطوطات يرجع إلى الحقبة الوسيطة من التاريخ الوسيط فى وقت كان فيه الشرق الأدنى الاسلامى مسرحاً للحروب الصليبية ، وفى وقت كان فيه دير سيناء تابعاً للسيادة المصريه أيام الأيوبيين والفترة المبكرة من حكم المماليك البحرية . وتعتبر هذه الفترة بالذات من أخصب الفترات انتاجاً بالنسبه لرهبان دير سيناء. (١) إذ يرجع تاريخ تدوين الجانب الأكبر من المخطوطات العربيه إلى القرنين الثانى عشر والثالث عشر فى وقت كان فيه رهبان الدير ينعمون بالأمان والهدوء والاستقرار فى ظل سياسة التسامح التى سارت عليها السلطات الاسلامية فى مصر حيال أهل الذمة (٢) .

لعلنا نستبين مما سبق أهمية خواتيم تلك المخطوطات الخاصة بكتاب « فردوس العقلى » التى تلقى الضوء على أسماء الكتاب وتاريخ التدوين ، باستثناء المخطوطة رقم ٣٥٩ التى جاءت غفلا من اسم الكاتب وتاريخ التدوين ، والمخطوطة رقم ٤٨٠ التى كشفت خاتمتها عن تاريخ تدوينها دون اسم كاتبها .

= والمقصود بهذه التواريخ الزمنية الدقيقة المشار إليها أعلاه تواريخ الفراغ من كتابة « الفردوس » .

(١) عزيز سوريال عطيه : الفهارس التحليلية لمخطوطات طورسيناء العربية ، جـ ١ ، ص ٤ من مقدمة المترجم .

(٢) أنظر مقالى « دراسة فى وثائق العصرين الفاطمى والأيوبى المحفوظة بمكتبة دير سانت كاترين فى سيناء » ، ص ١/٤ وما يليها و ١٨٨ وما يليها .

بقى بعد ذلك تحديد اسم الكتاب موضوع هذه الدراسة ، واسم مؤلفه وواضع مادته الأصلية ، وتاريخ تأليفه . ليس هناك خلاف فيما يتعلق باسم الكتاب . فقد اتفقت النسخ الخمس كلهـــا على أن عنوانه هو « الفردوس العقلى » . جاء فى خاتمة « الفردوس » فى المخطوطة ٣٥٩ :

« تم هـذا المصحف المبارك المعروف بالفردوس العقلى بمعونة الله وحسن توفيقه » (١) .

وفى نهاية « الفردوس » فى المخطوطة ٣٦٠ جاء :

« تم هـذا الكتاب المعروف بالفردوس العقـلى » (٢)

وفى بداية « الفردوس » فى المخطوطة ٤٣٤ جاء :

« نبتدى بعون الله نكتب الفردوس العقلى » (٣) .

وبآخر كتاب « الفردوس » فى المخطوطة ٤٨٠ جاء :

« تم الكتاب المعروف بالفردوس العقلى » (٤) .

وفى بداية « الفردوس » فى المخطوطة ٤٨٣ جاء :

« نبدا . . بذكر الفردوس العقلى » (٥)

---

(١) ورقة ١٢٣ ب .
(٢) ورقة ٩٤ ب .
(٣) ورقة ٢ أ .
(٤) ورقة ١٢٠ ب .
(٥) ورقة ١٤٩ ب .

ولكن نسخ « الفردوس » الخمس تقف صامتة تماماً حيال مؤلفه . فاذا كانت بعض نسخ « بستان الرهبان » الخطية بسيناء قد كشفت عن اسم مؤلفه وهو بلاديوس أسقف هلينوبوليس (١) ، فقد صمتت نسخ الفردوس العقلى ، عن ذكر اسم مؤلفه وواضع مادته ، وهى لاتلقى أى ضوء قد ينير الطريق فى هذا السبيل . فهو ، إذن ، بالنسبة لنا مؤلف مجهول . ولكن أحد المؤرخين الغربيين المحدثين (٢) يعتقد أن هذا المجهول أما أن يكون جريجورى النيسى (٣) (القرن

---

(١) أنظر مقالى « بستان الرهبان » ص ٨١ وما يليها .

(٢) Cf. Graf, G., Geschichte der christlichen arabischen Literatur, I (Vatican City, 1944) , 419

(٣) عاش جريجورى أسقف نيسا Gregory of Nyssa فى القرن الرابع الميلادى وهو من كبادوكيا بآسيا الصغرى، ويعتبر من آباء الكنيسة الأول فى كبادوكيا. وهو واحد من القلائل الذين شجعوا الحركة الرهبانية النامية فى عصرهم ، وعملوا على تنظيمها . أنظر :

Chadwick, H., The Early Church (London, 1969), 148

ولجريجورى تآليف دينية ولا هرتية عديدة ، ويقال ان الرسالة المنسوبة اليه والمعنونة « ضد أريوس وسابليوس » Against Arius and Sabellius قد أملاها عليه ديديموس الضرير ، وهو واحد من أشهر من تولوا رئاسة مدرسة الاسكندرية اللاهوتية فى القرن الرابع . والمعروف أيضا أن المؤرخ العربى السريانى غريغوريوس أبا الفرج بن أهرون المشهور بابن العبرى (١٢٢٦ - ١٢٨٦ م) قد أخذ عن جريجورى النيسى فيما يتعلق بكتابات عن تفسير التوراة . أنظر عن ذلك المراجع الاجنبية التالية .

Atiya, A.S., A History of Eastern Christianity (London, 1968), 30, 206 348; Crump, C.G. & Jacob, E.F. (eds.), The Legacy of the Middle Ages (Oxford, 1941) , 233; Hussey, J.M., The Byzantine World (London, 1957). 129, 153.

الرابع الميلادى) ، أو يوحنا الدمشقى (١) (حوالى ٦٧٥ - حوالى ٧٤٩ م).
وليست لدينا حتى الآن أدلة أو معلومات يقينية تؤكد صحة نسبة الكتاب إلى

(١) يعرف القديس يوحنا الدمشقى John Damascene فى المصادر العربية باسم يوحنا بن منصور بن سرجون (المقصود سرجيوس) عاش على وجه التقريب فيما بين عامى ٦٧٥ و ٧٤٩م وهو من أعظم لاهوتيى الكنيسة الشرقية، أن لم يكن أعظمهم على الإطلاق . ولد بدمشق من أبوين سوريين فى عصر معاوية أول خلفاء الأمويين، ومات راهبا وكاهنا مرسوما بدير مار سابا فى جنوب بيت المقدس، وكان ذلك زمن مروان الثانى آخر خلفاء بنى امية فى سورية. وكان يتكلم السريانية ويعرف العربية ويجيد اليونانية . وكان على معرفة شخصية بخلفاء بنى أمية الذين عاصرهم، وبخاصة عبد الملك بن مروان (٦٨٥ - ٧٠٥) والوليد (٧٠٥ - ٧٠٥)، وكان معاصرا لحكم الامبراطورين البيزنطيين ليو الثالث الايسورى (٧١٠ - ٧٤٠) وابنه قسطنطين الخامس (٧٤١ - ٧٧٥) الذى قامت فى عهدهما الحركة اللاأيقونية التى شطرت العالم المسيحى وقتها إلى معسكرين متصارعين . وكان يوحنا الدمشقى على رأس المؤيدين لعبادة الصور ومن أشد معارضى حركة تحطيم الصور والايقونات التى كان بوسعه مهاجمتها بحرية دون أن يناله سوء أو أذى وهو يعيش داخل حدود الدولة الإسلامية بعيداً عن بطش الاباطرة اللاأيقونيين . عن ذلك، وللمزيد من التفاصيل، أنظر عن ذلك

Atiya, A.S. „St. John Damascene : Survey of the Unpublished Arabic Versions of his Works in Sinai „ Arabic and Islamic Studies in Honor of Hamilton A. R. Gibb, ed. by G. Makdisi, Leiden, 1695. 74 ff : Ostrogorsky, G, History of the Byzantine State. tsan. by J. Hussey (Oxforb. 1956). 123f.; 154 : Hussey, 81 f.; 107. 109 et ff.

هذا أو ذاك ، كل ما نعرفه أن الشيخ الصفى أبا الفضائل بن العسال (١) ، الذى عاش فى القرن الثالث عشر الميلادى كتب مختصراً لفردوس العقل (٢) . وكل ما يمكن قوله فى هذا الصدد اننا لا نعلم على وجه اليقين ان كان مؤلف «الفردوس» هو جرجورى التيوسى أم يوحنا الدمشقى أم شخص آخر غيرهما . ولا نعلم أيضاً أن كان مؤلفه شخص واحد أم تتابع على كتابته عبر القرون أكثر من شخص . والاحتمال الاخير احتمال مرجح . فإذا كان بلاديوس (حوالى ٣٦٥ - ٤٢٥ م) قد اعتبر مؤلف « بستان الرهبان » ، فذلك لأنه كان أول من وضع مادته الأصلية بكتابة سير وتراجم وتعاليم الرهبان والآباء القديسين فى عصره ، ثم جاء بعده من أتم هذا العمل فى الإحقاب التالية (٣) . وعلى هذا لا يستبعد أن يكون هناك مؤلف مجهول وضع المادة الأصلية لكتاب « الفردوس العقلى » ، ثم جاء بعده من أتمه وأضاف اليه . وهذه كلها مجرد احتمالات لا يمكن البت فيها

---

(١) هو أحد أخوة ثلاثة يعرفون باسم أولاد العسال ، وهم الإسعد أبو الفرج هبة الله ، وأبو اسحاق ، والصفى أبو الفضائل . عاشوا فى القرن الثالث عشر . ولسنا نعرف التواريخ المضبوطة لحياتهم . والمعروف أن الشيخ الصفى كان مشرعا وجدليا ، وقد صنف إلى جانب رسائله الدينية مجموعة مختصرة من القوانين . أنظر دائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية ، جـ ١ ، ط . ثانية (القاهرة ١٩٦٩) ، ص ، ٣٥٠ و ٣٥١ ؛ الموسوعة العربية الميسرة ، باشراف محمد شفيق غربال (القاهرة ١٩٦٥) ص ٢٣ .

(٢) نشر هذا المختصر فى القاهرة سنة ١٩١٢ تحت اسم « كتاب الفردوس العقلى مختصر العالم الشيخ الصفى بن العسال » .

(٣) أنظر مقالى « بستان الرهبان » ص ٨٢ ح ٣ .

برأى نهائي قاطع طالما أن الوثائق التى تحت أيدينا لا تسعفنا بشىء فى هذه الناحية أكثر مما ذكرناه .

ومهما يكن من أمر ، فان بداية ونهاية كل نسخة من هذه النسخ الخطية الخمس تكشف عن مضمون « الفردوس » ومحتوياته وجوهر مادته . وفيما يلى بداية ونهاية « الفردوس » فى المخطوطة رقم ٣٥٩ :

البداية (ورقة ١ أ)

« والذى يقتلعه من شجرة الصفح ويجرده من جوهرته المحبة التامة لله وللقريب . والايمان أنه لحال خطيته ليس احقر من كل الناس فقط بل ومن البهايم والقران . (١) (كذا) وأنه مستحق لكل هوان وسب » .

النهاية (ورقة ١٢٣ ب)

« كل من كان إلى خيرات الآخرة مسرعا فالاقامة فى هـذا الجسد أثقل عليه من كل عذاب » .

أما « الفردوس » فى المخطوطة رقم ٣٦٠ فبدايته ونهايته على الوجه التالى :

البداية (ورقة ١ أ)

« لا يعرف له منها موضعـــا يسكنه فيخلي منه غير ذلك المكان » .

---

(١) المقصود الثيران .

النهاية (ورقة ٩٤ ب)

« لأن الله عز اسمه لمثل هولاى (١) النساك يحب ويقبل ودعين وصالحين ومتحنين الذين ما يخرج من أفواههم غش . »

وبداية « الفردوس » ونهايته فى المخطوطة رقم ٤٣٩ كالآتى :

البداية (ورقة ٢ أ)

« نبتدى بعون الله نكتب الفردوس العقلى وإيضاح الشجر والنباتات التى نصبها الله فيه »

النهاية (ورقة ١٥٠ ب)

« ترس الامانة الساتر فكر الانسان ، وسيف الروح الموتخذ (٢) (كذا) بالنطق ، هذه الاسلحة مقتدرة بالله على هدم الحصون والحصون هى مواقع العقل » .

و « الفردوس » فى المخطوطة رقم ٤٨٠ بدايته ونهايته كما يلى :

البداية (ورقة ١ أ)

« والوصية التى تزيله من تواضع ذاته يرتفع شانه »

النهاية (ورقة ١٢٠ ب)

« كل من كان إلى خيرات الآخرة مسرعا فالاقامة فى هذا الجسد أثقل عليه من كل عذاب » .

---

(١) المقصود هؤلاء .

(٢) المقصود المتخذ .

وفيما يلي بداية « الفـردوس » في المخطوطة رقم ٤٨٣ ، علماً بأن كتاب « الفردوس » في هذه النسخة الخطية تام كامل غير منقوص من بدايته أو نهايته :

البداية (ورقة ١٤٩ ب)

« نبدا .. بذكر الفردوس العملى وايضاح النباتات التى نصبها الله فيه . ان الانجيل الاقدس يسمى قلب الانسان أرضا ».

النهايه (ورقة ٢٥٦ ب)

« فان العقل وخدامه يدوس ويعملون اشيا (١) (كذا) والبشر ايضا يعمل اشيا (كذا) ضد تلك تم ».

مما سبق نستشف أن مؤلف « الفردوس العقلى » يتوجه بحديثه إلى الرهبان والنساك طالباً منهم التحلل من الدنيويات بالبعد عن ملذات الحياة الدنيا ومباهجها ووبلهنيتها ومتعها الجسدية الحسية الزائلة ، مبيناً العـذاب الذى سوف يلقاه الخاطىء ، وبذلك يتسنى لهم بعد تطهير أنفسهم من ادران الخطية التقرب إلى الله والاتحاد معه فى محبة أبدية . ويدعو المؤلف المجهول أولئك المتعبدين الى الخروج من الجسد والالتصاق بالله للتمتع بالثمار الروحانية وخيرات الآخرة ، معبراً بذلك عن الصراع الأزلى بين الروح والجسد . ثم يتوجه بنصائحه اليهم قائلا ان السلاح الذى يمكن به تحقيق ذلك هو الفكر والعقل والروح . ويقوده

---

(١) المقصود أشياء .

هذا إلى الحديث عن الصفات الواجب توافرها فى أولئك الزهاد من حيث الوداعة والقناعة والصلاح والأمانة والتقوى والايمان والطهارة والتواضع ونكران الذات ، متناولا ذلك كله بافاضة واسهاب وفى شىء من التحليل والتعليل .

وجدير بالذكر أن نسخ « الفردوس » الخطية الخمس تتضمن نفس المعانى والأفكار وبنفس الأسلوب تقريباً ، مع اختلافات طفيفة فى بعض الكلمات التى لاتمس الموضوع ولا تغير من جوهره . ولعل هذه النسخ الخمس المدونة خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، ومنقولة عن أصول أخرى أقدم منها فقدت ولم تصلنا واحتفظت لنا هذه النسخ بمادتها الأصلية .

والخلاصه أننا أمام مؤلف مجهول لابد وأن يكون من رجال الدين المتضلعين فى اللاهوت المسيحى ، يتوجه بنصائحه إلى أولئك الآباء القديسين الذين اعتزلوا فى المناطق النائية بعيداً عن الدنيويات ومباذلها . وإذا عرفنا أن الرهبنة بدأت أول ما بدأت فى مصر خلال القرنين الثالث والرابع على أيدى قديسين من أمثال أنطونيوس (حوالى ٢٥١ - ٣٥٦ م) وباخوميوس (حوالى ٢٩٠ - ٣٤٦م) ، ومنها انتقلت إلى فلسطين وبلاد اليونان والغرب الاوروبى خلال القرنين الخامس والسادس على أيدى بعض الآباء القديسين والمفكرين والكتاب والمؤرخين الذين زاروا مصر وأديرتها فى تلك الفترة المبكرة (١) إذا عرفنا ذلك كله أمكن القول أن المؤلف المجهول لكتاب « الفردوس العقلى » يحتمل أن يكون قد وضع

---

(١) عن ذلك أنظر مقالى « بستان الرهبان » ص ٧٦ وما يليها . وسنتناول هذه الناحية بمزيد من الدراسة والتفصيل فى بحث آخر عنوانه « مجتمع الاسكندرية فى العصر المسيحى » ، ستقوم جامعة الاسكندرية بطبعه فى كتاب يتضمن عددا من البحوث الدراسات التاريخية الاجتماعية لمجتمع الاسكندرية .

كتابه فى وقت ما غير معروف على وجه التحديد فيما بين القرنين الرابع والسادس للميلاد . وإذا عرفنا أن جامع المادة الاصلية لكتاب « فردوس الآباء القديسين» المعروف أيضاً باسم « بستان الرهبان » هو بلاديوس أسقف هلينوبوليس الذى عاش فى الحقبة الأخيرة من القرن الرابع والربع الأول من القرن الخامس، أمكن أيضاً القول بأن « الفردوس العقلى » الذى يعتبر مكملا لكتاب « فردوس الآباء » قد تم وضعه فى فترة قريبة من ذلك التاريخ ، أى فيما بين أواخر القرن الرابع وبدايات القرن الخامس أو بعد ذلك بقليل ، ليكون هـــديا ودليلا للرهبان والنساك فى حياتهم الجديدة . ولعل هذا هو الذى حـدا بالعالم « جراف ، Graf إلى القول بأن مؤلف الكتاب أما أن يكون جريجورى النيسى الذى عاش فى القرن الرابع للميلاد ،أو يوحنا الدمشقى الذى عاش فى أخريات القرن السابع والنصف الاول من القرن الثامن . وأن نسبة « الفردوس » إلى جريجـــورى النيسى أمر قريب الاحتمال لاسباب عدة ، أولها أنه عاش فى القرن الرابع أى فى فترة نمو البذرة الرهبانية فى مصر والشرق ، وهى نفس الفترة التى وضع فيها بلاديوس « بستان الرهبان » . فضلا عن أن جريجورى كان متضلعاً فى المسائل الدينية والكنسية واللاهوتية مما يتيح له الكتابة فى مثل هذه الأمور . أما بالنسبة ليوحنا الدمشقى فالأمر جد مختلف . فعلى الرغم من أنه لا يقـــل عن زميله جريجورى النيسى تضلعاً فى المسائل اللاهوتية ، إلا أن الفترة الزمنية التى عاش فيها ، وهى أخريات القرن السابع والنصف الأول من القرن الثامن ، تجعل مـ المستبعد نسبة الكتاب اليه لاسباب عديدة ، منها أن الذين كتبوا عنه وعن سيرته وإنتاجه — باستثناء جراف — لا ينسبون « الفردوس » اليه . ثم أن هذه الفترة بالذات كانت قد نمت فيها الحركة الديرية والرهبانية واختمرت وتبلورت ووصلت إلى قمة نضجها . ولا يعقل أن يوضع كتاب يتعلق بتنظيم المسائل الروحية

الرهبان بعد مرور أكثر من ثلاثة قرون على نشأة الرهبنة . إنما الأقرب إلى المنطق والتصديق أن يكون تاريخ وضعه متفقاً مع الوقت الذى بدأت فيه الرهبنة تأخذ شكلها المعروف ، وهو الوقت الذى وضع فيه بلاديوس « فردوس الآباء » متضمناً سيرهم وأعمالهم وأقوالهم وتعاليمهم . وعلى هذا يحتمل أن يكون هذا الآخر قد وضع « الفردوس العقلى » فى تاريخ قريب من كتاب بلاديوس ، ليكون المشعل الذى يهتدى به الرهبان فى حياتهم الروحية الجديدة .

ومن كل ما تقدم ، يجب أن ندخل فى الاعتبار أن « الفردوس العقلى » قد يكون شأنه شأن مئات الكتب الدينية والكنسية واللاهوتية التى يحتفظ بها دير سيناء والمجهول اسماء مؤلفيها أو كتابها أو مترجميها . إذ كان هؤلاء يتعمدون عدم ذكر أسمائهم تقرباً إلى الله كما ذكرنا . ومن الطبيعى أن هؤلاء المؤلفين والكتاب وغيرهم كانوا من فئة رجال الدين التى لم يكن يعنيها فى كثير أو قليل تخليد أسمائهم فى هذه الحياة الدنيا الزائلة بقدر ما كان يهمها أن تنعم أرواحها بالراحة فى دار الخلد الباقية . وبناء على ذلك ، لعل مؤلف « الفردوس العقلى » فى انكار ذات نسكى أبى أن يذكر اسمه .

وكيفما كان الأمر ، وسواء كان مؤلف « الفردوس » هو جريجورى النيسى أو ذلك المجهول الذى لم يتسن معرفة اسمه ، فإن هذا لن يبعدنا عن مضمون الكتاب الذى تضمن مادة دسمة تعتبر فى حقيقة الأمر انعكاساً للمسيحية وفلسفتها فى العصور الوسطى . لقد ارتكزت تلك العصور ، كما هو معروف ، على فكرتين أساسيتين تعبران عن الروح السائدة فيها أصدق تعبير ، وهما الدين والحرب . والفكرة الأولى ترتبط بالعناصر المتبربرة التى غزت أوروبا عند نهاية التاريخ القديم وبداية الوسيط ، وترتبط كذلك بنشأة الاقطاع وما يتصل

به من الفروسية . أما الفكرة الثانية فقد أوحت بها منذ البداية الديانة المسيحية وانتشارها وتأصل جذورها بعد القضاء على الوثنية وعبادة الأباطرة. والمعروف أن المسيحية جاءت كرد فعل للوثنية وما تميزت به من عنف وتحرر وانطلاق وتعدد الآلهة كنتيجة لتعدد نواحي الحياة في المجتمع ، مع التمتع بهذه الحياة في شتى صورها ومظاهرها . لذلك كانت الحياة الدنيا في نظر الدين الجديد مطية زائلة إلى الدار الثانية باعتبارها دار الخلد والنعيم المقيم . وعلى هــذا كانت المسيحية تحرم مباهج الحياة باعتبارها متاعاً زائلة ، وتدعو الناس إلى الزهد والتقشف والورع حتى يهيئوا أنفسهم للحياة الثانية الباقية . وهكذا صبغت المسيحية الحياة بصبغة خاصة ظهر أثرهــا جلياً في جميع نواحي النظم والحضارة الوسيطة وعلى رأسها نظام الرهبنة والديرية (١) .

وإذا كانت فلسفة المسيحية تنهى عن التمتع بالحياة وتدعو إلى إعداد النفس للآخرة ، وإذا كانت عقلية الفرد الوسيط تتميز بالاقتنــاع بأن لكل انسان روح يتعين عليه أن يلتمس لها الخلاص باعتبار أن الخلاص هو الغاية النهائية التي لابد منها لكل كائن حي – إذا كان كل هذا ينسحب

---

(١) أنظر كولتون (ج . ج) : عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة – ترجمة وتعليق جوزيف نسيم يوسف – ط. ثانية (الاسكندرية ١٩٦٧) ، ص ٦ و ٤٨ و ٥٥ وما يليها . راجع أيضاً المقالة التالية :

Joseph N. Youssef, „ Prophetologion : An Arabic Manuscript in the Library of the Monastery of St. Catherine in Sinai, No. 588 – A Survey and Critical Study, " Cahiers d' Alexandrie, Série IV, Fasc. 4, Alexandrie, 1967, 5 f.

على الفرد المسيحى العادى ، فمن باب أولى انسحابه على أولئك الذين اعتزلوا الدنيا واعتنقوا الرهبنة . وعلى هذا تدور فكرة « الفردوس العقلى » للنساك والرهبان حول المعركة المحتدمة بين الخير والشر وبين الروح والجسد ، وبكلمة أخرى معركة الراهب فى ديره ضد الشيطان وفخاخه ، والأسلحة التى يمكنه بها التغلب عليه ، وما يتصل بمثل هذه الأمور الروحانية من قريب أو بعيد .

وبعد هذا العرض المقارن ، شكلا وموضوعا ، لنسخ « الفردوس العقلى » الخطية الخمس المحفوظة بمكتبة طور سيناء ، يأتى ترتيب هذه النسخ حسب أهميتها وقيمتها التاريخية . لا شك أن المخطوطة رقم ٤٨٣ تأتى فى القمة ، أولا لأنهـا تضمنت نسخة كاملة مستوفاة من « الفردوس » تقع فى ٢١٨ ورقة ، وثانيا لأنها أقدم النسخ على الاطلاق ، إذ يرجع تاريخ كتابتها إلى سنة ١١٧٧ م ، وثالثا لأن الخاتمة التى عثرنا عليها بها تحدد اسم كاتبها وهو القس يوسف بن بركات . وتتلوهـا النسخة الخطية المحفوظة بالدير تحت رقم ٤٢٩ لأنهـا هى الاخرى غير منقوصة وان كانت مختصرة ، ثم أن بها خاتمة تحدد اسم كاتبهـا وتاريخ تدوينها . وبها فضلا عن ذلك قراءتان (١) تاريخهما ٧٠٨٧ من الخليقة

---

(١) أنظر ورقة ٣٥٢ أ . أنظر أيضا لوحة رقم (٢) . والقراءتان بقلم قارئين اطلعا على المخطوطة . ويلاحظ أن هذا هو التعليق الوحيد الذى تضمنته تلك النسخة الخطية ، أما النسخ الاخرى فلا تتضمن أية تعليقات اضافية ، بعكس غالبية مخطوطات المجمـوعة العربية بسيناء التى تزدحم بالتعليقات الاضافية . أنظر مقالى « دراسات فى المخطوطات العربية بدير القديسة كاترينة فى سيناء » ، ص ١٢١ — ١٢٥ .

أى سنة ١٥٧٩ م . وتأتى بعــد ذلك المخطوطتان رقم ٣٦٠ ورقم ٤٨٠ على التوالى . ففى الاولى خاتمة حددت اسم الكاتب وتاريخ التدوين ، وفى الثانية خاتمة حددت التاريخ دون اسم الكاتب ، ولكن لاثنتين ناقصتان من البداية ولو أنهما كاملتان فى النهاية . وأقل النسخ الخمس أهمية هى المخطوطة رقم ٣٠٩ التى لم تصورها بعثة سنة ١٩٥٠ ، فكاتبها مجهول وتاريخها غير معلوم على وجه اليقين ، ثم أنهــا مبتورة البداية . ولا تكشف خاتمتهــا عن شىء له قيمة .

البحث الخامس

دراسة فى وثائق العصرين الفاطمى والأيوبى
المحفوظة بمكتبة دير سانت كاترين فى سيناء

نشر هذا البحث بمجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية ـ العدد ١٨ ـ
الاسكندرية (مصر) ١٩٦٥ ـ ص ١٧٩ - ٢٠٢ .

مقدمة عن دير سيناء وايقوناته ومكتبته

فى أخريات عام ١٩٦٣ قامت كلية الآداب بجامعة الاسكندرية بالاشتراك مع بعثتى جامعتى متشيجان وبرنستون بأمريكا ببعض الدراسات الفنيـــة والأثرية والتاريخية فى دير القديسة كاترين فى شبه جزيرة سينـاء . وقد أتيحت لى فرصة زيارة الدير المذكور مرتين ، الأولى فى الفترة من ٣ إلى ١٤ أكتوبر ، والثانية من ٢١ إلى ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٦٣ .

والدير غنى عن التعريف. فهو يعتبر من الآثار الخالدة للامبراطور جستنيان (٥٢٧ - ٥٦٥ م) وزوجته الامبراطورة تيودورا ، ولا يزال شاخصاً حتى اليوم يروى قصة قرون عديدة خالية . وهو آية من آيات الفن والمعمار البيزنطى، من حيث جماله وما احتواه من المبانى الرائعة والصور الجميلة والفسيفساء ذات الألوان الخلابة الزاهية التى لازالت تحتفظ بجمالها ورونقها حتى يومنا هذا ، فضلاً عما تحويه من الكئوس والأوانى والذخائر المقدسة من ذهبية وفضية . ومع ما للدير من أهمية ، فأنها لاتقاس بجانب مجموعة الأيقونات التى توجد به والتى لامثيل لها فى العالم، خاصة إذا عرفنا أن حركة محطمى الصور والأيقونات فى القرن الثامن ، والتى لم تسلم منها كنيسة أو دير فى العالم المسيحى ، لم تمتد إلى دير القديسة كاترين الذى كان خاضعاً للسلطات العربية وقتذاك . فحفظ لنا تراثاً له قيمته التى لاتنكر(١) .

(١) لقد ترافدت على دير القديسة كاترين فى سيناء منذ عام ١٩٥٠ عدة بعثات من جامعة الاسكندرية بالاشتراك مع بعض الجامعات والهيئات العلمية بأمريكا، للقيام بدراسات فنية وأثرية وتاريخية فى المنطقة وضواحيها، وآخرها بعثة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية برئاسة أستاذنا الدكتور أحمد فكرى التى =

وإلى جانب هذه المجموعة من المخلفات المقدسة ، توجد مجموعة أخرى لا تقل عنها فى أهميتها وقيمتها ، وهى المخطوطات والوثائق التى يحتفظ بها الدير(١). إذ تتمتع مكتبته بأهمية بالغة لما تحويه من مستندات نادرة لم يكن العالم حتى وقت قريب يعرف عنها شيئاً . فقد ظلت قابعة بالدير لأجيال طويلة لقيت فيها الكثير من الاهمال . ولكنها نقلت أخيراً إلى مخـــزن جديد تتوفر فيه وسائل الاضاءة والنظافة . كما أصبحت موضع اهتمام المسئولين بالدير وعنايتهم .

وهذه المجموعة من المخطوطات والوثائق (٢) دونت فيما بين القرن السادس

قامت بعثة زيارات للدير خـــلال عامى ١٩٦٢ - ١٩٦٣ ، والدكتور أحمد فكرى بصدد إعداد مجلد يضم عدداً من الايقونات الهامة الموجودة بالدير والتى تمثل مختلف العصور . كما ينتظر أن يظهر فى وقت قريب المجلد الأول من مجموعة المجلدات تنوى البعثة المشتركة اصدارها عن الدير . وفيما يتعلق بايقونات دير سيناء ، أنظر مقالتا الأستاذ . فايتزمان :

Waitzmann, Mount Sinai's Holy Treasures. Cf. National Geographic Magazine, Jan. 1964, pp. 109—127 : Weitzmann, Thirteenth Century Crusader Icons on Mount Sinai. Cf. The Art Bulletin. Vol XLV, No 3. Sep 1963, pp 179 203.

(١) فى الفترة من يناير إلى يونيو ١٩٥٠ قامت بعثة أمريكية مؤلفة من ممثلين عن مكتبة الكونجرس وبعض الهيئات الامريكية المعنية بالأبحاث والدراسات الشرقية بالاشتراك مع جامعة الاسكندرية بزيارة الدير . وأتمت تصوير حوالى نصف المخطوطات وجميع الوثائق المحفوظة بمكتبته ، والتى يوجد لها صور ميكروفيلم بمكتبة كلية الآداب بالاسكندرية .

(٢) ظهرت عدة فهارس وكتالوجات لمحتويات مكتبة القديسة كاترين فى سيناء من وثائق ومخطوطات ، وذلك فى الفترة من ١٨٨٦ إلى ١٩٥٢ . وقد

والقرن التاسع عشر . ويبلغ عدد المخطوطات ٣٢٣١ مخطوطة مكتوبة بإحدى عشر لغة هى العربية والسريانية والحبشية والفارسية واليونانية والسلافونية والجورجيانية واللاتينية والارمينية والبولونية وإن أغلب الأكبر منها فى اللاهوت والكتب الكنسية والدينية ، وقليل منها فى الفلسفة والموسيقى والرياضة والفلك والتاريخ والجغرافية والأجرومية والطب والقانون . أما الوثائق فيبلغ عددها ١٧٤٢ وثيقة ، منها ١٠٧٢ وثيقة باللغة العربية و ٦٧٠ وثيقة باللغة التركية . وهى تتضمن عهود ومراسيم ومنشورات وفرمانات ومعاهدات وفتاوى وحجج ومحاضر وأوامر إدارية .

يتضمن بعضها جانباً من المخطوطات، بينما كان البعض الآخر أكثر شمولاً فاحتوى بياناً بكافة المخطوطات، والوثائق ومن أهم هذه الفهارس فهرست «جاردت هاوزن» الذى صدر سنة ١٨٨٦ ، وفهرست « بنشفتش » سنة ١٩١١ - ١٩١٤ ، وفهرست « هاغن » سنة ١٩٣٢ ، وفهرست «مار» سنة ١٩٤٠ . وقد تعرضت هذه الفهارس لبعض المخطوطات اليونانية . ثم فهرست «مسلويس» سنة ١٨٩٤ الذى تعرض لبعض المخطوطات السريانية . وفهرست « جبسن » سنة ١٨٩٤ الذى تعرض لبعض المخطوطات العربية . وكذلك فهرست الدكتور مراد كامل ، وهو يقع فى جزءين وقد صدر سنة ١٩٥١ ، ويتضمن جميع مخطوطات ووثائق سانت كاترين ، وقد قام باعداده بناء على طلب الجامعة العربية . وهناك أيضاً فهرست البعثة الأمريكية الذى ظهر سنة ١٩٥٢ ، ويقتصر على المخطوطات والوثائق التى كانت البعثة الأمريكية بالاشتراك مع بعثة جامعة الاسكندرية بتصويرها سنة ١٩٥٠ . كما نشر الدكتور عزيز سوريال عطية سنة ١٩٥٥ فهرساً مختصراً لجميع المخطوطات والوثائق العربية الموجودة بالدير . والدكتور عزيز سوريال فى صدد نشر كتالوج تفصيلى دقيق يقع فى بضعة مجلدات للمخطوطات والوثائق العربية مع بيان محتوياتها وكافة التفاصيل المتعلقة بها .

وقد أمضيت الشطر الأكبر من الزيارتين اللتين قمت بهما للدير بين جدران المكتبة ، حيث عكفت على الاطلاع على الوثائق العربية التى ترجع إلى العهدين الفاطمى والأيوبى ، وهى مدونة فى الفترة من سنة ٥٠٢ هـ إلى سنة ٦٠٧ هـ (١١٠٩ — ١٢١١ م) .

وسنحاول فيما يلى تسليط بعض الاضواء على تلك الوثائق للكشف عن قيمتها التاريخية والنتائج التى يمكن استخلاصها منها .

وثائق العصرين الفاطمى والايوبى :

تعتبر الوثائق المذكورة من التراث الخالد لما تضمنته من معلومات تلقى كثيراً من الضوء على طبيعة الحياة فى منطقة طور سيناء ، وأحوال الرهبان الذين يعيشون هناك ، والعلاقات التى كانت قائمة بينهم من ناحية وبين كل من العربان المجاورين لهم والنواب والولاة بالحصون الطورية والسلطات المسئولة بالديار المصرية من ناحية أخرى .

وقبل تناول هذه الوثائق بالدراسة والتحليل يحسن أن نمهد لها بكلمة سريعة عن انتشار الرهبنة فى طور سيناء ، وأسباب بناء الدير فى عهد الامبراطور جستنيان .

كان يقطن بجبال طور سيناء قبل القرن السادس الميلادى كثير من الرهبان الذين تركوا الحياة الدنيا إلى حياة التنسك والتبتل والبعد عن الملذات الزائلة . وكان يعيش بالقرب منهم بعض العربان الذين وفدوا إلى تلك المنطقة النائية القحلاء من البحر الأحمر ومن بلاد الحبش وغيرهما من الجهات . وكان العربان يغيرون على رهبان طور سيناء ، ويعملون فيهم السلب والنهب بين وقت وآخر للحصول على لقمة العيش . وقد بلغت هذه المضايقات ذروتها فى أوائل القرن السادس . فاجتمع الرهبان وأرسلوا وفدا من قبلهم إلى الجالس على العرش البيزنطى وهو

وقتئذ الامبراطور جستنيان ، يلتمسون منه الموافقة على بناء برج حصين يحتمون بداخله من مضايقات أولئك العربان فوافق جستنيان على طلبهم ، وأرسل مندوبا من قبله إلى المتولى فى مصر — وكان يدعى ثاوضروس — بتقديم كافة التسهيلات اللازمة للرهبان من المال والرجال ومواد البناء ليتسنى اقامة البرج . وهكذا تم بناؤه فى المكان الذى يدعى جبل الله ، وهو الذي كلم الله فيه موسى . ويعرف هذا الموضع أيضاً باسم العليقة . وهكذا تم اختيار هذا المكان بالذات باعتباره من الأماكن المقدسة ، فضلا عن وجود الماء فيه

ومع ذلك فان العلاقات بين الرهبان داخل حصنهم الذى أصبح بمثابة دير لهم وبين العربان لم تكن دائماً ودية أو طيبة . وغير خاف أن العوامل الطبيعية والجغرافية لعبت دورا كبيراً فى اثارة الخلاف والنزاع بين الطرفين . فالمنطقة كلها عبارة عن صحراء جرداء قاحلة ، توجد بها مجموعة من الجبال الشاهقة التى يصل ارتفاع بعضها بضعة آلاف من الأقدام ، مثل جبل موسى وجبل القديسة كاترين . وتتميز طور سيناء بجفاف جوها . أما مناخها فشديد الحرارة صيفاً شديد البرودة شتاء حيث يكسو الجليد قمم الجبال . ويعتمد أهلها فى معيشتهم على مياه الآبار والأمطار . وقد أدى هذا إلى وجود بعض الوديان الخصيبة التى يمتلكها الدير مثل وادى الاربعين ووادى الفران ، وكان العربان يعيشون حولها ويتعيشون منها . وكلما نضبت المياه من مكان ، ينتقلون إلى مكان آخر سعياً وراء الرزق . ومن أهم مزروعات طور سيناء القمح والشعير والحبوب والغلة والزيتون وبعض الأنواع من الموالح والفواكه مثل الليمون والتين والرمان والعنب الذى كانوا يعتصرون منه النبيذ . ومن الدواب التى تعيش فى طور سيناء الجمال والماعز . ومن هنا أيضاً كانت تلك المشاحنات المستمرة بين الرهبان والعربان

وغيرهم من الرحل الذين يقطنون فى تلك الجهات ، وبين العربان وزوار المنطقة من الحجاج والمسافرين ، وهو ما تكشف عنه الوثائق التى نحن بصدد دراستها .

وعلى أية حال ، فقد كان العربان يقيمون فى المغاور والجبال المجاورة للدير ، واستمرت مضايقتهم للرهبان . كما كانوا يتربصون بالسياح الذين يزورون المنطقة حيث ينقضون عليهم ويعملون فيهم السلب . وعندما توالت الشكايات إلى الامبراطور جستنيان أرسل من بلاده مائة أسرة برجالها ونسائها وأطفالها إلى مصر . وكتب إلى المتولى عليها من قبله بأن يجهز هو أيضاً مائة أسرة أخرى بكامل أفرادها ، ويقوم بارسال الأسر المائتين إلى طور سيناء لكى يعيشوا خلف وراء الجبل الذى يواجه الدير على بعد ثمانية أميال منه . وتكون مهمة هؤلاء الرجال هم وزوجاتهم وأولادهم حراسة الدير ورهبانه ، والقيام على خدمتهم والدخول فى طاعتهم . وحذر الامبراطور بتوقيع أشد العقاب على كل من يخالف ذلك ، وطرده هو وأسرته من المنطقة . وقد عرف هؤلاء الناس أيام جستنيان باسم « عبيد الدير » أو « صبيان الدير » (١) .

لقد استمرت العلاقة بين الرهبان والعربان بين شد وجذب إلى أن ظهر الإسلام فى أوائل القرن السابع الميلادى . وبقيام حركة الفتح التى انتهت باستيلاء العرب على بلاد الشام وآسيا الصغرى ومصر وشمال أفريقية ، أصبح الدير المذكور يخضع للسلطات العربية فى مصر . واستمر خاضعاً لها بقية العصور الوسطى .

ومن حسن الحظ أنه يوجد بمكتبة الدير احدى عشر وثيقة أصلية باللغة

(١) أنظر « كتاب تاريخ بناء الدير » مخطوط بدير سانت كاترين فى سيناء تحت رقم ٦٩٢ ، ورقة ١ - ٢ ب .

العربية ترجع إلى زمن الفاطميين والأيوبيين ، والتى تكشف عن طبيعة الحياة فى هذه المنطقة الصحراوية النائية ، وأحوال رهبانها وقسيسيها ، والعلاقات القائمة بينهم وبين جيرانهم من العربان ، وبينهم وبين أساقفتهم وهم المقدمين عليهم . وكذلك العلاقات بينهم وبين الولاة والنواب بالطور من ناحية ، وبينهم وبين الحكام بمصر من ناحية أخرى .

أهم ما يسترعى الانتباه فى تلك الوثائق هو الالتماسات التى كان يبعث بها رهبان طور سيناء إلى السلطات المسئولة بالديار المصرية فى طلب رعايتهم وحمايتهم من المضايقات التى كانوا يتعرضون لها من العربان الذين يجاورونهم . ففى احدى الوثائق التى ترجع إلى مستهل القرن السادس الهجرى (أوائل القرن الثانى عشر الميلادى) جاء أن أسقف دير سيناء المسمى ذيغرى يلتمس من الخليفة الفاطمى بمصر وهو آنذاك الآمر بأحكام الله (٤٩٦ — ٥٢٤ هـ) اصدار الأمر برعايته هو ورهبانه (١) . وخرج المنشور من ديوان الانشاء « بمضاعفة الاحسان اليهم ، ومتابعة الانعام عليهم ، وبتوفير حظوظهم من الرعاية ، واجزال نصيبهم من العناية والحماية . . وتعمونهم بالعدل العميم الشامل ، وبالانصاف المتكامل » (٢) ولا تخرج معظم الوثائق العربيه عن هذا المعنى . ففى وثيقة بتاريخ ذى الحجة ٥٤٨ هـ (فبراير — مارس ١١٥٤ م) خرج منشور من مصر « برعاية الرهبان

---

(١) « وسألوا (أى رهبان طور سيناء) فى تحديد منشور برعايتهم وصيانتهم ، واجرائهم فى بسط العدل عليهم على رسمهم وعادتهم ، لكون سحب النعم عليهم لا تنقشع ، وحبل الاحسان لا ينهدم ولا ينقطع . » أنظر الوثيقة رقم ٦ سطر ١٠ — ١٢ .

(٢) أنظر الوثيقه رقم ٦ سطر ٢٠ — ٢٣ .

المقدم ذكرهم ، ومن ينتجع اليهم و يطرأ عليهم ، وأصحابهم وأهل ملتهم والتابعين والمتصرفين فى تحصيل أ واتهم ، وغير ذلك من مصالحهم التى لا غنى عنها لامتهم وحفظهم وحياطتهم . وصونهم فى أنفسهم وأصحابهم السالكين سبيلهم . وكف الأيدي من الحاضرة والبادية عن أذيتهم وعن الامتداد بسوء اليهم . » (١) وقد يتضمن المنشور إلى جانب رعاية الأسقف ورهبانه ومنع التعرض لهم بالاذى ، الأمر بالابقاء على العرف الجارى والامور المستقرة بينهم وعدم المساس بها . من ذلك منشور يرجع إلى منتصف القرن السادس الهجرى (منتصف القرن الثانى عشر الميلادي) جاء فيه بعد البسملة والافتتاحية « . . . واعتماده (أى أسقف طـــور سينـاء) بالرعاية والملاحظة والمعونة والمرافدة والمبالغة فى اعزاز جانبه وتسهيل مطالبه ، والتحذير من تكليفه أو أحد من رهبانه أو جاره ، واجرائه على القوانين المرضية والأوضاع المختارة » (٢) . وفى وثيقة أخرى ترجع إلى أواخر القرن السادس الهجرى (أواخر القرن الثانى عشر الميلادى) ورد « . . . وتقدمنا بأن يحرروا رهبان هذا الدير المذكور على عادتهم المستمرة ، ويقروا على القاعدة المستتبة المستقرة . وأن يتوخوا بالرعاية والحماية والحياطة ويمنع من يتعرض لأذيتهم أو يطمع فى مضرتهم » (٣) . وفى وثيقة من العهد المملوكى يرجع تاريخها إلى أخريات القرن السابع الهجرى (أخريات القرن الثالث عشر الميلادى) يتأكد نفس المعنى . إذا جاء فيها : « من السلطان إلى النواب والولاة بالديار المصرية

---

(١) أنظر الوثيقة رقم ٩ .

(٢) أنظر الوثيقة رقم ١٠ سطر ٣٢ - ٣٧ .

(٣) أنظر الوثيقة رقم ١١ سطر ٢٤ - ٢٩ . أنظر أيضاً الوثيقة رقم ١٢ سطر ٨ - ١٤ .

والبلاد الشامية بشمل رهبان طور سيناء بالرعاية والاحترام ، والاعفاء من المغارم ، والتوفير من المظالم على حكم التواقيع الشريفة التى بأيديهم . وأن تكف عنهم أيدى العدوان ، وتجرى أمورهم على منهج العدل وسنن الاحسان»(١) .

سبق أن ذكرنا أن جغرافية طور سيناء كان لها أثرها فى صبغ الحياة فى تلك المنطقة الصحراوية الجدباء التى تعتمد اعتمادا كلياً على أمطار الشتاء ومياه الآبار الجوفية ، بصفة خاصة . وكان من أهم منتجاتها القمح والشعير والحبوب والغلة والنخيل والكروم . وكانت هذه المنتجات الزراعية ـ على قلتها ـ تثير الكثير من الخلافات بين الرهبان والعربان . ويبدو أن شكاياتهم كانت تصل إلى مصر بهذا الخصوص ، وإن كان الدير لم يحتفظ لنا بصور منها . ففى منشور صادر من ديوان الانشاء بتاريخ ٢ رجب ٥٢٩ هـ (١٩ ابريل ١١٣٥ م) صدر أمر بمنع كل من يتعرض لاسقف الدير ورهبانه ومايختص بهم من قمح وشعير وحبوب وكروم وما يختص منها »(٢) ، وفى منشور آخر بتاريخ ١٦ محرم سنة ٥٩٢ هـ (٢١ ديسمبر ١١٩٥ م) صدر الامر « بأن لايفسح للعربان ولا لغيرهم من الموافقين والمخالفين لهم فى الاديان فى اهتضامهم »(٣) . ويحدث أحياناً أن يطالب العربان بمقاسمة رهبان الدير فى كرومهم ونخيلهم وغيرها من الزروع . ويخرج منشور من الديوان بأن « لا يعرضوا فى كرومهم ونخيلهم وزروعهم بأضرار ولا مقاسمة ولا احتجاز ، ولا اقتطاع شىء من ذلك بوجه من وجوه

---

(١) أنظر الوثيقة رقم ١٧ بتاريخ ٥ صفر ٦٩٠ هـ (٧ فبراير سنة ١٢٩١م) .
(٢) أنظر الوثيقة رقم ٨ بتاريخ ٢ رجب ٥٢٩ هـ (١٩ ابريل ١١٣٥م) .
(٣) أنظر الوثيقة رقم ١١ سطر ٣٢ ـ ٣٣ .

الانجيلية ، ولكشف عنوم أسباب المساءة العائدة بضيرهم ... (١) وأحياناً أخرى يطالب العربان مشاركة رهبان الدير في الارض الزراعية بالوديان المخضرة التي بأيديهم وما تغله من خيرات . فيلجأ الرهبان - كعادتهم - إلى السلطات المختصة بمصر لحسم الامر . من ذلك منشور يرجع إلى القرن السابع الهجرى (أوائل القرن الثالث عشر الميلادى) صدر فيه الأمر « بإزالة الاعتراض عن الرهبان بطور سيناء في الثلاثة فدادين التي بأيديهم ، وأن توفر زراعتها عليهم ، ويمكنوا من التصرف فيها ، وأن لا يتعرض لها أحد من العربان وأن يؤذيهم فيها » (٢) . وفي منشور آخر يرجع الى سنة ٦٠٧ هـ (١٢١٠ - ١٢١١ م) جاء « . . . الى كافة المقطعين والنواب والمترددين ، باجرائهم (أى رهبان الدير) في النخل المذكور أسوة ماهو بيدهم من النخل وغيره ، واعفائهم من طلب المشاطرة . . . » (٣) .

وثمة نوع آخر من النزاع تكشف عنه تلك الوثائق ، وكان يثور بين الرهبان والمجاورين لديرهم الذين كانوا يطالبون بالسكنى معهم أو تخزين غلالهم في أديرتهم . من ذلك وثيقة مؤرخة في ٥ ذى القعدة ٥٩٥ هـ (٢٩ أغسطس سنة ١١٩٩ م) صادرة من ديوان الانشاء بمصر جاء فيها « . . وأن لا يلزموا (أى رهبان الدير) بمساكنة غيرهم ، ولا تخزن غلة ولا غيرها في ديرهم » (٤) .

(١) أنظر الوثيقة رقم ١٢ سطر ١٤ - ١٧ و ٢٠ .
(٢) أنظر الوثيقة رقم ١٤ .
(٣) أنظر الوثيقة رقم ١٥ .
(٤) أنظر الوثيقة رقم ١٢ سطر ١٨ - ١٩ .

ونظراً لبعد الدير عن المناطق الآهلة ، وصعوبة الطرق والمواصلات اليه ، وما كان يتعرض له المسافرون إلى طور سيناء لزيارة آثارها المقدسة من متاعب ومصاعب ومن أخطار وأهوال ، ومنها هجوم اللصوص وقطاع الطرق عليهم وسلبهم ما معهم . فقد طلب المسئولون بالدير من الحكام بمصر الاذن بإصدار الأمر بمنع التعرض لمن يقوم بزيارة الدير ، وتأمين الطريق المؤدى اليه . ففي وثيقة بتاريخ ٦ محرم ٥٩٢ هـ (٣ ديسمبر سنة ١١٩٥ م) صدر الامر بمنع من « يتطرق لاخافة سبيلهم المسلوك لزيارتهم .. ولا يعارض زوارهم من البلاد الشامية بوجه من وجوه اضرار أو أذية (١) .

وهناك ناحية أخرى تكشف عنها الوثائق المذكورة ، وهي الرسوم والغرامات التي كان النواب والولاة يحصلون الطورية يحصلونها من هؤلاء الرهبان . ويبدو أن الرهبان كانوا يلجأون إلى الجهات المختصة بمصر في طلب ازالة هذه الأعباء عن كواهلهم ، فيخرج الامر من مصر « .. بحسم مواد الضرر عنهم ودفع أذيتهم من كل ما يلزمونه ويطالبون به ، ويكرهون على أدائه وتقسيطه من الرسوم والمؤن والغرامات وسائر الكلف التي لم تجر العادة بها ، حملاً لهم على عدل الدولة وبرها ، وإجراء على سنة الاسلام فيهم .. وعملاً بقضايا السجلات التي بأيديهم .. (٢) . ومن الوثائق الهامة في هذا الشأن وثيقة يرجع تاريخها إلى ربيع

---

(١) أنظر الوثيقة رقم ١١ سطر ٣١ و ٣٥ .

(٢) أنظر الوثيقة رقم ٩ بتاريخ ذو الحجة ٥٤٨ هـ (فبراير - مارس ١١٥٤ م) - راجع أيضاً الوثيقة رقم ١١ سطر ٢٩ - ٣٠ التي جاء فيها « .. ويمنع من يتعدى بقطع رسومهم الجارى بها مألوف عادتهم » .

الثانى ٥٥١ هـ (مايو - يونيو ١١٥٦ م) رداً على التماس من أسقف دير سيناء المسمى أنطون ، وهى صادرة من ديوان الانشاء بمصر فى عهد الخليفة الفاطمى الفائز بنصر الله . وقد جاء فيها « . أنهى إلى حضرتنا استضرار أنطون أسقف طور سيناء بما يقصده به الولاة من الاجحاف . ويلتمسونه من جهته من رسم أحدثوه ، وهو عشرة دنانير وبساطان . أنكرنا ذلك على معتمديه . وخرج أمرنا بإيداع هذا المنشور الآمر بإزالة هذا الرسم وتعفيته ، والمنع من التماسه من هذا الاسقف ، والحذر من تناوله من جهته » (١) .

وكيفما كان الامر فقد كانت مثل هذه الالتماسات والشكايات موضع العناية من السلطات المصرية ، سواء أكانت فاطمية أو أيوبية أو مملوكية . فكانت تصدر الاوامر بما يكفل اشاعة الاطمئنان لدى رهبان الدير وزواره . ففى منشور بتاريخ ٣ جمادى الثانى ٥٠٣ هـ (٤ فبراير ١١٠٩ م) جاء الامر من الخليفة الفاطمى « بصرف العناية إلى ما يستقيم من حال هذا الاسقف (يعنى أسقف طور سيناء) والمقيمين معه فى الطور من طائفته وأهل ملته ونحلته ، والجرى على أحواله جميعهم على السداد فى الاقامة هنالك والاستقرار . » (٢) وفى منشور آخر بتاريخ ١٦ محرم ٥٩٢ هـ (٢١ ديسمبر ١١٩٥ م) « . . وسبيل كل واقف على هذا المثال من الامراء والولاة أجمعين ، أيدهم الله ، والنواب وكافة المستخدمين ، وحمل الامر على حكمه والانتهاء إلى واجب رسمه ، والانكار على من خالفه بعد علمه ، عاملين بفحواه ، معتمدين على العلامة الشريفة فى

---

(١) أنظر الوثيقة رقم ١٠ سطر ٢٠ - ٢٥ و ٢٨ - ٣٢ .

(٢) أنظر الوثيقة رقم ٦ سطر ٢٠ - ٢٣ .

إعلاء شأنه (١). وفى وثيقة ثالثة بتاريخ ٥ ذو القعدة ٥٩٥ هـ (٢٩ أغسطس ١١٩٩ م) «... وأمرنا هذا لذلك مؤكد ، ولا ثواب له ، أمان اليهم مجدد .. وليكن العمل بمقتضيه فى اليوم والغد . وليقر بأيديهم بعد قراءته حجة لهم فيما بعد . » (٢) وقد يحدد المنشور جهات الاختصاص والتنفيذ . فقد جاء فى واحد منها تاريخه ذو الحجة ٥٤٨ هـ (فبراير - مارس ١١٥٤ م) «... فمن قرأه أو قرىء عليه من الامراء . والولاة بالشرقية ومدينة القلزم ومتولى الحرب بالطور فليعلم ذلك من الامر وليعمل به وليتنبه إلى موجبه وحكمه . وليقر بأيديهم أو بيد من يقع عليه حجة لهم بما تضمنه فى اليوم وما يليه »(٣) .

ونخرج مما سبق ذكره بنتيجة هامة تكشف عنها وثائق طور سيناء بجلاء لا لبس فيه ولا غموض ، وهى سياسة التسامح التى سارت عليها السلطات الاسلامية فى مصر حيال أهل الذمة . فقد أوضحت هذه الوثائق أن رهبان طور سيناء كانوا يعيشون فى ديرهم النائى وهم هادئين آمنين مطمئنين دون أن يلحقهم أذى أو يصيبهم مكروه ، مع تأمين طريق الحجاج الذين كانوا يقومون بحجهم إلى هذا المكان المقدس . لقد اشتهر المسلمون بسعة صدرهم وتسامحهم الصادق فى أمور الدين وفى الحريات الشخصية ، وذلك يرجع لما انطوى عليه الدين الاسلامى من روح التسامح والمحبة ولا سيما مع أهل الذمة (٤) . ويبدو هذا واضحاً فى جميع

---

(١) أنظر الوثيقة رقم ٩١ سطر ٣٦ لـ ٤٢ .
(٢) أنظر الوثيقة رقم ١٤ سطر ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٤ ، ٤٠ - ٤٢ .
(٣) أنظر خاتمة الوثيقة رقم ٩ ... [illegible]
(٤) وكانت هذه هى نفس السياسة السمحة المتسامحة التى اتبعها العرب حيال الحجاج الاوربيين الوافدين إلى الاراضى المقدسة فى العصور الوسطى عند ما يحضر

الوثائق العربية الصادرة من ديوان الانشاء بالديار المصرية الى دير سيناء : من ذلك ما جاء فى منشور يرجع إلى أواسط القرن السادس الهجرى (أواسط القرن الثانى عشر الميلادى) « ... أنه لما كان من شيمنا ازالة المحرمات وتعقبة آثارها والمنع من الاستمرار عليها ، وتأكيد انكارها ، ورعاية من يحتوى عليه نطاق مملكتنا من أهل الذمة ، واعتمادهم بما يسبغ عليهم ملابس الحنو والرحمة ، تساويا فى عدلنا الصغير والكبير ، وشمولهم من حسن نظرنا ما يسهل عليهم من المطالب كل مستصعب عسير ... »(١) وجاء فى وثيقة أخرى ترجع إلى أواخر ذلك القرن ما يؤكد نفس المعنى السابق « ... أنا لم نزل وله الحمد نذب عن الرعايا الذين فرض الله تعالى أمرهم الينا ، وأحالت الشريعة الطاهرة فى حياطتهم علينا . فنكف كف الاذى عنهم ونجازى على الاحسان من سلك طريقه منهم . فنقيل عثرتهم ، ونكشف كربتهم وغمتهم ، ونضاعف ذلك لبطاركتهم ورهبانهم وقسيسيهم وكهانهم ، وساكنى الصوامع من زهادهم ، والمنقطعين بالاديرة من عبادهم .. » (٢)

كان رهبان القديسة كاترين خاضعاً للسلطات الحاكمة سواء كانت فاطمية أو أيوبية أو مملوكية . أنظر جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الاولى ـ الاسكندرية ١٩٦٣ - ١٢٩ ح ١ .

(١) أنظر الوثيقة رقم ١٠ سطر ١٢ - ٢٠ .

(٢) أنظر الوثيقة رقم ١١ سطر ١٤ - ٢٣ . ويتكرر نفس المعنى فى معظم المنشورات الصادرة لصالح رهبان طور سيناء . ففى واحدة منها جاء « ... وحسم مواد الضرر عنهم .. رعاية لذمة الاسلام فيهم .. » أنظر الوثيقة رقم ٢٩ وفى منشور آخر صدر الأمر الى الوالى المختص بأن « يشملهم بكل ما أن عاده (يقصد رعايته) مشاريع رعايتنا ، وحمايتهم ، وتخفيف الوطأة عنهم بمكان انقطاعهم فى ذلك »

وكان رهبان دير سيناء وأساقفهم يقدرون تماما حسن معاملة السلطات المصرية لهم . ويتضح هذا من منشور صدر من الديوان بمصر بتاريخ ٣٠ جمادى الثانى ٥٠٢ هـ (٤ فبراير ١١٠٩ م) جاء فيه « .. أنهى أسقف طور سيناء المعروف يثفرى وجماعة الرهبان والنصارى المقيمين معه ، أنهم فى ظـــل الدولة الحافظية آمنون ، وفى وطن عدلها ساكنون ، وأنهم مالكون فى زمانها يفتخرون ، وبما يخرج من أوامرها يتشرفون » (١) .

وتكشف الوثيقة الاخيرة أنه كان يتولى رئاسة الدير أسقف كان مقدما على رهبانه ومسئولا عنهم وعن كافة شئون الدير . نستدل على ذلك من منشور صادر من ديوان الانشاء بمصر فى مستهل القرن السادس الهجرى (مستهل القرن الثانى عشر الميلادى) جاء فيه « .. بأن يخصص هذا الأسقف بميزة عليهم (أى على رهبانه) فى التكرمة بما له عليهم فى شريعتهم من الرتبة والتقدمة ، لينفذ فيهم أحكامه وليقودهم إلى الطريقة الحميدة زمامه » (٢) .

هذا عن النواحى التى تكشف عنها تلك الوثائق . وهناك مسألة أخرى لا تقل فى أهميتها عما سبق ذكره . إذ اتضح انه ورد فى عـــدد قليل من تلك الوثائق أسماء بعض أساقفة طور سيناء . بينما جاءت معظم الوثائق خلوا من أسماء أساقفة الدير . ولهذا أهميته الكبرى ، لأنه لا يوجد بالدير وثائق أو مخطوطات سواء بالعربية أو اليونانية القديمة أو غيرهما من اللغات تضمنت أسماء أساقفة الدير

= المكان الشريف ، ولا يمكن أحداً من اذيتهم . فما منهم الا من هو المسكين الضعيف » . أنظر الوثيقة رقم ١٢ سطر ٢٧ - ٣٢ .

(١) أنظر الوثيقة رقم ٦ سطر ٧ - ١٠ .

(٢) أنظر الوثيقة رقم ٦ سطر ٢٤ - ٣٧ . كما جاء فى الوثيقة رقم ١٠ سطر ٢٣ - ٣٥ ، أمر برعاية أسقف طور سيناء والمبالغة فى اعزازه وتكريمه .

وتراجم حياتهم فى الفترة الوسيطة من التاريخ . وليس من السهل تعليل عدم وجود سجلات لاولئك الاساقفة . ولعله كانت توجد تراجم لهم واندثرت مع الزمن نتيجة الاهمال . وان كان هذا التعليل بعيد الاحتمال لسبب واضح وهو أن الدير احتفظ بوثائق ومخطوطات يرجع تاريخ بعضها إلى القرن السابع الميلادى والقرون التالية . وظلت باقية حتى يومنا هذا . فلو كانت هناك فعلا تراجم لاساقفة الدير لاحتفظ بها مثلما احتفظ بغيرها من المستندات . وعلى هذا فان ورود اسم أى أسقف من أساقفة طور سيناء فى أى وثيقة من الوثائق المشار اليها يعتبر أمراً له قيمته واعتباره .. وبعد التنقيب فى وثائق العصرين الفاطمى والايوبى أمكن الكشف عن اسماء ثلاثة من أولئك الاساقفة الذين تولوا إدارة الدير فى فترات مختلفة متباعدة . ففى وثيقة بتاريخ ٣٠ جماد الثانى ٥٠٢ ﻫ (٤ فبراير ١١٠٩ م) جاء أن اسم أسقف طور سيناء وقتذاك هو نيفرى (١) . ونعرف من الوثيقة المؤرخة ربيع الثانى ٥٥١ ﻫ (مايو - يونيو ١١٥٦ م) أن أسقف الدير فى ذلك الحين كان يسمى أنطون (٢) . وفى وثيقة ثالثة بتاريخ ٥٩٨ ﻫ (١٢٠١ - ١٢٠٢ م) أن الاسقف وقتذاك كان يدعى سمعان (٣) .

وإذا كانت أسماء هؤلاء الاساقفة الثلاثة أمكن الوصول اليها عن طريق الوثائق المتقدمة ، فان المخطوطات والايقونات المحفوظة بالدير تساعد بدورها على الكشف عن البعض الآخر . إذ جرت عادة البعض بالتأشير أحياناً على هوامش المخطوطات العربية واليونانية المحفوظة بالدير بما يفيد قراءتهم لها أو اطلاعهم عليها . وكانوا عادة يسجلون أسماءهم ويثبتون التاريخ كتابة

---

(١) أنظر الوثيقة رقم ٦ سطر ٧ . ونيفرى هو تحريف للاسم اليونانى نيفريوس .

(٢) أنظر الوثيقة رقم ١٠ سطر ٢١ .

(٣) أنظر الوثيقة رقم ١٣ .

يحف بإشيراتهم . ويمكن الاستعانة بمثل هذه المخطوطات - ولو أنها قليلة العدد - إلى جانب الايقونات والوثائق العربية التى وردت بها أسماء الاساقفة ، فى تحديد الأسماء والتواريخ التى تولى فيها هؤلاء الاساقفة أو غيرهم رئاسة الدير .

ولئن كان ما تقدم يبين مدى أهمية تلك الوثائق ومحتوياتها من الناحية التاريخية ، فإنها تثير بعض نقاط أخرى جديرة بالبحث والدراسة ، تلخص فيما يلى :

(أولا) هل كان ديوان الانشاء بمصر يحتفظ بصور أو أصول لتلك المنشورات التى كان يبعث بها إلى أساقفة دير سيناء ورهبانه ؟ وهل كان الديوان يحتفظ أيضاً بصور من الأوامر التى كان يبعث بها إلى الولاة والنواب المختصين للتنفيذ ؟ ربما كان ديوان الانشاء يصدر المكاتبة من صورتين يبعث باحداهما إلى الدير الذى حفظها لنا من الضياع ، ويحتفظ بالثانية فى الديوان نفسه وتكون قد اندثرت مع الزمن . ويحتمل أيضاً أن الديوان كان يكتفى بإرسال المكاتبة إلى الدير دون أن يحتفظ بنسخة أخرى منها . وسواء أكان الدير قد احتفظ وقتذاك بصور لتلك المنشورات والاوامر أم لا ، فأنه لم يبق سوى الوثائق التى توجد بمكتبة القديسة كاترين فى سيناء والتى حفظها لنا الزمن من الضياع . ومن هنا جاء اهتمام المؤرخين الحديثين فى الشرق والغرب بها . فعكفوا على دراستها وتحليلها ونشرها نشرا علميا دقيقا محققا . وقد قام العلماء الانجليز والالمان اخيرا بنصيب وافر فى هذا الميدان .

(ثانياً) لقد كشفت المنشورات المرسلة من السلطات المصرية إلى أساقفة الدير ورهبانه أنها رد على التماسات وشكايات مرسلة من الدير . فهل كان الدير يحتفظ بصور من تلك الالتماسات والشكايات ؟ أم كان يكتفى بارسال المكاتبات إلى مصر دون الاحتفاظ بصور منها ؟ ليس من السهل الاجابة على هذا السؤال

أو البت فيه برأى قاطع . والمهم أننا لم نعثر فى الدير ومكتبته على أى التماس أو شكوى من هذا القبيل . وهناك احتمالان لا ثالث لهما : أما أنه يوجد صور لهذه المكاتبات بالدير أو بديوان الإنشاء بمصر وضاعت مع الزمن . وأما أن الرهبان كانوا يكتفون بكتابة التماساتهم التى يبعثون بها إلى الديار المصرية من نسخة واحدة دون أن يحتفظوا بصور منها ، وفقدت هى الأخرى . والاحتمال الثانى هو الأقرب إلى الصحة نظراً لندرة الورق وقتذاك من جهة ، ولعدم وجود أى مكاتبة من هذا الصنف بالدير من جهة أخرى . ولو كانت مثل هذه الالتماسات موجودة فعلا ، لا حتفظ بها الدير مثلما احتفظ بالمنشورات والأوامر وخطابات التوصية التى كانت ترسل اليه من مصر ، ومثلما احتفظ بالمخطوطات والوثائق الأخرى وغير ذلك من الذخائر والمخلفات المقدسة .

هذا عن وثائق العصرين الفاطمى والأيوبى المحفوظة بدير سيناء من الناحية الموضوعية : أما من حيث الشكل والصياغة ، فهناك عدة ملاحظات نوجزها فى النقاط الآتية :

١ — تبدأ الوثيقة بالبسملة ثم الافتتاحية (١) التى يستهلها الكاتب بديوان الإنشاء بذكر اسم الحاكم وألقابه ، مع ايراد بعض الجمل فى امتداحه . ثم ينتقل إلى مضمون الالتماس المقدم من أسقف الدير ورهبانه . ويعقب ذلك الأمر الصادر إلى الجهات المعنية بإزالة أسباب الشكوى وإتخاذ اللازم نحو التنفيذ .

---

(١) نلاحظ أن الافتتاحية فى بعض الوثائق غير موجودة لوجود قطع فى الوثائق من أعلا ، مثال ذلك الوثيقة رقم ٨ ، والوثيقة رقم ٩ التى يوجد تآكل فى أعلاها ، وكذلك الوثيقة رقم ١٥ .

ويختتم الوثيقة باثبات التاريخ الهجرى كتابة ( ) ، مع توجيه الحمد والشكر إلى الله سبحانه وتعالى والصلاة والسلام على نبيه محمد عليه السلام .

٢ ـ الوثائق صادرة من ديوان الانشاء بالديار المصرية ، والخط ديوانى جميل (٢) ، والكتابة مدونة بالمداد الأسود الذى احتفظ بلونه الداكن (٣) .

٣ ـ يلاحظ أن معظم الكلمات غير منقوطة (٤) ، وبعضها متشابك (٥) كما أن بعض العبارات الديوانية مختصرة (٦) .

٤ ـ جميع الوثائق خالية من الفصلات والوقفات والهمزات التى راعينا اثباتها فى الوثيقتين المنشورتين على الصفحات التالية ، الأولى ترجع إلى العهد الفاطمى ، والثانية ترجع إلى زمن الأيوبيين .

هذا ويلاحظ أن جميع الوثائق المشار اليها مكتوبة على لفائف من الورق يتراوح طولها بين ٢٩,٥ سم و٥٤٢ سم ، وعرضها بين ١٢ سم و ٤١ سم وهذا

---

(١) التاريخ فى الوثيقة رقم ١٦ مثلا غير كامل لوجود تمزيق بآخرها من جهة الشمال .

(٢) يوجد عدد قليل من هذه الوثائق التى تتميز بخطها الردىء ، اذ أن كثيراً من كلماتها يصعب قراءتها أو تفسيرها . مثال ذلك الوثيقة رقم٦ والوثيقة رقم٧ .

(٣) هناك وثيقة واحدة ترجع إلى العهد الفاطمى ، وهى مدونة بالحبر الأسود الذى تحول مع الزمن إلى اللون البنى الفاتح ، وهى الوثيقة رقم ٧ .

(٤) عدد قليل من هذه الوثائق بعض كلماته منقوطة ، مثل الوثيقه رقم ٦ والوثيقة رقم ١٢ . وكذلك بعض كلمات الوثيقتين رقم ١٠ ورقم ١١ .

(٥) نضرب مثلا لذلك بالوثيقة رقم ٧ .

(٦) أنظر لوحات رقم ١ ح ، ١ط ، ٢ ب .

الورق من النوع الذى كان مستعملا حتى القرن الثالث عشر . وهو بصفة عامة فى حالة جيدة من الصيانة والحفظ ، وان كان يوجد ببعض اللفائف أحياناً تمزيق وثقوب صغيرة وتآكل فى الجوانب (١) . ولون الورق ضارب إلى الصفرة .

الوثيقة الاولى

الوثيقة رقم ١٠ - مقاس ٤٨٨ × ٢١ سم - تاريخ ربيع الثانى ٥٥١ هـ (٢) (مايو - يونيو ١١٥٦ م) .

« من ديوان الخليفة الفاطمى الفائز بنصر الله إلى أنطون أسقف دير سيناء ورهبانه » (٣) .

سطر

١ بسم الله الرحمن الرحيم .

٢ منشور تقدم بكتبه (٤) فى مولانا

٣ ـــ الحمد لله على نعمائه ـــ (٥)

---

(١) الوثيقة رقم ٦ بها تآكل فى أكثر من موضع ، وكذلك الوثائق أرقام ٩ و ١٣ و ١٤ .

(٢) ترجع هذه الوثيقة الى عهد الخليفة الفاطمى الفائز بنصر الله الذى حكم من سنة ٥٤٩ هـ الى سنة ٥٥٥ هـ

(٣) اسم كل من الخليفة الفاطمى وأسقف طور سيناء مستمد من الوثيقة نفسها . أنظر سطر ٤ و ٢١ ، وكذلك لوحة رقم ١ ا ولوحة رقم ١ ج .

(٤) هذا السطر غير واضح فى الوثيقة ، ولكن أمكن تفسيره بمقارنته بالسطر الثانى من الوثيقة رقم ١١ . أنظر اللوحة رقم ١ ا .

(٥) جملة اعتراضية بخط مغاير . أنظر نفس اللوحة السابقة .

٤ وسيدنا الإمام الفائز بنصر الله (١)
٥ أمير المؤمنين ــ صلوات الله عليه وعلى
٦ آبائه الطاهرين وأبنائه المنتظرين (٢)
٧ السيد الأجل ، الملك الصالح ، ناصر الأئمة ،
٨ كاشف الغمة ، أمير الجيوش ، سيف الإسلام ،
٩ عنان الأنام ، كافل قضاة المسلمين ،
١٠ وهادى دعاة المؤمنين ، أبو الغارات (٣)
١١ طلائع الفائزى . وتضمينه
١٢ أنه لما كان من شيمنا ازالة المحرمات ،
١٣ وتعقبة آثارها ، والمنع من الاستمرار
١٤ عليها ، وتأكيد انكارها ، ورعاية من
١٥ يحتوى عليه نطاق مملكتنا من أهل الذمة ،
١٦ واعتمادهم بما يسبغ عليه ملابس
١٧ الحنو والرحمة . تساوى فى عدلنا
١٨ الصغير والكبير ، ويشملهم من حسن
١٩ نظرنا ما يسهل عليهم من المطالب
٢٠ كل مستصعب عسير . وأنهى

(١) أنظر لوحة رقم ١ ا .

(٢) وردت هذه العبارة فى الوثيقة رقم ٨ « وأبنائه الأكرمين » ، بينما جاءت فى الوثيقة رقم ٨٠ « وأبنائه المنتظرين » .

(٣) وضعنا امامها علامة استفهام لأنها غير واضحة فى الوثيقة .

٢١ إلى حضرتنا استضرار أنطون (١) أسقف

٢٢ طور سيناء ، بما يقصده به الولاة من

٢٣ الأجحاف ، ويعتمدونه به من الحيف والاعتساف ،

٢٤ ويلتمسونه من جهته من رسم أحدثوه ، وهو

٢٥ عشرة دنانير وبساطان . فان (٢)

٢٦ ذلك قد قضى له ولمن معه من الرهبان بالأضرار ،

٢٧ وأجحف به وبهم التمادى عليه والاصرار .

٢٨ انكرنا ذلك على معتمديه ، وذممناه من

٢٩ قصد قاصديه . وخرج امرنا بايداع هذا

(١) من بين مجموعة الايقونات التى يحتفظ بها دير القديسة كاترين فى سيناء، ايقونة يرجع الاستاذ كورت فايتزمان تاريخها الى القرن الحادى عشر أو الثانى عشر . وهى تمثل سلم الخلاص وعدد من رهبان طور سيناء وهم يتسلقون السلم رغبة منهم فى الوصول الى السماء حيث يوجد المسيح يتقبلهم واحداً بعد الآخر . ومن هؤلاء الاسقف أنطون وقد اتشح برداء أبيض ، ووصل الى أعلا درجات السلم . ونرى مادا كلتا يديه الى المسيح ، بينما بسط المسيح يديه ليستقبله وهذا يدل على أن الاسقف المذكور كان يتمتع بسمعة حسنة طيبة . ومع ذلك نشاهد بعض الرهبان الذين سقطوا الى الجحيم ضحية الآثام والخطيئة ، وقد اجتذبهم عدد من الشياطين الى أسفل . وترى هؤلاء الشياطين ممثلين بأحجامهم الصغيرة المجنحة وذيولهم القصيرة وردائهم الاسود مع وجود قرون صغيرة على رؤسهم . أنظر من ذلك Weitzmann Mount Sinai's Holy Treasures,p 115

ومن حسن الحظ أن الوثيقة رقم ١٠ بتاريخ (٥٥١ هـ / ١١٥٦ م) قد أشارت الى اسم أسقف طور سيناء وقتذاك وهو أنطون . ولما كانت هذه الوثيقة يرجع تاريخها الى أواسط القرن الثانى عشر الميلادى ، فمن المحتمل أن يكون أنطون المشار اليه هو نفسه أنطون الذى يبدو فى ايقونة سلم الخلاص الذى اشار اليه الاستاذ فايتزمان ، اللهم الا اذا كان هناك أكثر من أسقف لطور سيناء يحمل اسم انطون خلال القرن الثانى عشر .

(٢) أنظر اللوحات ١ ب ، ١ ج ، ١ د ، ١ هـ (من سطر ١٩ الى سطر ٢٥) .

٣٠ المنشور الأمر بازالة هذا الرسم وتعفيه ،
٣١ والمنع من التماسه من الأسقف ، والحذر
٣٢ من تناوله من جهته . واعتماده بالرعاية
٣٣ والملاحظة والمعونة والرافدة ، والمبالغة (١)
٣٤ فى اعزاز جانبه وتسهيل مطالبه .
٣٥ والتحذير من تكليفه أو أحد من رهبانه معه ؟ ،
٣٦ أو جاره ، واجرائه على القوانين المرضية
٣٧ والأوضاع المختارة .
٣٨ فمن قرأه أو قرىء عليه من كافة الأمراء
٣٩ الولاة بالحصون الطورية (٢) - أدام الله عزتهم -
٤٠ فليعمل بالممثل فيه ، وليتنبه إلى ما يوحيه
٤١ حكمه ويقتضيه ، وليحذر من تجاوزه ،
٤٢ ويعمد به . وليقر بيد منجره حجة له لمودعه .
٤٣ نسخ فى ديوان (٣) المجلس الفائزى السعيد .

---

(١) أنظر لوحة ١ و ولوحة ١ ز (من سطر ٢٨ إلى سطر ٢٣) .

(٢) يلاحظ أنه كان يتولى شئون الحكم والإدارة بالطور فى العهد العثمانى اثنان ، أحدهما يطلق عليه « الحاكم الشرعى ببندر الطور » والمقصود به الحاكم المدنى ، والثانى « الأغا ببندر الطور » وهو المسئول عن حفظ الأمن والنظام . أنظر الوثيقة رقم ٥٧ . بمكتبة دير سيناء ، وهى عبارة عن فرمان يرجع إلى العهد العثمانى - مقاس ٤٨ × ٢٢ سم - بتاريخ ١ رمضان ٩٩١ هـ (١٨ سبتمبر ١٥٨٣ م) .

(٣) الكلمة غير واضحة فى هذه الوثيقة ، ولكن بمقارنتها بما جاء فى الوثيقة رقم ٨ أمكن استقراؤها .

٤٤ ان اشاء الله .

٤٥ نسخ والحمد لله رب العالمين .

٤٦ ان شاء الله تعالى (١) ، فى شهر ربيع الآخر من

٤٧ سنة احدى وخمسين وخمسمائة .

٤٨ الحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وسلم تسليما . (٢)

٤٩ حسبى الله ونعم الوكيل (٣) .

الوثيقة الثانية

الوثيقة رقم ١١ - مقاس ٥٤٢ (٤) × ١٩،٥ سم - تاريخ ١٦ محرم ٥٩٢ هـ
(٢١ ديسمبر ١١٩٥ م .)

« منشور من ديوان الملك العادل أبى بكر بن أيوب خليل الى رهبان طور سيناء »

---

(١) مكتوبة بخط أكثر وضوحا فى الوثيقة رقم ١١ سطر ٤٢ . أنظر لوحة رقم ١ ح .

(٢) وردت فى الوثيقة رقم ١١ سطر ٤٤ - ٤٥ مع اضافة فقرة اليها ، ونصها « الحمد لله جل جلاله ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطاهرين ، وسلم تسليما كثيراً » أنظر لوحة ٢ ب .

(٣) جملة ديوانيه مختصرة ، وهى أكثر وضوحاً فى الوثيقة رقم ١١ سطر ٤٦ . أنظر أيضاً لوحة رقم ١ ح ولوحة ١ ط (من سطر ٤٢ - ٤٩) .

(٤) جاء فى كل من فهرست الدكتور عزيز سوريال وفهرست الدكتور مراد كامل أن مقاس الوثيقة هو ٥٧ × ١٩،٥ سم ، والحقيقة أنه ٥٤٢ × ١٩،٥ سم ولعله خطأ مطبعى .

سطر

١ بسم الله الرحمن الرحيم .

٢ مذشور تقدم بكتبه مولى الملك العادل ،

٣ ــ الحمد لله وبه توجيهى ــ (١)

٤ السيد الاجل ، الكبير العالم ، المؤيد المظفر ، (٢)

٥ المنصور ، المرابط ، الهمام ، سيف الدين ، ناصر الاسلام ،

٦ معين الأنام ، غياث الانام ، جلال الدولة ،

٧ تاج الملة ، مجير الامة ، سيد الملوك والسلاطين ،

٨ سلطان جيوش المسلمين ، قامع الكفرة

٩ والمشركين (٣) ــ أبو بكر بن أيوب خليل أمير المؤمنين .

---

(١) جملة اعتراضية مكتوبة بخط رديء مغاير . أنظر لوحة رقم ١٢ .

(٢) أنظر نفس اللوحة السابقة .

(٣) تتميز الوثائق العربيـــة المحفوظة بالدير بأهميتها فى الكشف عن ألقاب الخلفاء والسلاطين الذين تربعوا على عرش مصر خلال العصر الوسيط ، والتطور الذى طرأ عليها ، واختلافها من حاكم إلى آخر . ففى الوثيقة رقم ٦ بتاريخ ٣٠ جمادى الثانى ٥٠٢ هـ/٤ فبراير سنة ١١٠٩ م حيث كان يحكم مصر الخليفة الفاطمى الآمر بأحكام الله (٤٩٦ - ٥٢٤ هـ) وردت ألقابه كالآتى :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، الذى أيد الله به أمير المؤمنين من بالغ آكله ، وأورثه اياه من مقام آبائه الفداة الائمة كلهم » أنظر سطر ١ - ٤ من الوثيقه المذكورة . وفى الوثيقة رقم ٩ بتاريخ ذو الحجة ٥٤٨ هـ / فبراير - مارس ١١٥٤ م زمن الخليفة الفاطمى الظافر بالله (٥٤٤ - ٥٤٨ هـ) جاء « السيد الاجل الافضل أمير الجيوش ، سيف الاسلام ، ناصر الاسلام ، ناصر الامام ، كافل قضاة المسلمين ، وهادى دعاه المؤمنين » أما فى الوثيقة رقم ١٢ بتاريخ ٥ ذو لقعدة ٥٩٥ هـ/٢٩ =

١٠ قرن الله النفاذ بنهيه وأمره ، وأنطق

١١ ـ السن العباد بحمده وشكره ، ونور بالحسنات

١٢ مواقيت ليله وساعات فجره ، واحيا الآمال

١٣ بما يمطره سحاب سيبه ، ويمتد به أيام بره .

١٤ وتضمينه ، أنا لم نزل ولله الحمد نذب عن الرعايا

١٥ الذين فوض الله تعالى أمرهم الينا ، وأحالت

١٦ الشريعة الطاهرة فى حياطتهم علينا .

١٧ فنكف كف الاذى عنهم ، ونجازى على

١٨ الاحسان من سلك طريقه منهم .

١٩ فنقيل عثرتهم ، ونكشف كربتهم وغمتهم ،

٢٠ ونضاعف ذلك لبطاركتهم ورهبانهم

٢١ وقسيسيهم وكهانهم وساكنى

٢٢ الصوامع من زهادهم ، والمنقطعين بالاديرة

٢٣ من عبادهم (؟) .

٢٤ وتقدمنا بأن يجروا رهبان هذا

٢٥ الدير المذكور على عادتهم المستمرة ،

= أغسطس ١١٩٩ م فى عهد الملك العادل الايوبى كانت ألقاب الحاكم كالآتى : « خرج الامر العالى المولوى السلطانى الملكى الافضلى ، ركن الدولة ، عالى المنار ، نامى الفخار ، منصور له وتصار ، مسعود لا يرد ، وله اصدار نافذ فى الأطراف والاقطار .. » أنظر سطر ٢-٣ من الوثيقة المذكورة. أنظر أيضاً الالقاب الواردة فى المنشورين رقم ١٠ ، رقم ١١ .

٢٦ ويقروا على القاعدة المستقرة المستمرة ،
٢٧ وأن يتوسعوا بالرعاية والحماية والحياطة
٢٨ والكلاية ويمنع من يتعرض لاذيتهم أو
٢٩ يطمع فى مضرتهم، أو يتعدى بقطع
٣٠ رسومهم الجارى بها ماضى عادتهم ، أو
٣١ يتطرق لاخافة سبلهم المسلوك ازيارتهم .
٣٢ وأن لا يفسح للعربان ولا لغيرهم من الموافقين
٣٣ والمخالفين فى الاديان فى اهتضامهم،
٣٤ ولا فى تكليفهم نقض ما أقروا عليه من
٣٥ أحكامهم. ولا يعارض زوارهم من البلاد الشامية بوجه من وجوه اضرار أو أذية .
٣٦ وسبيل كل واقف على هذا المثال
٣٧ من الامراء والولاة (١) أجمعين — أيدهم الله — والنواب ،
٣٨ وكافة المستخدمين ، حمل الامر على حكمه ،
٣٩ والانتهاء إلى واجب رسمه ، والانكار على
٤٠ من خالفه بعد علمه . عاملين
٤١ بفحواه ، معتمدين على العلامة

---

(١) لم يحدد هذا المنشور جهـــات الاختصاص ، واكتفى بذكر الامراء والولاة والنـواب والمستخدمين، بينما كانت بعض الوثائق أكثر وضوحاً وتحديداً فى هذا الصدد . مثال ذلك الوثيقة رقم ٩ التى جاء فيها « فمن قرأه أو قرىء عليه من الامراء والولاة بالشرقية ومدينة الفرما ومتولى الحرب بالطور .. » أنظر أيضاً الوثيقة رقم ١٠ سطر ٣٨ - ٣٩ .

٤٢ الشريفه ( ) فى أعلاه . أن شاء الله تعالى .

٤٣ كتب سادس عشر المحرم سنه اثنتين وتسعين وخمسمائة .

٤٤ الحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطاهرين ،

٤٥ وسلم تسليماً كثيراً .

٤٦ وحسبى الله ونعم الوكيل (٢) .

(١) المقصود بالعلامة الشريفه التى توجد فى أعلا المنشور ، أنها تضفى عليه صبغة رسمية وتجعله شامل النفاذ . أنظر لوحة رقم ١ أ ، ولوحة رقم ٢ أ .

(٢) أنظر لوحة ٢ ب . هذا وتكاد خاتمة الوثائق التى ترجع إلى العهد الفاطمى تتفق فى ألفاظها . وهذا مايمكن أن يقال بالنسبة للتى ترجع إلى العصر الايوبى . فمن وثائق الفاطميين الوثيقة رقم ٦ سطر ٣٨ - ٣٩ « الحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وعلى آله الائمة الطاهرين ، وسلم تسليما . حسبى الله ونعم الوكيل . » وفى الوثيقة رقم ٩ « الحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنا محمد نبيه ، وعلى آله الطاهرين الائمة المهديين ، وسلم تسليما . حسبى الله نعم الوكيل» . أنظر أيضاً الوثيقه رقم ١٠ سطر ٤٨ - ٤٩ . ومن ثائق العصر الايوبى الوثيقة رقم ١٢ سطر ٤٦ - ٤٨ « الحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وصحبه وسلم . حسبى الله ونعم الوكيل » . أنظر ايضاً الوثيقة رقم ١١ سطر ٤٤ - ٤٦ ، وهى ترجع إلى العهد الايوبى .

اللوحـات

نماذج مصورة من الوثيقة رقم ١٠

بسم الله الرحمن الرحيم

لوحة ١ أ

لوحة ١ ب

لوحة ١ ج

لوحة ١ د

للاحجاف وبعهده وبينهم الحيف

وللمسوس من حسنتين بينهم احد نوه وهو

عشره دامر بن سلطان ولد

لوحة ٩ هـ

اهدى الملك على معهده وهو مسار

قصد قاصده وحرج امر بالملح البلاد

للمستوى الامراء الذين الكهم

والمنع من الناس من الاستبداد والحقد

مساواة حقيقة واعتماد في الرعاية

والملاحظة والمعونة والمراقبة والملاطفة

لوحة ١ ز

وبعد [illegible] محمد [illegible]

[illegible] الثاني السعيد

[illegible]

الى [illegible]

[illegible]

لوحة ١ ح

افتتاحية وخاتمة الوثيقة رقم ١١

بسم الله الرحمن الرحيم
منشور بعهد وزارة المولى الملك العادل

الحمد لله وبه توفيقي

السيد الأجل الكبير العالم المؤيد المظفر

لوحة ٣ أ

في سابع عشر المحرم سنة اثنين وسبعين وخمسماية

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطاهرين

وسلم تسليما كثيرا

حسبنا الله ونعم الوكيل

لوحة ٣ ب

المصـــادر

١ – وثيقة رقم ٦ بدير سانت كاترين فى سيناء – مقاس ٢١×٣٥٣سم – تاريخ ٣٠ جمادى الثانى ٥٠٢ هـ / فبراير ١١٠٩ م .

« منشور من ديوان الخليفة الفاطمى الآمر باحكام الله إلى نيفرى أسقف طور سيناء ورهبانه » .

٢ – وثيقة رقم ٧ بدير سانت كاترين فى سيناء – مقاس ١٤×١٦٥سم – تاريخ ١٧ ذو القعدة ٥٠٣ هـ / ٧ يونيو ١١١٠ م .

« منشور من ديوان الخليفة الفاطمى الآمر بأحكام الله إلى رهبـــان طور سيناء » .

٣ – وثيقة رقم ٨ بدير سانت كاترين بسيناء – مقاس ٢٢×٣٢٢سم – تاريخ ٣ رجب سنة ٥٢٩ هـ / ١٩ ابريل سنة ١١٥٣ م .

« منشور من ديوان [illegible] الفاطمى الحافظ لدين الله إلى رهبان طور سيناء » .

٤ – وثيقة رقم ٩ بدير سانت كاترين بسيناء – مقاس ٣٠٥ × ٤١ سم – تاريخ ذو الحجة سنة ٥٤٨ هـ / فبراير – مارس سنة ١١٥٤ م .

« منشور من ديوان الخليفة الفاطمى الظافر بالله إلى رهبان طور سيناء » .

٥ – وثيقة رقم ١٠ بدير سانت كاترين فى سيناء – مقاس ٤٨٨ × ٢١سم . تاريخ ربيع الثانى ٥٥١ هـ / مايو – يونيو سنة ١١٥٦ م .

« منشور من ديوان الخليفة الفاطمي الفائز بنصر الله إلى أنطون أسقف طور سيناء ورهبانه » .

٦ ــ وثيقة رقم ١١ بدير سانت كاترين فى سيناء ـ مقاس ٥٤٢×١٩,٥ سم ـ تاريخ ١٦ محرم ٥٩٢ هـ / ٢١ ديسمبر سنة ١١٩٥ م .

« منشور من ديوان الملك العادل أبي بكر بن أيوب خليل الى رهبان طور سيناء » .

٧ ــ وثيقه رقم ١٢ بدير سانت كاترين فى سيناء ـ مقاس ٢٨٧ × ١٣,٢ سم ـ تاريخ ٥ ذو القعدة ٥٩٥ هـ / أغسطس سنة ١١٩٩ م .

« منشور من ديوان الملك العادل الى رهبان طور سيناء » .

٨ ــ وثيقة رقم ١٣ بدير سانت كاترين فى سيناء ـ مقاس ٣٧×١٣ سم ـ تاريخ ٥٩٨ هـ / ١٢٠١ - ١٢٠٢ م .

« منشور من ديوان الملك العادل سيف الدين أبو بكر أيوب إلى سمعـــان أسقف طور سيناء ورهبانه » .

٩ ــ وثيقة رقم ١٤ بدير سانت كاترين فى سيناء ـ مقاس ٢٩,٥ × ١٧,٥ سم بتاريخ ٦ رمضان ٦٠٦ هـ؟ / ١٢٠٩ .

« منشور من ديوان الملك العادل الى رهبان طور سيناء » .

١٠ ــ وثيقة رقم ١٥ بدير سانت كاترين فى سيناء ـ مقاس ١٢٥ × ١٣ سم ـ تاريخ ٧ ... هـ / ١٢١٠ - ١٢١١ م .

« منشور من ديوان الملك العادل الى رهبان طور سيناء »

١١ ــ وثيقة رقم ١٦ بدير سانت كاترين فى سيناء ـ مقاس ٦٧×٢١,٥ سم ـ التاريخ غير كامل لوجود قطع بآخر الوثيقة .

« منشور من ديوان الملك الكامل محمد الأيوبى إلى رهبان طور سيناء » .

١٢ – وثيقة رقم ١٧ بدير سانت كاترين فى سيناء – مقاس ٥٫٥ × ٢٠٫٧ × ١٣٠٫٥ سم – تاريخ ٥ صفر ٦٩٠ هـ / ٧ فبراير ١٢٩١ م من العهد المملوكى .

« منشور من ديوان الملك الأشرف خليل الى رهبان طور سيناء » .

١٣ وثيقة رقم ١٥٧ بدير سانت كاترين فى سيناء – مقاس ٤٧ × ٢٢ سم – تاريخ ١ رمضان ٩٩١ هـ / ١٨ سبتمبر ١٥٨٣ م . من العهد العثمانى .

١٤ – مؤلف مجهول : كتاب تاريخ بناء الدير – مخطوط بدير سانت كاترين فى سيناء تحت رقم ٦٩٢ – مكتوب على الورق – تاريخه سنة ١٨٢٥ م .

اللوحات

لوحة ١ (أ – ط) نماذج مصورة من الوثيقة رقم ١٠

لوحة ٢ (أ – ب) افتتاحية وخاتمة الوثيقة رقم ١١ .

كشاف ابجدى عام

فهرس المحتويات

صفحة

